سلسلة السياسة والمجتمع

منابع الشيوعيّة الروسيّة ومعناها

تأليف
نيقولاس بردياييف

ترجمة:
ذوقان قرقوط

دار الطليعة - بيروت

المكتبة التقدمية

By: @SA9BB55

مَنابعُ الشيُوعيّة الرُوسيّة
وَمعنـاهَا

نيقولاس . بييرديائيف

By: @SA9BB55

مَنابعُ الشيُوعيّة الرُوسيّة وَمعنَاهَا

ترجَمَة:
ذوقَان قرقوط

دَار الطَليعَة للطبَاعَة وَالنَشر
بَيروت

حقوق الطبع محفوظة لدار الطليعة
بيروت - ص.ب ١٨١٣

الطبعة الاولى
(ايلول ، سبتمبر) ١٩٧٢

مقدمة

الفكرة الدينية والدولة الروسية

تفهم الشيوعية الروسية بصعوبة ، نظرا لما يتسم به معناها من ازدواجية . فهي تتكشف في اكثر من ناحية عن انها ظاهرة عالمية وشاملة وعن انها ظاهرة روسية وقومية في نواحي اخرى . اذ ان على الغرب ان يعرف بأن للشيوعية الروسية جذورا قومية وأن ابعادها انما تعين بتاريخ الروسيا :

فمعرفة الماركسية وحدها لا تكفينا هنا لانارة طريقنا .

ان الشعب الروسي بتكوينه الروحي شعب شرقي . فالروسيا هي الشرق المسيحي الذي خضع مدة من الزمان خضوعا قويا لاثر الغرب ولاسيما في صفوف طبقاتها المثقفة . ولكن هذه الطبقات هي التي استوعبت أفكاره . ولقد كان قدر الروسيا التاريخي قدرا تعسا نجده من عصر الى عصر يتطور وفقا لنوع من الايقاع الكوارتي ، في وسط تتابع متقطع من نماذج الحضارة بل واكثرها تنوعا . وعلى الرغم من الرأي الذي يقول به اصحاب النزعة القومية (السلافوفيل) فان هذا التاريخ يخلو من اية وحدة عضوية .

ذلك ان ما كان يسيطر عليه الشعب الروسي من اقاليم شاسعة كان معرضا دوما للاخطار : فمن الشرق تهددها غزوات التتار التي كانت روسيا درعا واقيا لأوربا منها . ومن الغريب كان الغرب نفسه يتهددها بالخطر . ويميز الانسان عبر هذا التاريخ خمسة أطوار متتابعة ، بيّنة الاختلاف :

روسيا تحت سيطرة كييف وروسيا في عصر التتار وروسيا المسكوفية

وروسيا في عصر امبراطورية بطرس واخيرا روسيا السوفييتية . فكيف يمكن الكلام عن «ثقافة فتية» في بلاد تحظى بمثل هذا القدم ، او كيف يصح الزعم بأنها بقيت الى وقت غير بعيد نصف بربريـــة ؟ والحقيقة ان روسيا بمعنى من المعاني ، بلاد ذات حضارة قديمة . ذلك انها في العصر الذي كانت فيه كييف عاصمة امارة فيها ، شهدت تفتح ثقافة أرفع مـــن ثقافة الغرب المعاصرة لها بما لا يقاس ، كانت فيها منـــذ القرن الرابع ، مدرسة كلاسيكية من رسّامي الايقونات وفن معماري بلغ من الرقي شأوا عظيما واقتفت روسيا الموسكوفية اثرها في مجال الفنـــون التشكيلية ، فبلغت حد الكمال في الاسلوب وحدا عظيما من المبالغة في دقة التصميم. وثمة ثقافة شرقية كذلك : ذلك هو الفن الذي ابدعته مملكة التتار المنتصرة. وهكذا اخذت الحضارة الموسكوفية تنضج على مهل ، وتنشأ من المقاومة التي تظهرها عادات السكان الاصليين في وجه الغرب اللاتينـــي . اذ ان تطور الفكر كان لا يزال ضعيفا بعد مرحلة خاصة من الحياة الفكرية ولكنها تفصح عن ذاتها بأسلوب تشكيلي لن تعرفه ، فيما بعد ، روسيا البطرسية، روسيا الجديدة ، التي تنبهت اخيرا الى اهمية الفكر والكلمة ، فأبدعت ادبا عظيما ، وبشرت بحقيقة اجتماعية ، غير انه أدب يفتقر افتقارا تاما الى الوحدة والى الاسلوب الذي ارتقى اليه الادب في بداياته الاولى .

هذه الصفات المتضادة في النفس الروسية هي التي حددت هـــذا التعقيد في قدر الروسيا التاريخي، وفي المعركة التي نشبت بين العنصرين: الشرقي والغربي فيها . وهي نفس صاغتها الكنيسة الارثوذكسية وجبلتها بطابع ديني صرف ما يزال حتى الآن ، حتى لدى العدميين ولـــدى الشيوعيين . ويضاف الى هذا التأهب الديني الـذي يتحلى به الجميع ، عامل طبيعي آخر قوي جدا ذلك هو العامل الناشيء عن رحابة الارض التي لا حدود لها ، عن السهل الممتد الذي لا نهاية له . فان حس «الطبيعة» الحس بالتيارات الخفية ، كان دائما عند الروس اقوى كثيرا مما هو عند الغربيين ولاسيما ذوي الثقافة اللاتينية منهم . وهكـــذا يتنازع الروس عاملان ، وثنية طبيعية وديونيزية (١) . وهكذا فاننا نجد من جهة ، الوثنية الطبيعية ومن جهة اخرى نسك اورثوذكسي موروث عن بيزنطـــة وحنين

---

١ ــ نسبة الى Dionysas اله الكرمة والخمر عند اليونان ، ابن الاله زيوس .
ــ المترجم ــ

التطلع الى مملكة في العالم الآخر . ويبدو ان الروسي وحده هو القادر على التوفيق بين هذين العاملين . فان تنظيم دياره الشاسعة ، ووضعها في اطار واحد يثقل كاهله ، ويعكس ، في بنيته الخاصة ، فقدان التخوم والحدود. وهكذا فان سعة آفاق نفسه تطابق سعة مشهد بلادهالجغرافي. اما في سائر أوربا فان انقسام الارض الى مناطق ضيقة وتوزيعها الى رقاع متماثلة ، محصورة ، قد يسّر ، على العكس ، ظهور الحضارة ، وحدد على وجه مختلف ، صورة التربة وخلق الانسان في آن واحد . حتى ليمكن القول اذن بأن الشعب الروسي هو ضحية ما تتصف به بلاد من رحابة وهي رحابة ، ذهب المؤرخون الى حد انهم اكتشفوا فيها سببا في شكل الحكم الاستبدادي الذي تتسم به كل حكومة في هذه البلاد . فقد كتب كيلوتشفسكي Kliauchevsky وهو ابرزهم يقول «لقد تضخمت قوة الدولة وتلاشت قوة الشعب » ويظل هذا القول صادقا الى حد ما بالنسبة للحكومة السوفييتية حيث يضحى بمصالح الشعب الروسي على مذبح قوة الدولة وتنظيمها .

ولقد ميّز التكوين الديني الشعب الروسي بملامح خاصة جدا : زهد، وعقائدية Dogmatisme وقدرة خاصة على تحمل الالم ومعاناته ، وعلى التضحية من اجل ما يؤمن به أيا كان نوعه واخيرا التطلع الى التسامي الذي يتمثل ، تارة بالاعتقاد في الخلود بالعالم الآخر وتارة أخرى في مستقبل يتحقق في غالم على هذه الارض . ذلك ان طاقة النفس الروسية الدينية تتضمن احيانا تطلعا الى أهداف ليست أهدافا دينية ، نحو اهداف وآمال اجتماعية مثلا . وبالنظر الى هذا التكوين المذهبي ـ الديني فقد كان الروس دائما مؤمنين صادقين . فهم صادقون اذا كانوا هراطقة وصادقون اذا كانوا مؤمنين بالرؤيا (١) او كانوا عدميين . فانهم يبقون مخلصين صادقين لطبيعتهم حتى في القرن السابع عشر عندما ينشقون تمسكا بأهداب عقيدتهم القديمة او عندما يصبحون ثوريين في القرن التاسع عشر. وهكذا تظلبنية النفس الروسية متشابهة وتبقى الانتيليجنسيا الثورية هي وريثة الروسي المنشق Raskol . ولهذا يبدو لنا ان الايمان الصحيح الارثوذكسي ايا كان الموضوع الذي يتعلق به، بالغ الاهمية،

---

١ ـ apocalyptique صفة من تجزعه الرؤيا apocalyse ، اي رؤيا يوحنا في نهاية العالم . ـالمترجم ـ

فيه ، بهذا الايمان الصحيح ، تتحدد دوما صفة كل ما هو روسي .

وعلى اثر سقوط الامبراطورية البيزنطية ـ التي كانت بمثابة روما الثانية ـ اعظم امبراطورية اورثوذكسية في العالم قاطبة انتشر الاعتقاد في صفوف الشعب بأن الدولة المسكوفية قد بقيت هي الدولة الوحيدة الاورثوذكسية وأن الشعب الروسي هو الشعب الوحيد الذي ما زال يحافظ على الايمان الصحيح . وهكذا كان الراهب فيلوتيه Philotée ينشر تصوره بأن موسكو هي **روما الثالثة** . ويكتب الى القيصر ايفان الثالث : «ان الكنيسة المقدسة الرسولية ، كنيسة روما الثالثة ، كنيسة مملكتك ، تتألق في السماء اسطع من اشراق الشمس ، فلتعلم قدرتك ، ايها القيصر التقي المبارك ان جميع ممالك العقيدة المسيحية الاورثوذكسية قد اندمجت كافة في مملكتك وانك انت وحدك ، تحت السماوات ، القيصر المسيحي الوحيد . فانظر واسمع ، ايها القيصر المبارك ، هذا الامر ، الا وهو ان جميع الممالك المسيحية قد انصهرت في مملكتك الوحيدة وأن روما الاولى وروما الثانية قد انهارتا وأن روما الثالثة ما زالت موجودة وأن روما الرابعة لن توجد . فان مملكتك لن تؤول الى احد» .

وهكذا سوف يكون تعريف موسكو بأنها **روما الثالثة** هو الاساسي الايديولوجي الذي تقوم عليه دولة القياصرة : وسوف تتكون اوتوقراطية موسكو تحت راية الرسالة التي تحملها . وكان البحث عن مملكة ، اي عن مملكة الحقيقة هو المثل الاعلى ، الذي لم ينفك الشعب الروسي يسعى اليه على مدى تاريخه كله . فبالعقيدة الاورثوذكسية كان المرء ينتمي الى هذه المملكة ، كما انه بالشيوعية سوف ينتسب الى روسيا السوفييتية . ان هذه الدعوة الى حمل رسالة تولّد كنيسة قومية . وكما كان الحال لدى الشعب العبراني القديم فان العناصر القومية والدينية معا سوف تترعرع في الدولة الموسكوفية وكما كان انتظار المسيح حدثا عبريا خاصا ، كانت الاورثوذكسية الروسية ، هي الاخرى ، تمثل سمة قومية صرفة .

غير ان فكرة المملكة الدينية سرعان ما تفرغ في قالب الدولة القوي التي لا تملك الكنيسة فيها غير دور ثانوي . ولقد كانت مملكة موسكو دولة دكتاتورية (١) وكان ايفان الرهيب ، وهو منظّر الاتوقراطية البارز يعلن بأن القيصر لا ينبغي ان يمسك بمقاليد السلطة فحسب بل ويجب عليه

---

١ ـ كان جوزيف بالاتسكوي هو مؤسس فكرة الاورثوذكسية في الدولة .

ان يخلص الارواح ايضا وكان من نتيجة هذه المركزية ان المملكة الجديدة الموسكوفية الموحدة سوف لا تنجب قديسين ، رجالا فريدين ، كما شهدت هذه الكنيسة نفسها يوم كانت ترزح تحت نير التتار ميلاد كثيرين من هؤلاء القديسين (٢) لما نعمت به من الاستقلال الروحي وتبوأته من مركز اجتماعي . وكان الوعي المسكوني (العالمي) قد خبا في هذه الكنيسة بمقدار ما كانت تكف عن اعتبار الكنيسة اليونانية ، التي اخذت عنها عقيدتها الاورثوذكسية ، هي الكنيسة الحقيقية ، ولكنها على العكس كانت تريد ان ترى فيها افسادا للايمان الصحيح . وبدا التأثير اليوناني منذئذ كالخميرة التي تتلف الوعي الديني الشعبي : فان العقيدة الاورثوذكسية ، العقيدة الصحيحة ، هي العقيدة الروسية ، والعقيدة غير الروسية هي عقيدة غير صحيحة ، لا أورثوذكسية .

عندما اراد البطريرك نيخون Nikhon القيام باجراء تصحيح في الكتب المقدسة وادخال تعديلات طفيفة على الطقوس التقليدية «وفقا للنماذج الاغريقية» اهاجت اصلاحاته كما نعلم احتجاجات عنيفة . عندئذ وقع أهم حدث في تاريخ روسيا الديني ، ابان القرن السابع عشر وهو ما يسمى بانشقاق المؤمنين ـ القدماء . ومن الخطأ الظن بان هذا الانشقاق قد وقع فقط من اجل مسائل تتعلق بالطقوس والشعائر الدينية وانه لم يتدخل فيه الا من كانت له علاقة بالصليب ذي الذراعين او الثلاثة وبالتفاصيل الخاصة بتنظيم العبادة الدينية . والحقيقة ان اسس الشقاق كانت أعمق من ذلك بكثير ، وهي الاسس نفسها التي اتينا على ذكرها . فقد كان المقصود بذلك هو توضيح المسألة التالية توضيحا تاما : هل كانت المملكة الروسية هي المملكة الاورثوذكسية الحقيقية وهل وفى الشعب الروسي بالدعوة الى حمل رسالته ام لا . ولا ريب في ان الضلالات والخرافات والمستوى الفكري الهزيل الذي هبط اليه بالعقيدة ، رجال اغبياء من الاكليروس ، قد لعبت دورا في الصراع ولكنها اذا قدمت لنا تفسيرا لتلك الثورة الدينية فانها لا تستقصي بالوضوح كل ما في الوقائع من تعقيد . لقد كان اساس الصراع ذلك الشك الذي تيقظ فجأة ، في ان الدولة الاورثوذكسية ، اي روما الثالثة قد عاث فيها الفساد وان الحقيقة الخالدة توشك ان تزيّف . وكان المسيح الدجال يهيمن بواسطة الدولة

---

٢ ـ انظر ن. فيديروف ، روسيا المقدسة ، القديمة .

والاكليروس الاعلى . مما اضطر الاورثوذكسية الشعبية عندئذ الى ان تنشق عليهما وان تعقد صلاتها بالارثوذكسية الحقة التي تسللت للعمل في الخفاء : ومن هنا كانت منشأة الاعتقاد باسطورة مدينة كيتيج Kitége المدفونة في اعماق البحيرة . فان الشعب يبحث عن المدينة الرمزية . ويشاهد عندئذ في صفوف الجناح الايسر من الشقاق وبخاصة في الطائفة التي تدعى بالطائفة التي ليس لها كهنة ، ميلاد تلك الاندفاعة وراء الرؤى الانجيلية ، الكوارثية ، المتميزة التي سوف تستمر في اوساط الانتليجنسيا الثورية الحديثة ، تحرك كوامنها دوما هذه النفحة نفسها ، يتملكها الاقتناع بان هناك قوة شريرة قد استولت على السلطة .

وفي القرن السابع عشر كما في القرن التاسع عشر نجدهم شعبيا وانتليجنسيا على السواء ، يبحثون عن مملكة مثالية قائمة على العدالة في مقابل هذه المملكة المرئية ، الراهنة ، التي يسودها الظلم . فقد كان قياصرة موسكو، اذ سموا موسكو روما الثالثة قد خلقوا الالتباس بين امبراطوريتهم الزمنية ، المؤسسة على الاستبداد المطلق وبين مملكة المسيح : وهو ما يوضح لنا بأن الشقاق نشأ في هذا الالتباس ، انه نشأ منه وضده . فان ما جعل هذه الحركة العظيمة على هذا المستوى من الغموض هو انها مشت طريقها بين جماهير كانت ما تزال جاهلة ، تمزج بالمسيحية عفونات كثيرة من الوثنية . ان هذا الانشقاق ، كما جرى قد وجه الضربة الاولى الى تلك الفكرة التي ترى في موسكو روما ثالثة . ولم يكن لاصلاحات بطرس ، بدا من ان تشنها حربا عليها ، في الجولة الثانية .

- ٢ -

كانت اصلاحات بطرس الاكبر حاسمة في تحديدها لما يليها من تاريخ روسيا بحيث غدا من غير الممكن تحديد مختلف الاتجاهات في القرن التاسع عشر الا بالنسبة لها . فاذا بوجهات نظر اصحاب النزعة السلافية slavaphiles ومشايعي الحضارة الغربية ، المتطرفة تبدو كانها خاطئة وفاسدة على حد سواء . اذ لم ير السلافيون في عمل بطرس الا خرقا للقواعد الاساسية في روسيا ، وارغاما يشكل عبئا على تطورها ويوقف مجراه . اما الآخرون الذين كانوا لا يعترفون بأن لروسيا طابعا خاصا يميزها على غيرها ، فقد كانوا يرون فيها بلادا متخلفة لا تزال غير قابلة

لهذا النموذج الغربي الذي يمثل في نظرهم النموذج الاوحد للثقافة والحضارة ولكن بطرسا كان يريد ان يشق لبلاده طريقا باتجاه هذه الحضارة وهذه الثقافة الغربية .

كان دعاة القومية السلافية Slavaphiles على خطأ اذ انكروا عليه صفة الحتم في اصلاحه . فلم يكن في وسع روسيا ان تظل دولة مغلقة على نفسها ، تعيش حياتها البالية محرومة من التكتيك ومن المعارف الحديثة . فروسيا ، لا يمكنها في مثل تلك الظروف تأدية رسالتها التاريخية فحسب . وانما كان استقلال وجودها نفسه يتعرض لخطر . وكانوا مخطئين ايضا لهذا السبب نفسه وهو ان ازدهار الثقافة الروسية يبدأ بالضبط في الحقبة التي تدعى بعصر بطرس وأن بوشكين وكبار الكتاب الذين سجلوا اسماء في سجل تاريخ الادب جميعهم قد ظهروا في هذا العصر الجديد كما استيقظ الفكر بجميع اشكاله بل واصبح من الممكن ظهور فكر اصحاب النزعة السلافية انفسهم . كان يجب اذاً على روسيا ان تتغلب على عزلتها الخاصة وتخرج منها وأن تشارك في الحياة العالمية لكي تقوم فيها بدورها المناط بها .

كان دعاة الحضارة الغربية ، من جهتهم مخطئين ايضا لانكارهم على الشعب الروسي اصالته وعلى تاريخه اية صفة متميزة ولانهم ، متشبثين بوجهة نظر جد ساذجة لم ينسبوا اليه مهمة اخرى اللهم غير تلك التي تقربه من الغرب فلم يروا ذلك النير الذي اثقلت به رقاب الشعب اصلاحات بطرس والتي كان ثمنها ضغط واسع المدى على النفس الروسية ومعتقداتها فأجاب الشعب على هذا القدر من العنف بأن أضفى على صورة بطرس الاول الاسطوري ملامح عدو المسيح ، المسيح الدجال . والحقيقة هي ان بطرسا، في قمة الدولة كان ثوريا : فلم يخل بتشبيهه بالبولشفيك من الصحة . كانت الاساليب التي اصطنعها موافقة تماما للمناهج البولشفية . فقد كان يريد ان يحطم روسيا الموسكوفية القديمة وأن يجتث منها جميع انماط المشاعر والوان الحياة التي كانت تكوّن جوهرها ، ومن اجل الوصول الى هذا الهدف فانه لم يتورع عن القيام بأي شيء ولا حتى عن تنفيذ الاعدام بابنه الذي كان اشياع الرجعية يتجمعون حوله .

كذلك تذكرنا اساليبه الذي تعرض بها للكنيسة بأساليب البلاشفة الحاضرة تذكيرا قويا فلم يكن يجب على ورع الموسكوفيين القدماء وكان شديد القسوة ، خاصة على متبعي الطقوس الدينية القديمة او المؤمنين القدامى . وذهب في ذلك الى حد انه اظهر كل ما يتعلق بماضي هذا

الشعور الديني بمظهر السخرية فنظم مجمعا هزليا من المطارنة وضع على راسه بطريركا كاريكاتوريا . وهي صفة تذكرنا بالمظاهر المناهضة للدين في روسيا السوفييتية بتفاصيلها الدقيقة . وكان تنظيم المجمع المقدس Sinodal الذي وضعه بطرس الاكبر شبيها بشكله للبروتستانية الالمانية . وفي نهاية الامر انتهى الى اخضاع الكنيسة لخدمة الدولة . ومع ذلك فاننا لا نستطيع ان نجعل تاريخ انحطاط مستوى الكنيسة الروسية يبدا بحكم بطرس الاكبر اذ كانت قد اخضعت من قبل، في العصر المسكوفي على يد الامراء العظام لتبعية ضيقة ، وكانت سلطة الاكليروس قد ضعفت منذ زمن طويل ؛ ورايا انخفاض مستوى التعليم الذي انحدر كثيرا في صفوف الاكليروس يؤدي بهم الى الانشقاق الذي كان لا بد من ان يوجه اليهم ضربة مريعة . لذلك كانت اصلاحات بطرس ضرورة ملحة . ولكنها ـ ولنكررها مرة اخرى ـ نفذت بطريق العنف دون مراعاة لمشاعر الشعب العميقة . ويمكننا هنا ان نعقد المقارنة بين بطرس ولينين وبين الثورة البطرسية والثورة البولشفية . فقد استخدمت كلتاهما عين الشراسة والعنف والتطبيق الاجباري العنيد لبعض المبادىء وهذا البتر المفاجىء لتطور البلاد ونموها العضوي الدال على انكار تام للتقاليد ، كذلك نجد النظام القائم على تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية نفسه والتضخم في جهاز الحكومة ، ومركزية متشابهة تعود الى خلق بيروقراطية متميزة ، ونفس الرغبة في تغيير نموذج الحضارة تغييرا قاطعا وجذريا .

ولكن الثورة البلشفية ، عن طريق هذا الضغط الذي لا يرحم ، قد اعتقت القوى الكامنة في الشعب واهابت به للرجوع الى الواقع التاريخي: وهنا تكمن دلالة هذه الثورة كلها. على حين عززت ثورة بطرس، بتعضيدها للدولة الروسية وبقيادتها للبلاد على خطى الثقافة الغربية والعالمية ، الفرقة بين الشعب وبين الطبقة القائدة والمثقفة. فقد جعل بطرس من الامبراطورية الاورثوذكسية ، امبراطورية علمانية ، وفيما كان النبلاء والموظفون يتقبلون الحضارة آخر الامر فان الشعب كان لا يزال سادرا في حياته بين معتقداته القديمة وعاداته القديمة . وكان سلطان القيصر الاوتوقراطي ، الذي تخلق، ظاهريا فحسب ، باشكال من الحكم الاستبدادي المستنير ، ما ينفك يحتفظ في صميم الشعب بهيمنته الدينية كقوة تستند في حكمها الى ارادة الله . فان ضعف اثر الكنيسة الروحي هو النتيجة الضرورية هنا للاصلاح ولتدفق الفكر الغربي . والواقع ان تيوفان بروكوبوفيتش ، وهو رئيس اساقفة بطرس الاكبر ، يرمز الى الرجل البروتستنتي المتصف بالصفات العقلانية.

وبينما كانت النزعة العقلانية تنفذ الى صفـــوف الاكليروس من رجال الكنيسة الرسميين ، فان نخبة جديدة من القديسين اخذت تنمو علـــى هامش هذا الاكليروس الرسمي ، اطلق عليها اسم «الستاريت» سوف تمارس في الخفاء نمطا من انماط الحياة الروحية في البلاد .

وهكذا ظلت ثقافة القرن الثامن عشر مجهولة من الشعب . فعلى حين تأثرت طبقة النبلاء بتعاليم فولتير تأثرا سطحيا الى حد ما ، من جهة ، وبالماسونية المتصوفة من جهة اخرى ، فان الشعب أمضى حياته يعيش معتقداته الدينية العتيقة ، ناظرا الى سيده من طبقة الاعيان كأنه ينتمي الى عرق اجنبي . وجاءت كاترين الثانية ، تلميذة الانسيكلوبيديين ، والتي كانت تراسل فولتير وديدرو ، فزادت من تفاقم هذه الاشكال المتخلفة من العبودية في صفوف رعاياها وهي اشكال كان لا بد لها بعد خمسين عاما ، من ان تثير عليها حنق الانتلجنسيا . فان الاثر الغربي لم يتحول اذن لصالح الشعب، لم يفعل الا انه قوّى وثبت امتيازات طبقة من الطبقات، اما امثال راديتشيف ، فقد كانوا رجالا شذوا عن القاعدة . ولم يفعل هذا التأثير الغربي نفسه فعله في الانتليجنسيا التي كانت في طور التكوين ، الا في القرن التاسع عشر ، ليتمخض عن تنمية عطفها على المساكين وعن افكار التحرير . ولكن الطبقات العليا سوف تظل بعيدة جدا عن الشعب . وربما لم يكن ثمة من وجود لمثل هذه الهوة العريضة ، التي تفصل بين الطبقات المتميزة في المجتمع في اي مكان من العالم الا في هذه الروسيا الامبراطورية. كذلك لم تشهد اية بلاد من العالم تعايشا في نفس العصر بين انماط من الحياة ترجع الى عصور مختلفة الى ذلك الحد ـ من القرن الرابع عشر الى التاسع عشر ـ من القرن العشرين الى القرن الواحد والعشرين المقبل ! فان روسيا القرن الثامن عشر والتاسع عشر ليست ابدا منظمة . وما تزال المعركة بين الشرق والغرب ناشبة في النفس وفي الطباع وسوف يطول أمدها حتى اندلاع الثورة . ولكن الشيوعية الروسية هي شيوعية شرقية. فاي غرابة في ذلك ما دمنا نرى ان التأثير الغربي الذي شاهدناه يتعاظم عبر القرنين غير انه لم ينفذ الى صميم الروح الشعبية؟ كما ان الانتليجنسيا نفسها ، على الرغم من تشبعها بنظريات الغرب لا تنتمي اليه . ذلك ان الامبراطورية التي شيدها بطرس كانت تنمو نموا خارجيا ، وتبني عظمتها في العالم وتنعم في الخارج بمزايا وحدة مصطنعة ، ولكنها لم تكن ، في الواقع ، تتمتع بالوحدة الداخلية ، فقد ظلت ممزقة أعمق التمزق : تمزق بين القادة والشعب وبين الشعب والانتليجنسيا وتفكـــك بين العناصر

الشعبية نفسها . وقد كانت عناصر معزولة في الدولة ، تلك الدولة التي نسخت نسخا عن صورة الحكم الاستبدادي الغربي فكانت ابعد ما تكون عن تحقيق فكرة روما الثالثة . بل كان لقب الامبراطور نفسه ، بدلا من لقب القيصر يشكل وفقا لمفهوم اصحاب النزعة القومية خيانة للمثل الاعلى الروسي الصحيح . كان نيقولا الاول المستبد يجسد مثالا للضابط البروسي . وهكذا سادت المؤشرات الالمانية البلاط واعلى مناصب الطبقة البيروقراطية . وهو ما اوجد اذا تناقضا منذ الاساس ، بين هذا الشكل من اشكال الدولة القومية ، المؤسسة على النمط العسكري والبوليسي ، وبين فكرة القيصرية القائمة على الايمان بأن لها رسالة دينية وهي الفكرة التي لم تنفك تتغلغل ، خفية ، في صفوف الشعب ولن تلبث ان تكسب، بصورة اخرى ، تأييد اوساط الانتليجنسيا . هذا هو الصراع الذي يجب ان يسود القرن التاسع عشر ، صدام بين شعورين الشعور بالامبراطورية المعتمد على القوة ، من جهة ، وشعور الانتليجنسيا من جهة اخرى وهكذا تأخذ السلطة بالتباعد ، شيئا فشيئا عن تجمعات المفكرين حيث تتعاظم ، بالمقابل ، الاتجاهات الثورية . الا ان طبقة النبلاء وجدت مستواها ينخفض فجأة فاذا بها تتخلى ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن المكان الذي كانت تحتله منذ مطلع القرن ، لطليعة الحركة الثقافية : وتصبح ، بدورها رجعية ، وكانت الطبقة الجديدة ، التي نشأت ، في السبعينات ، من الفاء الرق ووفدت من بين ابناء الفلاحين والشماسين وصغار التجار هي التي ستحل في صفوف الانتليجنسيا وعلى رأسها ، جالبة اليها روحا وطباعا مختلفة اشد الاختلاف .

كان فقدان الوحدة ، الذي يميز القرن التاسع عشر ، بعيدا الى حد انه ينبغي احصاء التيارات التي تجتاحه ، كل عشر سنوات ، نظرا لان كل حقبة من هذه الحقب المؤلفة من عشر سنوات تتسم بمعاني واتجاهات تجهلها الحقبة التي سبقتها ، ورغما عن كل شيء فان تركيب هذه التيارات جميعها قد اعطى فكرة من اقوى الافكار واكثرها اصالة .

كانت الغالبية العظمى من الشعب الروسي ـ ونعني بهم الفلاحين ـ يرزحون تحت نير العبودية . الا ان العقيدة الاورثوذكسية كانت سندا لهم وتمدهم بامكانية تحمل آلام حياتهم . وهي آلام كانوا يعزون المسؤولية فيها لا الى القيصر وانما الى طبقة النبلاء . ذلك انْ الاعتقاد الديني في قدرة سيد البلاد كان من العمق الى حد انهم كانوا ما يزالون يأملون في انه سوف يضع حدا لما يحيق بهم من شرور وآلام ، في اليوم الذي يعرف فيه اخيرا،

الحقيقة . ولقد بدا امتلاك السيد لمساحات واسعة من الارض امرا غير عادل في نظر الفلاح الروسي ، ذلك ان المفهوم الغربي للملكية كان ينقصه تماما حتى الطبقة الارستقراطية نفسها لم تكن تدركه تمام الادراك : فما دامت الارض ملكا لله فان من يستعملها هو الذي ينتفع بها . وهـــذه الاشتراكية الزراعية الساذجة راسخة الجذور في اعماق الفلاح الروسي. وهكذا كان هذا الفلاح البعيد عن الطبقات المثقفة وعن الانتليجنسيا ، يظل لغزا مستعصي الحل . وثمة حقيقة انسانية عظيمة قد تكون كامنة فـي هذه الجماهير الصامتة ، الجاهلة ، سوف يأتي اليوم الذي تظهر فيه الى الوجود . وكانت الانتليجنسيا ، المنفصلة عمليا عن الشعب ، تعيش تحت سحره ، سحر هذا الشعب الذي كان يسميه كتابه في السبعينـــات «سلطة الارض» وهكذا كانت الروسيا ، في القرن التاسع عشر تظهر للناظر امبراطورية فسيحة من الفلاحين ، مؤلفة من العبيد والاميين يصونـــون تقاليدهم الشعبية القائمة على الايمان ، تسودهم ، من فوق ، طبقة قائدة تتألف من نبلاء كسالى ، لا يتمتعون بثقافة عالية ، فقدوا معتقداتهـــم وشمائلهم القومية، بل غلالة رقيقة جدا من الثقافة تخفي تحتها بيروقراطية قوية ، وفي القمة يستوي القيصر الذي ما يزال موضع التبجيل الديني والتقديس . وتكاد المراتب الوسيطة في هذا البناء تكون موجودة . فليس فيه الا عنصران قويان قوة فعلية : الملكية المستبدة القائمة على النمط الغربي من جهة ، والشعب من جهة أخرى . وبين هاتين القوتين تجـــد الطبقة المثقفة نفسها محصورة تكاد تسحق ، وهكذا تسير انتليجنسيـــا القرن التاسع عشر على شفا هاوية بينها وبين هاتين القوتين ، يمكن أن تسقط فيها في اية لحظة فتبتلعها . كما ان وضع طبقة النبلاء ، من جانب آخر ، خطأ كذلك ، فان افضل عناصرها كان يشعر بشذوذ موقفه ويحس احساسا غامضا بالذنب . وثمة ضنك اجتماعي وروحي معا ينيخ على صدر الجميع . يسببه وجود تلك القوى جميعها التي تشكل تناقضا فـــي المبادىء ، مما حاولنا تحليله ، والتي يمثل تعايشها روسيا ابعد تمثيل بحيث يمكننا تعريفها بنقائضها فقط . انها بلاد لا يلغي فيها استبداد الدولة ميلها الى الفوضى ، وانما على العكس يقويه ، توفيق بين القومية والحس بالعالمية وبين المذهب الانساني والقسوة والميل اخيرا الى التعذيب ولكنه متعاطف الى ابعد حدود التعاطف . لقد خلقت هذه الامور المتعارضة ، طيلة تاريخ هذه البلاد النزاع الخالد بين سليقة القوة في الدولة والسليقـــة الشعبية في الاستقلال والعدالة . ذلك ان الشعب الروسي ، رغم مـــا

يذهب اليه اصحاب النزعة القومية (السلافوفيل) كان حليفا للدولة ، (وهو رأي ينطبق عليه ايضا في ظل النظام السوفييتي) . وفي نفس الوقت ، هو نفسه الشعب الذي يتمخض عن حركات العصيان ضدها : فمنه خرج القوزاك المتمردون ، واضطرابات ستينكارازين وبوغاتشيف Stenkor Paugatchev, Rasine ، والانتليجنسيا الثورية ، والايديولوجيا الفوضوية ، وهو الشعب الذي يمضي في بحثه الابدي عن مملكة للعدل . على ان العدالة لم تكن توجد في الامبراطورية العظيمة التي كلف تأسيسها تضحيات فظيعة ، والمليئة بالمصادمات والاضطرابات . فلم يكن فيها من الناحية البسيكولوجية والاخلاقية اي شيء من ملامح الامبراطورية البورجوازية ، اذ كانت تتعارض تعارضا تاما مع التشكلات البورجوازية في الغرب . وكان الاستبداد يترك في الحياة الخاصة المجال لبقاء روابط تتسم بشيء من الخساسة : حرية في الاخلاق وفي العادات منافية للقواعد والاعراف . وهنا نلتقي بذلك الشعور باللانهائي ، وبما لا يحد وهو صفة خاصة بالطبيعة الروسية . فكل ما هو منظّم وما هو مسيَّج ، غير معروف عنده ، غير معروف لدى الطبع الروسي . فلم تعش الروسيا كما سنرى، ازمة النهضة التاريخية الكبرى ولا ازمة الحركة الانسانية بمعناها الاوربي. الا انه كانت لها ايضا ، في ذروة تطورها ، حركتها الانسانية الخاصة وازمة في الفكر ، اشد الما ، بلا شك من تلك التي مزقت الغرب . هذه الحركة الانسانية الخاصة كانت مسيحية ، وقد قامت ، حتى لدى الذين كانوا قد كفوا عن ان يكونوا مسيحيين ، على نزعة انسانية وعلى شفقة عميقة . ولن تكف الروسيا التي تلهمها هذه الحركة الانسانية ، «الروسيا المقدسة» . طيلة الحقبة البطرسية كلها ، الحقبة الحديثة ، عن المضي في النزاع مع السلطة الا ان هذا النزاع الذي يعمر جيلا كاملا ، سوف يرتدي في آخر القرن التاسع عشر ، ثوبا جديدا : فان الروسيا التي لم تنفك تبحث عن الحقيقة الاجتماعية هي التي تصطدم بالامبراطورية وهي تجمع قواها كلها.

الفصل الأول

تكون الانتليجنسيا الروسية وطابعها
الحركة القومية (الصقلبيه) وحركة الاتجاه الى الغرب

- ١ -

يتعين علينا لفهم منابع الشيوعية الروسية وادراك الطبيعة الحقيقية للثورة ان نعرف ماذا تمثل تلك الظاهرة الاصلية التي نطلق عليها في الروسيا اسم الانتليجنسيا . فقد يخطىء الغرب اذا جعل من هذه الإنتليجنسيا ما يطابق لتجمع من المثقفين . فالـ«مثقفون» هم الذين يقع عليهم الجهد والابداع الثقافيين من علماء وكتّاب واساتذة الخ . بينما تمثل الانتليجنسيا الروسية تكوينا مختلفا تمام الاختلاف ، يستطيع الانتماء اليه رجال قد لا تكون اهتماماتهم من النوع الثقافي ، ومن لا يكونون ، هم انفسهم ، مثقفين ، في حين يستطيع علماء وادباء الا يكونوا اعضاء في صفوفها . وربما يكون من الاجدر مقارنتها بنظام رهباني ، بطائفة ذات اخلاق خاصة شديدة التمسك بها، لها مفهومها عن العالم لا يستطيع احدها التخلي عنه ولها طباعها وعاداتها الخاصة ، بل لها مظهرها الطبيعي الخاص بها ، كالزي مثلا ، يمكن التعرف به دائما على اتباعها ، وتميزه عن غيره . كانت الانتليجنسيا اذن جماعة من الناس ضمتها ايديولوجية واحدة ، لا

تربط بينها رابطة مهنية او اقتصادية ، جاء اعضاؤها من مختلف الطبقات الاجتماعية . الا انها في البداية تشكلت من انضمام الفئات المثقفة من النبلاء ، وبعد ذلك انضم اليها ابناء الكهنة والشماسين والموظفين الصغار والتجار ، وابناء الفلاحين بعد تحررهم . هذه هي الانتليجنسيا : تجمع ينتمي اعضاؤه الى كافة الطبقات الاجتماعية، توحد الافكار ولاسيما الافكار الاجتماعية بين صفوفه . وقد ظهر اسم الانتليجنسيا لاول مرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : وتشكل نموذجها من ملامح روسية بحتة: ومن الخطأ الاعتقاد بأن الحركة كانت حركة لاقومية وقطع الصلة بتراث البلاد . فعلى الرغم من ان دوستويفسكي نفسه لم يستسغ الافكار الثورية فقد فهم ، فهما يدعو الى الاعجاب تلك الصفة ، الروسية في اساسها . لانخلاع الانسان من جذوره ، لقطيعته مع التقاليد. وعرف ثائر الانتليجنسيا بانه «اعظم متشرد في الارض الروسية» .

ان رجال الانتليجنسيا تستهويهم الفكرة دائما ، والفكرة الاجتماعية عامة ، ويكرسون انفسهم لاجلها دون سواها. ونظرا لاحاطتهم بنظام مراقبة سياسية محكم ، فقد وجدوا انفسهم منقطعين ، بل ومنفصلين، عن الواقع المحيط بهم وهذا الظرف سيفضي بهم الى تنمية ايديولوجيتهم الصرفة بصورة قوية . وهكذا ترعرعت وظهرت الى الوجود على شكل نظرية اشد الافكار الاشتراكية والفوضوية تطرفا ، في ظل روسيا التي يسودها الحكم المطلق ونظام العبودية . وكان من جراء استحالة القيام بأي عمل سياسي ان القي بالسياسة في عالم الفكر والادب . فانيطت بنقاد الادب ، دفعة واحدة ، المعايير السياسية والاجتماعية .

وهذا الظرف الذي احاط بالانتليجنسيا هو سبب ما اتصفت به من نزعة الى الانشقاق ذلك انها اعتبرت هذا الحاضر ، هذا الواقع الذي عاشت منفصلة عنه ، يجسد الشر . وكان النظام الاخلاقي الذي اخذ ينمو في داخلها هو اخلاقية التعصب التي يتصف بها **المنشق** Raskol واصبح التطرف في التشدد يشكل بالنسبة لها نوعا من الدفاع عن النفس والسبيل الوحيد الذي تستطيع به حماية نفسها من عالم عدو ، وانقاذ سماتها الخاصة . واذ كانت متشبعة بالدوافع الاجتماعية والاتجاهات الثورية ، فقد غدت سمة الفرد الطبيعية ، الجدير بأن يكون ثوريا في نظرها، هي ان يصبح عقائديا dogmatique متعصبا، وهي عقائدية تتجاوب تماما مع طبيعة الروس العميقة . وقد برهن الروس على استعداد خاص في تبني الافكار الغربية ثم تكييفها وفقا لنمط حياتهم الخاص . غير ان

هذا النمط الخاص يكاد يقوم دائما على ادخال العقائدية اليه . فما كان نظرية علمية ، في بلاد الغرب ، معرضة للنقد ، او فرضية ، او على اية حال ، مجرد حقيقة نسبية ، جزئية لا تزعم لنفسها النظرة الشمولية — قد تحول في نظر الانتليجنسيا الروسية الى تأكيد يناخم حدود الالهام الديني. ذلك ان الروس يقبلون على الامر بكليتهم . فالتحفظ او روح النقد المتشكك يكاد يكون موقفا غريبا عنهم . وليس من شك في انهم يواجهون في ذلك فجوة او نقيصة من شأنها ان تجعلهم يسقطون في الغموض او الضلال ، ولكنها ايضا نوع من الفضيلة تبرهن على حمية دينية شاملة في النفس. فالانتليجنسيا تطبق على العلم هذه الطرق المتسمة بطابع الشغف الوثني . وهكذا عندما اخذت بنظرية دارون لم تبق الداروينية بالنسبة لها نظرية في علم الحياة ، قابلة للمناقشة . بل غدت عقيدة وكل من لم يقبل بهذه العقيدة ، بعد ذلك ، كاتباع الامارك مثلا ، كانوا معرضين لاحتقارها . مما أمكن فلاديمير سولوفييف ، اهم فيلسوف في القرن التاسع عشر ، من القول بأن اعضاء «الانتليجنسيا» الروسية كانوا يمارسون ايمانا قائما على هذا القياس المنطقي العجيب : «ان الانسان ينحدر من القرد اذن يجب علينا ان يحب بعضنا بعضا» . وقد تشبعت الانتليجنسيا بمذهب السان سيمونيين وفورييه وهيجل والمادية والماركسية — وبوجه خاص الماركسية — على التوالي ، وتجاوزتها بصورة مذهبية وكاملة . ولم يفهم الروس ، فهما صحيحا على وجه العموم ، معنى النسبي ، والمراحل في العملية التاريخية والتمييز بين الدوائر الثقافية . والنفس الروسية ، الكلفة بالنظرة الشاملة لا تستطيع الاكتفاء بالمقولات المشتتة ، فهي نزاعة الى المطلق وتريد ان تخضع له كل شيء ، وتضفي عليه مسحة دينية في الاساس . ولا شك في انها ، تبعا لهذا الميل الطبيعي ، تنساق للوقوع في الاخطاء : فهي تخلط النسبي بالابدي والخاص بالعام، وتغرق في الامور السيئة والوثنية. ذلك ان الروسي هو قادر ، قبل كل شيء ، كما رأينا ، على استعمال فاعليته الدينية في اشياء ليست دينية ، وعلى التصدي بروح الدين ، الى مجالات كمجال العلم والحياة الاجتماعية حيث يهيمن المعيار النسبي والخاص : ويقدم هذا الاستعداد المثير للدهشة مفتاحا لالغاز عديدة .

لقد ظهر نمط الانتليجنسيا الروسية في القرن الثامن عشر . وكان اول من جسّدها هو راديتشيف مؤلف : رحلة من بطرسبورج الى موسكو، وهو صاحب العبارة المشهورة : «ان روحي مثقلة ، تنوء بأعباء الآلام الانسانية»، التي يمكن ان تكون شعارا لكل من يأتي بعده. وكان راديتشيف

قد ربي على يد فلسفة القرن الثامن عشر الفرنسيـــة : فولتير وديدرو وروسو . ولكنه لم يكن مجبولا على عداء للدين مثل كثيريـــن من «اتباع فولتير» في ذلك العصر . اذ كانت الافكار الفرنسية ، وهي تنعكس علـى النفس الروسية تتحول الى مجرد تعاطف وحب للانسانية . وهكذا لم يكن راديتشيف يقوى على تحمل منظر العبودية وامتهان الشعب وآلامه . وفي الوقت الذي ظهر فيه كتابه كانت كاترين الثانية متاثرة بالاوساط الرجعية: فاعتقل ، وحكم عليه بالاعدام ، ثم خفض الى النفي الى سيبيريا . كما القي القبض في الحقبة نفسها على نوفيكوف وهو من ابرز المنافحين في سبيل اليقظة الفكرية الروسية في القرن الثامن عشر ؛ وماسوني متصوف الا انه مسيحي وذو راي سياسي غاية في الاعتدال ، وسجن في قلعـــة بطرس وبولس . وهكذا كانت الانتليجنسيا المثقفة تصطدم منذ البداية ، بالسلطة المطلقة . ورافق التنكيل اولى خطوات هذه الانتليجنسيا وهي ما تزال تدرج الهوينا على طريق التحرر الفكري (وليس المقصود هنا الثورة) فادت بها الى الاشغال الشاقة والى السجن . وكانت لراديتشيف آنئذ نظرات جريئة ، كما كان احد رواد الانتليجنسيا الثورية والاشتراكية ، في عصر لم يكن الفكر الروسي قد عثر بعد على اصالته، وتمام وعيه بذاتهالذي يجلبه اليه القرن التاسع عشر . وهو القرن الذي يتسم بميلاد الفكر الحر، كما كان ايضا عصر الثورة الباطنية . ذلك ان الوعي لدى الروس هو اشارة البدء بالتمرد على كل ما يحيط بهم ، اي التمرد على روسيا الامبراطورية كلها. وكانت الثقافة تعمل على تفتيت الايمان القديم بالمملكةالاورثوذكسية. اذ انتقل البحث عن هذه المملكة الى مجال آخر وسارت الروسيا في اتجاه آخر للعمل على تأدية رسالتها .

كانت عزلة أوائل المثقفين الروس ، المولعين بالحرية ، عزلة فريدة (1) في النصف الاول من القرن التاسع عشر . كان هناك اشخاص مثقفون الا ان البيئة الثقافية لم تكن موجودة وطفق هؤلاء المنعزلون يجارون بالشكوى من انهم محاطون بدياجير الجهل . لا يفهمهم احد ولا يتعاطف معهم انسان. وكان جمهور النبلاء والموظفين ما يزال سادرا في اعمق الجهل ، ينقصه المثل الاعلى تماما وأي شيء من الاهتمامات الراقية . لقد كان هذا الجمهور فعلا ، هو جمهور «الرعاع» الذي يتحدث عنه بوشكين . ووجه تشآئسكي

---

1 ـ انظر كتاب م. هيرشنسون : روسيا الفتية .

Tchaaski في المسرحية الشهيرة «شقاء ذي العقل الكبير»(١) يجسد عزلة هذه النخبة في تلك الايام السوداء . ان روسيا عاشت ببطء نهضة ادبية ، في ظل حكم الاسكندر . في العشرين سنة الاولى من القرن التاسع عشر . فكان ذلك عصر الشعر الذهبي ، وعصر التيارات الصوفية ، والعصر الذي يتمخض عن انتفاضة الديسمبريين. فالاسكندر الاول كان هو نفسه امبراطور الانتليجنسيا ، الذي قضى حياته كلها بحثا عن الحقيقة ، وعلى الرغم من ان غروب شمسه قد اتسم بنوع من ازدواج الشخصية لا بد وانه استنزف قواه ، الا اننا لا يمكن ان ننسى انه كان في شبابه عدوا للعبودية وللاستبداد .

لم تشرق شمس النهضة التي نتحدث عنها الا على عدد ضئيل من النبلاء . وتجمع اصدقاء الثقافة والحقيقة في جمعيات خيرية ضيقة النطاق . ولعبت الماسونية ، التي كانت يومئذ على جانب كبير من الانتشار دورا تربويا عظيما في هذه الحركة كلها بفضل نظائمها التصوفي . فكانت اول قالب اعطي لمجتمع ينزع الى تنظيم نفسه ذاتيا . وكان التوتر العارم الذي ميز الحياة الروحية في تلك الازمنة ، يجعلها خليقة بأن تنصب في هذا القالب الجديد بصورة خاصة . كذلك شهد مطلع القرن التاسع عشر ما يشبه التهيئة والاعداد للنفس الروسية . فاصبحت رغابا تتقبل جميع اصناف الافكار ، وجميع الحركات الفكرية او الاشتراكية . فهذا هو عصر التأثر بالنظرة العالمية ، وعصر الاتحاد بين المذاهب المسيحية . وما لبثت المذاهب الانسانية الروسية ان تكونت فكانت الصفة التي ميزت القرن التاسع عشر . وبفعل الحروب النابليونية وجدت الروسيا نفسها في احتكاك مباشر مع الغرب . وعاد الضباط الروس الذين شاهدوا الغرب الى ديارهم مزودين بنظرة اوسع الى الامور وكان الاسكندر الاول نفسه من اتباع «المذهب الانساني» الروسي وقد تحدث مع اوين عن الميول الاشتراكية الجديدة وشارك في حفلات الكويكرز : غير ان هذه التجديدات ـ ونقولها مرة اخرى ـ لم تمنع حكمه في نهايته من ان يتسم بأشد انواع الرجعية . كانت النفس الروسية تتهيأ للقرن التاسع عشر ، غير ان الحياة الروسية لم تكن قد عثرت بعد على وحدتها . فلا تزال الهوة ما بين اعلى طبقة من النبلاء وبين الاوساط المتوسطة باقية على حالها . وفي تلك المستويات

---

١ ـ قطعة شهيرة لغريبويدوف Griboiedov .

العليا من المجتمع ثمة حركة روحية وادبية تنضج ، انطلقت منها انتفاضة الديسمبريين ضد العبودية وضد الحكم الاوتوقراطي . وهي حركة مؤلفة من نواة صغيرة ، قليلة العدد ، تحيط بها عزلة شديدة ، لم تكن قادرة ، كما يظهر جليا ، بتأثيرها ، على تغيير الحياة الروسية كلية . وهكذا مُنِيَت محاولة الديسمبريين بالفشل وهي المحاولة التي كان تجرد افضل جانب من طبقة النبلاء يؤكد نفسه بها ، فأخمدت بأشد ما يمكن من القوة واعدم المدبرون او ابعدوا الى سيبيريا بأمر من نيقولا الاول . وكان اغلبهم مع ذلك من ذوي الراي المعتدل او من الملكيين . وكان باستيـــل Pastel مؤلف كتاب **الحقيقة الروسية** الذي يمثل الجناح اليساري في الحركة هو الوحيد الذي يمكن تسميته «بأول اشتراكي روسي قبل الاشتراكيين» على حد تعبير هرزن . وكانت اشتراكيته اشتراكية زراعية . وكان جمهوريا ، يناصر قيام حكومة شعبية مركزية ، ولم يكن تحرريا (ليبراليا) بل كـــان مزاجه يجنح به الى ان يكون اقرب الى الحكم الاستبدادي . يلمح فيـــه الانسان بذور الميل الى السلطة والى الضغط الذي يظهر عند الشيوعيين بعد مائة عام . ولكن الجمهور الاكبر من النبلاء الروس كان لا يزال فـــي الزمن الذي انطلقت فيه هذه الحركة ، التي لم تتعد حدودا ضيقة ، قابعا في حالة مخجلة من الجهل . كان النبيل الروسي المتوسط يخدم فـــي الحرس الامبراطوري عادة ، حتى اذا ما احيل الى المعاش ، عاد الـــى اراضيه حيث يقضي حياة من البطالة . كان هذا النموذج من «الناس غير النافعين» الذي يجسده امثال رودين Roudine او اوبلوموف Oblomoff والذي يميز هذا العصر يبدو نقيصة من اهم نقائص حضارة المرحلـــة البطرسية . والذين يعون عدم فائدتهم ، من بين هؤلاء «الزائدين» عـــن المجتمع ، على غرار بعض ابطال تورغنيف ويتألمون لوضعهم هذا ، اصبحوا يمثلون نخبة هذه الطبقة . ويعتبر بوشكين وهو مثل فريد حقا لرجـــل النهضة في روسيا ، الوحيد الذي تتجلى فيه امكانيات اخرى للحياة . ويبدو ان مفهوم الانتليجنسيا والمفهوم الامبراطوري يتلاءمان فيه وحده ويتحدان. فهو ينظم شعرا ثوريا وهو الشاعر الذي يمجد عظمةالامبراطورية وسلطتها الكلية . وعلى اثر قمع حركة الديسمبريين وتتويج نيقولا الاول بدا انه لم يعد ثمة من مخرج غير الانشقاق وغير الثورة . لذلك اخـــذت الانتليجنسيا تكيف نفسها نهائيا وفق نموذج **الرجل المنشق** Raskol وهكذا نجدها اذا عنت نفسها في الكلام تقول «نحن» وان تكلمت عـــن الحكومة او عن السلطة ستقول «هم» . ذلك ان الطبقة المثقفة الروسيـــة

كانت توشك كل لحظة ان تسحق بين كتلتين اساسيتين : الملكية القائمة على الحكم الاستبدادي ، من فوقها ، وجماهير الفلاحين الدهماء ، من تحتها .

ان الفكر الروسي ، الثائر ، المخلوع من جذوره ، سوف ينعم في القرن التاسع عشر بنوع من الحرية الداخلية ، لا يربكها اي شيء من ثقل الماضي او التقاليد . ولا تفعل الاضطهادات واعمال القمع التي توجه اليهم من الخارج ، الا ان تعزز تلك الحرية وتعمقها . ولقد سبق لنا القول بأن فعالية العقول ، بالنظر لاستحالة القيام بأي عمل تجريبي بسبب الظروف السياسية ، لم تكن لتستطيع الظهور الا في الادب وفي الادب المثالي ، اي في مجال تطرح فيه جميع المشاكل نفسها وتحل على اتم واكمل وجه . وحيث تنضج احلام اجتماعية ، احلام يقظة ، ليس لها اي ارتباط بالواقع. ويصبح الروس سان ـ سيمونيين وفوريين وبرودونيين ، بينما تكون الملكية المطلقة والعبودية ما تزالان تتمتعان بكامل سيطرتهما على البلاد . ويصبحون اشد تلامذة هيجل وشيلينغ تطرفا ، في الوقت الذي لم تكن لديهم فيه اية ثقافة فلسفية ويكون فيه الفكر الفلسفي نفسه متهما . ونجد المثقفين الروس مولعين بالاحاديث المسهبة التي تتواصل ، خلال ليال بأكملها حول «المشاكل العامة الملعونة» في حلقات صغيرة مغلقة ـ هي صالونات الاربعينات . كان تشاداييف Tchaadaev اول الذين اظهروا فكرا اصيلا في القرن التاسع عشر وهو رجل يتمتع بموهبة فذة غير انه كسول شأن جميع «اعيان الروسيا» القيصرية ، لم يخلف اي اثر كتابي . وعرضت آراؤه الفذة ، القوية في رسالة فلسفية ، فكانت تمثل فلسفة كاملة للتاريخ . كان الموضوع من الموضوعات التاريخية ـ الفلسفية الاساسية بالنسبة للفكر الروسي الحديث . ذلك ان جميع العقول القادرة على التأمل قد امعنت النظر طويلا وبالحاح حول هذه المسألة وحاولت حلها : هل تنتمي روسيا للشرق ام للغرب ؟ وتشاداييف الذي سيكون اول «فلاسفة التاريخ» من الروس كان ضابطا متقاعدا من فرسان الحرس الملكي ، (كما كان شومباكوف اول واشهر عالم لاهوت روسي) كانت فلسفته اعتراضا على التاريخ الروسي وعلى ماضي روسيا . ذلك ان عمل بطرس كان قد ايقظ عبقرية الابداع في شعبه ولهذا قال هيرزن Herzen بأن الشعب الروسي قد اجاب على اصلاحات قيصره بميلاد بوشكين . كذلك يمكن ان نضيف بأنه اجاب ايضا بميلاد حركتين : النزعة القومية السلافية ، ونزعة الاخذ عن الغرب : ذلك ان الفكر الروسي كله ، المنشغل

بالافكار العامة ، انشغالا تاما قد تجسد في هذه النزعة او تلك ، راغبا في البت في هذه المسألة المطروحة على اي وجه من وجوهها وما زالت تنتظر الحل : هل يجب ان تستمر روسيا في التقدم على الطريق الذي شقه لها بطرس ام ينبغي ، على العكس ان تعود الى العصر القديم ، عصر الدولة الموسكوفية ؟

كان تشاداييف غربي الهوى ، مقتنعا «باستغرابه» ، تنطلق قناعاته كصرخة الوطنية الذبيحة . انه ينكر تاريخ بلاده ، حتى ليمكن ان نعتبر بكل دقة هذا الانكار نمطا من النفي الروسي . وتقوم نظراته الغربية ـ على اسس دينية . فهو يتعاطف مع الكاثوليكية ويرى فيها قوة تاريخية فعالة منظمة ، موحدة ، قادرة وحدها على ضمانة السلام لهذه الروسيا التي غدا تاريخها في نظره خال من المعنى ومن الارتباط ، حائرا ، فلا هو ينتمي الى الغرب ولا ينتمي الى الشرق . ينقصه الاسلوب الحضاري ، وهو نقص تعكسه ابنية عصر بطرس ، الذي يمثل ، هذه الناحية ، خير تمثيل .

ويرى تشاداييف ان يكون قدر روسيا وتحذيرا للشعوب الاخرى . وقد رأت السلطة الامبراطورية فيه رجلا ثوريا ، ومع ذلك فانه بأفكاره كان قريبا من دومتير وبونالد وشيلينغ الذي كان يراسله وترك فيه اثرا اساسيا . ولم يقنع تشاداييف ، ذلك المثقف الذواقة ، بأن يكون محكوما عليه بأن يحيا هكذا في مجتمع غير مثقف ، في ظل حكومة استبدادية ، تشد اللجام لشعب خامل وجاهل . وفيما يتعلق بهذا الشعب ، عبر عن فكر لا يجد المرء مفرا من اعتباره اساسيا في نظر المفكرين الذين سيأتون بعده عندما تحدث عن «القوى الكامنة» في الشعب وعما «لم يكشف بعد عنه» . وكلمات كهذه تكون ادانة للشعب ، بقدر ما تنطبق على الماضي وبقدر ما تتحقق من ان الشعب الروسي لم ينجز شيئا عظيما في التاريخ ، وانه لم يؤد اية رسالة هامة ولكننا اذا التفتنا الى المستقبل فان نفس الكلمات تصبح مليئة بالآمال . وعلى هذه القوة الكامنة ـ التي تتفجر فيما بعد ـ شيد القرن التاسع عشر يقينه التالي : على الشعب الروسي ان يحقق ذات يوم رسالة بعيدة المدى . وهو الشعب الوحيد الذي يكون قادرا على حل المشاكل التي اضطر الغرب الى تركها بدون نتيجة ـ نظرا لاعباء ماضيه الثقيلة نفسها ـ وعلى راسها المشاكل الاجتماعية . هذه هي فكرة تشاداييف الا ان الحكومة الامبراطورية استقبلت اول بادرة من بوادر يقظة الفكر المستقل ، بأن اعلنت تشاداييف معتوها ووضعته تحت الرقابة الطبية . وهكذا ارغم على الصمت . وكتب فيما بعد : **دفاع عن مجنون** . وهو كتاب

عبر فيه عن افكاره حول الرسالة الروسية: نجد فيه ، من جهة حكمه على الماضي ومن جهة اخرى الامل في مستقبل تتجه اليه بلاده بكل قواهـــا البكر . وهكذا تضمنت افكار هذا الرائد كثيرا من موضوعات الفكر فـــي القرن التاسع عشر ، واولها ما اشرنا اليه بصورة عابرة من تعاطف مـــع الكاثوليكية ، وهو تعاطف يعبر ، خاصة عن خلاف تام في الافكار وفـــي الطباع مع المجتمع الاورثوذكسي الروسي . انه العصر الذي تتشبع فيه الانتليجنسيا بتلك الروح المسيحية الجديدة التي تحاول ، على مذهب لامنيه Lamenais التوافق مع الاشتراكية . وهذا ما يذكرنا بشخصية بتشرين Petchérine الطريفة الذي هاجر من بلاده ، حيث ترهب ، وكتب في احدى قصائده : «ما الذ ان يكره الانسان وطنه وان ينتظر بلهفة حـــارة زواله من الوجود !» وهي جملة روسية صميمة حقا ، جملة تنطلق من يائس ولكنها تخفي في اعماقها الحب . وقد اصبح بتشرين راهبا واستقر في الغرب وجمع بين الايمان بالكاثوليكية وبين الاشتراكيـــة الطوباوية ، ولكنه حافظ على حنينه الى بلاده . وآمن ايمانا لا يتزعزع بأن اقدار التاريخ الجديدة ستحقق في بلاده ، في الروسيا المتجددة .

- ٢ -

كان اقوى اثر مارسه الغرب على الفكر الروسي في القرن التاسع عشر هو اثر الرومنطيقية والمثالية الالمانية في مطلع هذا القرن وبخاصة اثـــر شيلينغ وهيجل اللذين كادا ان يصبحا مفكرين روسيين . ولم تكـــن محاكاتهما تعني اقتباسا حرفيا ركيكا كما كان شأن اتباع فولتير في القرن الثامن عشر . ولكن الفكر الجرماني استقبل بصورة فعالة واعيدت صياغته في قوالب فكر محلي . وهي حقيقة تنطبق خاصة على ما يتعلـــق بذوي النزعة القومية (السلافوفيل) فقد الهم تأثير شيلينغ وهيجل معا لاهوتا في الحقيقة كما الهم تأثير افلاطون والافلاطونيين الجدد علم اللاهوت لآباء الكنيسة ، فيما مضى . فكان كوميا كوف هو مؤسس اللاهوت الاورثوذكسي الاصيل حيث تتجلى موضوعات المثالية الالمانية مصاغة من جديد . ذلك ان الفكر الروسي يميل نحو الوحدة التي فتش عنها الرومنطيقيون الالمـــان ولكنه ميل اكثر اتصالا واشد قوة ، والفكر الروسي يتعارض مع ما فـــي الغرب من تجزئة وتشتت . وكان كيريفسكي Kiriavski اول كاتب ميز

هذه السمة التي جُبِلَت عليها الروح القومية ، وابرزها ، وهي سمة نكتشفها لدى الشيوعيين الملحدين بقدر ما نكتشفها لدى ذوي النزعة القومية (السلافوفيل) . فالاورثوذكسية الروسية هي نزعة الشمول . ومع ان المثل الاعلى الديني الذي يعتنقه اصحاب النزعة القومية (السلافوفيل) غريب على المستغربين (اتباع الحضارة الغربية) الا انهم يشتركون معهم في النزعة الشمولية فهم هيجليون والهيجلية تمثل في نظرهم طريقة **كلية** في التفكير وفي الحياة تحتوي على جميع الحلول . وعلى هذا النحو كان بيلنسكي Bielinski هيجليا كما كان كذلك باكونين . ونجد الشاب الروسي من الجيل المنتمي الى المثاليين في الثلاثينات او الاربعينات يجاهر بعقيدة **شمولية النظرة** ، متأثرة بشيلينغ او بهيجل : تتشبع بها حياته كلها، لا حياته الفكرية وحياته العامةفحسب وانما حياته الخاصة وعواطفه. وتحوّل بيلنسكي بتأثير فلسفة هيجل ، الى محافظ ، دفعة واحدة ، وهو الثوري بالسليقة واليه يرجعالفضل في وضع اسس ايديولوجيةالاشتراكية الثورية ، وحسب نفسه ملزما بقبول سبب كل ما قد كان ، مفسرا على هذا النحو بديهية هيجل التي ترى **كل شيء يكون موجودا يكون عقلانيا** .

ان اصالة الفكر الديني والفلسفي الخلاقة تتفتح في كنف ذوي النزعة القومية (السلافوفيل) فهم يؤكدون لروسيا رسالة تختلف عن رسالة الشعوب الغربية . ويبذلون جهودا عظيمة في الدفاع عن الصفة الخاصة التي تميز المسيحية الشرقية والاورثوذكسية الظاهرة في اساس التاريخ الروسي . ورغما عن انهم بحثوا عن جذور التاريخ العضوية وسبله التي سار تطوره فيها ، الا انهم هم انفسهم كانوا انشقاقيين تفصلهم هوة سحيقة عن الواقع المحيط بهم . فقد انكروا روسيا الامبراطورية والبطرسية ولم يحسوا بالراحة في وسط ذلك **الواقع** الذي يجسده نيقولا الاول : اما السلطة فكانت بدورها ، تنظر اليهم بريبة وتعتبرهم اعداءها ، تعتبرهم مشبوهين واعداء على الرغم من اورثوذكسيتهم ومن مبادئهم الملكية . فلم يكن في الواقع ثمة شيء مشترك ، رغم المظاهر ، بين مفاهيمهم وبين المفاهيم التي يروّج لها ، في عصرهم ، في بلاط نيقولا الاول ولا شك في ان هذه وتلك كانت ترتكز على ثلاثة مبادىء اساسية : الاورثوذكسية والاتوقراطية والشعبية . ولكن الفكر في هذا الجانب يناقض الفكر في الجانب الآخر . اذ كان من الواضح الجلي ان المذهب الرسمي يخضع للحكم الاستبدادي المبدأين الآخزين : الاورثوذكسية والشعبية ، وكان يساء الظن كثيرا ، بما يظهر من اهتمام بالشعب في حاشية القيصر فيعكس هذا الظن

السيء أسوأ الجوانب التي يمكن ان تظهر في الحكومات المستبدة القائمة على النمط الغربي ومع ذلك كان نيقولا الاول صورة للضابط البروسي ، خال من الروحانية حتى في تعلقه بالاورثوذكسية التي تبقى ، في نفسه سطحية ، وسيلة لخدمة الحكم . الا ان المبادىء المماثلة يكون لها ، على العكس ، في نظر اصحاب النزعة القومية (السلافوفيل) معنى مختلف تمام الاختلاف . اذ ان العنصر الديني بالنسبة لهم ، هو الاساسي ؛ يريدون ابراز الاورثوذكسية كما كانت في حالتها النقية قبل ان تزيفهـــا المؤثرات التاريخية ؛ ويبذلون جهدهم في الوصول الى اصدق ما في الشعب مـــن حقائق بل في النفاذ ، الى روحه خالصة من الوان التشويه التي اصابتها في رايهم السلطة المستبدة والعقلانية في الدولة . فأصحاب النزعـــة القومية (السلافوفيل) هم اعداء للحكومة ايا كانت ، جميع الحكومات سيئة في رايهم ، والسلطة ، ايا كان نوعها ، خطيئة . ولكن دافعوا عن الملكية ، على الرغم من هذه الخميرة الفوضوية(١) فبحجة ان اضطلاع شخص واحد بأعباء هذا الحكم المخجل ، المجرم ، افضل من اشتراك الشعب فيه بأكمله. والامبراطور لا يملك اي حق في السيادة ، كما لا يملك هذا الحق احد غيره. ولكنه مجبر على تحمل هذا العبء الذي القي عليه . ذلك ان هذا الشعب ــ في راي اصحاب النزعة القومية ــ ليس مؤهلا للحكم الزمني، لشدة انجذابه بدعوة العناية الالهية لحمل رسالته الدينية والروحية . وتبعا لهذه النظرية التي تجعل تأسيس الشعب الروسي لامبراطورية عظيمة غير قابلة للتفسير فان سلسلة التراث الروسي الحقيقي كان يمكن ان تكون قد فصمت لا من قبل بطرس فحسب بل ومن قبل امراء موسكو العظام ، قبله. وكان اصحاب النزعة القومية يعبرون بذلك ، عن معنى من المعاني الاساسية في الفكر الروسي ، وعن سمة من السمات المميزة للانتليجنسيا ولآداب القرن التاسع عشر بأكمله : ان نظرية الرجوع الى الشعب التـــي آمنوا بها ، والتي سرعان ما تتخذ شكلا رجعيا ، تقوم على الايمان بالفلاح الروسي اساسا (اي الموجيك Moujik) فهو الحارس للدين ولاشكال الحياة القومية . وكانوا يدافعون بحرارة عن الكومون Obstchina التي اعتبروها كما رأى فيها كافة الشعبيين Populistes الاطار الاصيل الذي يجب ان تنمو فيه الحياة الاقتصادية الروسية . ولكنهم معارضون

---

١ ــ ان العنصر الفوضوي قوي جدا ، بصورة خاصة عند ك. اكساكوف Aksakov

تمام المعارضة لمفهوم الحق الروماني للملكية . فليس للملكية في نظرهم ، شيء مقدس ولا مطلق ، انها على العكس تمثل الظلم . وينكرون الحضارة البورجوازية الغربية : اذا كان الغرب متعفنا فلانه ــ في رأيهم سار على دروب هذه الحضارة ، ذلك ان حضارة كهذه تكون مبعثا لانحلال وحدة الحياة . وبهذا يكون اصحاب النزعة القومية قد سبقوا ما شاع في الغرب نتيجة لكتابات شبنجلر ، في التمييز بين الحضارة والمدنية . ورغما عما في مفهومهم عن العالم ، من عنصر المحافظة ، فانهم دافعوا بحماس عن الحرية الفردية وعن حرية الاعتقاد وحرية الفكر والقول فقد كانوا ديموقراطيين على طريقتهم ، معترفين بمبدأ السيادة الشعبية . وهكذا فان خومياكوف كشف ، في اشعاره ، عن آثام الروسيا ، ليس الروسيا في عصر بطرس الاكبر فحسب ، بل والروسيا السابقة لعصره ، بمقدار ما كان يستطيع «المستغربون» ان يفعلوه ، من ذرابة اللسان وسلاطته وهذا ما يجعلهم جميعا ، في حقيقة الامر ، قوميين ومستغربين ، على السواء ، اخوة اعداء مما كان يدعو هرزن الى القول : «نحن شبيهون بالاله جانوس ذي الوجهين ، لا نكن للروسيا الا حبا واحدا ولكن لهذا الحب وجهين» . ان الروسيا ، بالنسبة للبعض ، كانت اولا وقبل كل شيء اما وهي بالنسبة للآخرين ولد . وكان الفريقان ، يخالطون في الثلاثينات والاربعينات ، الحلقات ذاتها ويناقشون في الصالونات نفسها ، التي شهدت ما دار بين هرزن وخومياكوف من مناظرات . ولم تقع القطيعة بين الفريقين ، نهائيا، الا فيما بعد . وكان بيلنسكي الاول في رفض مقابلة صديقه اكساكوف .

وعلى كل حال كان أولئك الرجال المثقفون جميعا من القرن التاسع عشر، وهم نخبة رجال عصرهم ، يرفضون ، على اختلاف افكارهم الحياة في الحاضر ، فقد كان امرا لا يمكن احتماله بالنسبة لهم ، لذلك كانوا يفرون منه الى المستقبل او الى الماضي . فاذا كانوا من ذوي النزعة القومية فانهم ينبعثون الروسيا القديمة التي يحلمون بها ، وان كانوا من المستغربين يتراءى الغرب لهم ، وقد تحول الى مثالي . وبقدر ما كان التحسر على الماضي طوباويا لدى البعض ، كان كذلك الميل الى اوربا لدى الآخرين الذين لا يعرفونها حق المعرفة . ذلك ان النمط المنتشر عن الغربي ، صديق الاستنارة والحضارة ، اكثر من سائر الانماط ، ليس اكثرها فائدة . فان اهمها هو النمط الذي يضفي على الدروس المستفادة من الغرب ومن الفكر الفرنسي خاصة ، ما يجعلها تتحول اي ما «يلبسها ثوبا روسيا» . وان تشبع الروس بالهيجلية والشيلنغية (نسبة الى شيلينغ) على اكمل

وجه واشده تطرفا فقد كان هذا هو شأنهم مع مذهبي سان سيمـــون وفوريه . وقد تأثر الجناح اليساري من المستغربين بالاشتراكية الفرنسية، وبالآداب الفرنسية ، وكان تأثير جورج صاند فريدا ولعبت رواياتها دورا حاسما في تكوين الحياة العاطفية الروسية وفي وضع الطبقة المثقفـــة الروسية بازاء المسائل العاطفية وفي نفرتها من الاكراه والعرف والعواطف المتكلفة . وفي نفس الوقت كان ثمة منهاج يتم اعداده وفق مشاريع فورييه وسان سيمون وكان الفرنسيون انفسهم يجهلون بكل تاكيد وجود مثل هذا الكلف الشديد بافكارهم .

وشهدت نهاية الاربعينات ميلاد حلقة صغيرة ، كانت تجتمع عنـــد بتراشفسكي احد الملاكين، وتناقش في اجتماعاتها مشاكل اجتماعية وتبحث عن افضل تنظيم للانسانية : وكان معظم المنتمين لهذه الحلقة من اتباع فورييه او سان سيمون . غير ان تطرفهم في البحث عن افضل تنظيم للانسانية لم يكن يتعدى المخطط الاجتماعي ؛ اما في السياسة فان طابع احاديثهم كان غير مؤذ البتة (١) لم يكونوا يتطلعون الى اي عمل ثوري ويقصرون مجال فاعليتهم على دوائر الفكر . وكان اول ما يرغبون فيه بالطبع ، هو تحرير العبيد . فقد كانت اشتراكيتهم الطوباوية تتسم بطابع رقيق يشدها الى الريف . اذ يمكننا ان نلاحظ ثلاث مراحل في تطور الافكار الاشتراكية في روسيا : مرحلة الاشتراكية الطوباوية ومرحلة الاشتراكية الشعبية ، ومرحلة الاشتراكية العلمية او الماركسية . ويجسد بيتراشفسكي شخصية مالك الارض الروسي المتقد حماسا للافكار الاشتراكية . فقد كان يقول : «وما دمت لا اجد شيئا جديرا بتعلقي ، لا بين الرجال ولا بين النساء ، فانني اكرس نفسي لخدمة الانسانية» . وهي جملة تعبر احسن تعبير عن الاتجاه الذي سوف يميز الانتليجنسيا الثورية كلها وهو حب «الانســـان البعيد» لا حب «الانسان القريب» . واعتقد بيتراشفسكي في ســعـــادة مستقبلة للانسانية وتكشفت طوباويته الساذجة في المحاولة التي قام بها لاقامة مجتمع محلي (٢) في املاكه ، على طريقة فورييه لصالح فلاحيه :

---

١ ــ ساكولين sakauline . الادب الروسي والاشتراكية ــ ١٩٢٢ .

٢ ــ Phalanstére وهي اشتقاق من الكلمة اليونانية «فالانكس» التي تعني كتيبة ويريد فورييه لهذه الكتائب او المجتمعات المحلية ، كما يسميها البعض ، ان تعيش حياة مشتركة فيما بينها ومع غيرها من المجتمعات المتشابهة في بناء ضخم مشترك . ــ المترجم ــ

فأحرقه الفلاحون . فكانت هذه الواقعة شديدة الدلالة . كذلك ، لن يفهم الفلاحون في السبعينات مرامي الانتليجنسيا الاشتراكية التي توجهت الى الشعب ورغبت في التضحية بذاتها من اجل خدمته . وقد دافع بيتـــرا شفسكي اثناء محاكمته عن امكانية تواجد المجتمعات المحلية وفقا لطريقـة فورييه ، مع العبودية والاتوقراطية : وهذا ما يوضح لنا الطوباوية التـي اتسمت بها اشتراكية عصره .

كان سبتنيف Spiechnev ، وهو الذي يمثل في حلقة بتراشفسكي اشد الاتجاهات الثورية تطرفا وقد اتخذ منه دوستويفسكي نموذجا لتصور شخصية ستافروغين بطل «الشياطين» . كان سبتنيف ملحدا شيوعيا ، قريبا الى حد ما في ذلك الوقت من الماركسية . وشارك دوستويفسكـي نفسه في تلك الاحاديث ، غير انه بقي متشككا في امكانية تحقيق طوباوية فورييه الاشتراكية . وانتهت هذه الاجتماعات السلمية نهاية محزنة ، كما كان ينتهي ، في ذلك الحين ، كل شيء في روسيا ، نهاية محزنة . اذ اوقف جميع اعضاء الحلقة وحكم على واحد وعشرين منهم بالاعدام وفي اللحظة الاخيرة انزلت العقوبة الى الاشغال الشاقة . وكان دوستويفسكي منهم . فعاش لحظة انتظار المحكوم بالاعدام ساعة رميه بالرصاص .

لم يكن من شأن قضية بتراشفسكي الا ان تعزز الميول الثورية عند الانتليجنسيا الروسية . فان الاشتراكية عند رجال مثل نتشاييـــف Netchaev وتكاتشيف Tkatchev سوف لا تبقى مجرد حب رقيق للشعب . وينبغي لنا ان نلاحظ هنا بأن الماركسيين الاوائل الذين انتشروا في العالم ، كانوا من الروس . والماركسية الروسية من حيث انها حركة منظمة ـ لم تنطلق الا في الجزء الثاني من الثمانينات ، الا ان الماركسيين الروس كانوا منذ نهاية الاربعينات يعيشون ، منفردين ، في باريس . كما يجب ان نذكر شخصا كسازونوف ، صاحب املاك في استب (١) روسيا، بين أوائل الماركسيين الروس في باريس ، بل وربما كان بوجه اعم احد تلاميذ ماركس الاوائل (٢) . ومع ذلك فان ماركس الذي لم يكن يحب لا روسيا ولا الروس ، كتب من باريس ، مندهشا من انه يجد فيها اتباعا من

---

١ ـ Steppe اراضي الحشائش والسهوب الواسعة وتكاد تكون نصف قاحلة ، اطلقت على ارض سيبيريا في روسيا اصلا وهي تطلق الآن على الاراضي المشابهة .

٢ ـ انظر كتاب ساخولين الآنف الذكر .

اصحاب الاملاك في ستب روسيا . الا انه كان يلزم جانب الحذر قليلا ازاء الماركسيين الذين يعتنقون الماركسية بسرعة . ثم سرعان ما حدث تباعد في الافكار بينه وبين باكونين وايد حملة جدلية عنيفة ضده حول موضوع الدولية الاولى ، وان كان اثر باكونين قد ظهر للعيان ، على الاقل في البداية ، في المفهوم الماركسي لرسالة البروليتاريا (١) .

وفي الحقيقة انه لا يمكننا ان نبرز ابرازا كافيا تلك القدرة التي يملكها الروس في الاستسلام تماما للافكار الاجتماعية التي يجدون انفسهم مدفوعين اليها بصورة لا تقاوم طيلة القرن التاسع عشر . فقد كان كل شيء يمهد لقبولهم بالشيوعية في المستقبل . ولعل المصير الذي لقيه الكسندر هرزن ، يلقي على هذه الفترة التي وصلنا اليها من تاريخ وعي روسيا وافكارها القومية والافكار الاجتماعية ، ضوءا كبيرا .

- ٣ -

كان هرزن غربي الاتجاه نازل به ضد اصحاب النزعة القومية ، في صالونات الاربعينات وكان فيورباخ معلمه بعد هيجل . ومع ذلك فان المؤثرات الالمانية كانت اقل فعلا فيه من الادب الاشتراكي الفرنسي . وكانت نظرية الاشتراكية في العالم تحمل بصمات الاشتراكيين الفرنسيين . وظلت الاشتراكية الالمانية، التي كانت ما تزال بعد في طور نشوئها ـاي الماركسيةـ غريبة عنه . وكان هرزن واحد من اولئك الروس الذين يحلمون بشغف بالغرب . ومن اوائل المهاجرين اليه . فقد هبطه عام ١٨٤٨ ، في غمرة مناخه الثوري ، وفتنته هذه الثورة منذ البداية وعلق عليها آماله . ولكن الايام بددت اوهامه ومني بخيبة امل عميقة سرعان ما اضطرته الى ان يسحبها على الناس وعلى الاشياء . واذا كان ولعه الاول لهذا الغرب، الذي انتظره طويلا ، ولعا روسيا صميميا ، فان خيبة امله كانت كذلك روسية صميمية . وبعده كثيرون من مواطنيه سوف يعانون خيبة الامل نفسها . فقد ذهل هرزن وآذاه حتى اعماقه ما رآه من سيطرة روح الربح في

---

١ ـ راجع كتاب كورنو Cornu المفيد: كارل ماركس ، الانسان وآثاره ـ ١٩٣٤ .

الغرب وتأكد من ان وجود هذه النزعة الشرهة للربح ، نزعة البورجوازي الصغير ، متفش حتى عند الاشتراكيين . وكان اول من ميز امكانية تحقيق اشتراكية بورجوازية . ومنذ ذلك الحين حلت صورة التاجر صاحب الدكان الصغير محل «الفارس» المثل الاعلى . وتصبح الادانة للبورجوازية الغربية لازمة نجدها تتكرر عند الروس على الدوام . يعبر عنها اصحاب النزعة القومية بعبارات اخرى . وهكذا يتمرد ليونتيف الرجعي على روح البورجوازي الصغير في الغرب تماما كما يفعل ذلك هرزن الثوري .

كان هرزن خلافا لسائر كبار ممثلي اليسار يعتنق فلسفة متشائمة في التاريخ . فلم يكن يعتقد لا في التقدم ولا في العقل ولا في انتصار الخير على الشر آخر الامر . ويشكل فقدان التفاؤل عنده سمة اصيلة وجديرة بالعناية . ذلك ان القيمة الافضل التي يعترف بها هي التي يعزوها للشخصية الانسانية التي تسحقها عملية التاريخ ، واضعا بهذا التقييم اسس اشتراكية فردية روسية خالصة سوف يمثلها في السبعينات ميخائيلوفسكي Mikhailovski . فالفردية الاشتراكية تتعارض مع الفردية البورجوازية . ولم يكن هرزن يرى اية قوة ، في اوربا الغربية يمكنها ان تعادل تلك الامبراطورية التجارية . والعامل ، الذي يشكل جزءا من هذه الامبراطورية يكون بالتالي عاجزا عن انقاذ سائر المجتمع من هذه الطاقة الكبرى . وهكذا نجد هرزن المهاجر ، الذي حرم حتى مماته امكانية عودته بجسده الى وطنه ، يرجع اليه بروحه على الاقل . فأيا كانت شناعة نظام الحكم الاستبدادي في عهد نيقولا الاول ، وفظاعة العبودية والجهل الا ان حياة جديدة وافضل ، سليمة من عيوب البورجوازية التي ذكرناها، تنطوي عليها الروسيا ، على شكل قوة كامنة . وهذه الخاصة الكامنة يجسدها هرزن في الفلاح الروسي (الموجيك) ، تحت الفندورة الغبراء التي يتشح بها وفي كومونة الفلاحين . ذلك انه في عالم الفلاح الروسي يختبىء سر توحيد مبدأ الشخصية الفردية ، ذات يوم ، مع مبدأ الجماعية . وكان هرزن ـ انسانيا ـ متشككا ، تجفو طباعه عن القبول بأي دين . ولكن ايمانه بالشعب الروسي وفي الحقيقة التي يحتفظ بها الفلاح الروسي (الموجيك)، هو مرساة نجاته وهذا ما يجعله احد مؤسسي النزعة الشعبية وهي ظاهرة روسية صميمية . مما يضفي على شخصيته كمستغرب Occidental ملامح خاصة بذوي النزعة القومية (السلافوفيل) . ومع ذلك فان معسكر المستغربين سوف ينقسم الى اشتراكيين ـ شعبيين من جهة والى تحرريين، من جهة أخرى . وكان هرزن يؤمن هو والاشتراكيون الشعبيون في انه لا

بد لروسيا من الوصول الى الحقيقة الاجتماعية بطرق مباشرة اكثر من الطرق التي سلكتها بلدان الغرب ، وان روسيا سوف تتجنب فظائع الراسمالية . كان اذن يعارض التحرريين الذين كانوا يدفعون روسيا للسير على الطرق التي اختطها الغرب. واذ كان هؤلاء المؤسسون للشعبية يزدرون السياسة التي لا تقدم ، في رايهم ، الى بلادهم الا طريقا للتطور مبتذلا ، فقد اكدوا أولوية العنصر الاجتماعي على السياسي : وهذه ايضا هي موضوعة روسية في جوهرها . والواقع ان هرزن وباكونين وحتى أولئك الثائرين القلقين مثل نتشاييف وتكاتشييف سوف يصبحون اقرب ، بمعنى من المعاني الى المثل الاعلى الخاص ببلادهم ، من المستغربين (أتباع الحضارة الغربية) ، المستنيرين والتحرريين ولن يكون كل ما يحدث طيلة الايام القادمة ، من الحاد في الاوساط الثورية والفوضوية في حقيقته غير روح التدين الروسي القديمة وقد انعكست وانقلبت الى الخارج ، وغير حسها في التنبؤ . ومن المهم جدا ان نذكر مرة اخرى بأن الافكار الليبرالية كانت دائما ضعيفة ، وان اية ايديولوجية ليبرالية قادرة على الحصول على سلطة اخلاقية ، وعلى ممارستها ، لم تكن موجودة في روسيا ابدا . ولا شك في ان دعاة اصلاحات الستينات قد لعبوا دورا هاما الا ان ليبراليتهم كانت نفعية صرفة ، فلم يشيدوا ايديولوجية ابدا تستطيع الانتليجنسيا الروسية الاعتماد عليها كما انها كانت دائما ضرورية لها .

الفصل الثاني

العدمية والأشتراكية الروسيتان

- ١ -

لو ان بيلنسكي كان احد رجال الاربعينات وانه انتمى الى جيـــل القوميين والمستغربين فانه يعبر ، بل ربما كان اول من يعبر عن نموذج عضو الانتليجنسيا الثوري وهو الذي صاغ له في اواخر ايامـه ؛ مبادءه ومفهومه عن العالم كما كان يجب ان تتطور خلال الستينات والسبعينات. ولم يكن بيلنسكي من الاعيان كهرزن او باكونين بل كان من اللامنتمين الى طبقة بعينها «Raznatchinetz» فهو رجل «جميع الطبقات» ومن حيث تكوينه الخلقي يمثل ملامح الانتليجنسيا النموذجية في عدم التسامح وفي التعصب ، فان هذا المتحزب يستسلم بلا قيود للافكار ، يراجع باستمرار نظراته في العالم ، ليس وفقا لمتطلبات المعرفة الخالصة فحسب وانما لكي يدعم تطلعاته الى الخير والى عدالة اجتماعية افضل . كان بيلنسكي ذا موهبة ممتازة غير ان مستوى ثقافته لم يكن يتعدى المستوى المتوسط ، كان يجهل اللغات الاجنبية ومعرفته بالمذاهب التي كان يتحمس لها لم تكن تصله ، بوجه عام الا بصورة غير مباشرة . ولم ينفذ الى جزء كبير مـن افكار هيجل الا من خلال احاديثه مع باكونين . ومع ذلك فقد عاش هـو ايضا جميع «اللحظات» الايديولوجية التي تركت آثارها في اوساط عصره

المثقفة . فصار على التوالي تلميذا لفخته وشيلنغ وهيجل ، ولكنه تحمس بعد ذلك لفيورباخ وتأثر بالفكر والادب الفرنسيين . وكان قبل كل شيء ناقدا ادبيا ممتازا ، أول من عرف كيف يقدر بوشكين وغوغول وكبار الرواة في بواكير اعمالهم الاولى . ولما كان موهوبا بحس فني مرهف الى حد كبير فقد كان يمكنه في هذا المجال وحده صياغة احكام هامة . ولكنه كان بالاساس واحدا من أولئك النقاد المدعوين للقيام بدور في تاريخ الذكاء . ان تلك الامنية في العثور على مفهوم شامل للعالم يجاب به على جميع مشاكل الحياة ، يوفق بين العقل النظري والعقل العملي ، ويسوغ تبرير المثل الاعلى الاجتماعي من وجهة نظر فلسفية ، ان هذه الامنية التي تعتبر روسية صميمية حقيقية ، كانت امنية بيلنسكي نفسه طيلة حياته . فالحقيقة المتكاملة ، على حد قول ميخائيلوفسكي فيما بعد . وهو خليفته فكريا ، تحتمل الحقيقة النظرية والحقيقة الاخلاقية ، اي حقيقة الحياة. وهذا هو المعنى المجرد لحقيقة شاملة سوف نجدها في ذات الوقت عند فيدوروف ، على صعيد ديني ، وفي الماركسية ـ اللينينية . وبيلنسكي هو اول وانبغ أولئك النقاد الروس ، الذين وهم يخاطبون الجمهور يعلمونه معرفة «الكلية» وبهذا يصبحون معلمي الحياة . ولم ينفك يؤكد على الدور الاشتراكي للناقد في وقت كان الفكر الاشتراكي الروسي يستطيع ان يتستر وراء النقد الادبي وحده بالنظر للظروف التي خلقتها الرقابة السياسية من عدم سماح له بالافصاح عن نفسه في غير هذه الاساليب .

ان اطالة تأثير الهيجلية لجديرة بالعناية ، بخاصة اذا ما درسنا التطور والثورة الايديولوجيتين اللتين عاناهما بيلنسكي (١) . فقد عرف الفكر الروسي ازمتين بفعل الهيجلية : احداهما دينية والاخرى اجتماعية خلفتا آثارهما على التوالي في كومياكوف وبيلنسكي. وقد اشغل رجال الثلاثينات والاربعينات فكرهم بصورة خاصة فيما كان من موقف هيجل ازاء «الواقع». ان فكرة هيجل عن الواقع المعقول الذي كان معناه في رأيه ان الوجود الواقعي منطقي (٢) والذي كان يدل على واقع صحيح قد بذل في شرحها

---

١ ـ اشتراكية بيلنسكي ، مقالات ورسائل ، تحرير وتعليق سوكولين ١٩٢٥ . وقد جمعت رسائل بيلنسكي المدهشة الى بونكين في هذا الكتاب .

٢ ـ Panlogisme لفظ اطلقه Erdman على مذهب هيجل القائل بأن الوجود الواقعي منطقي . انظر المعجم الفلسفي للدكتور يوسف كرم .. وشلالة . ـالمترجمـ

جهدا مضنيا بقلق وتوتر ولكنها فسرت تفسيرا خاطئا في روسيا . ومع ذلك فقد امكن فهم هيجل دائما بمعنى محافظ كما فهم بمعنى ثوري على حد سواء ، لذلك نجمت عن تأثيره حركات يمينية ، كما نجحت حركات يسارية متطرفة . والحقيقة ان هيجل كان فيلسوف الدولة البروسية التي كان يرى فيها تجسيد العقل المطلق ، الا انه ادخل بديالكتيكه ، الحركية الثورية الى الفكر وبذلك مهد لظهور ماركس .

لقد فسر اتباع هيجل في الاربعينات معلمهم بمعنى محافظ : كل مبدأ عمل يحمل في طياته معنى . ولم يكن علينا الا ان نتلاءم مع هذه «الفاعلية» التي كان يمثلها حكم نيقولا الاول ، وان نميز فيه نظاما ثاقب الراي . وقد مر بيلنسكي بهذه المرحلة كما مر باكونين ولكنهما ، نظرا لما فطرا عليه من مزاج سرعان ما استبدلا هذه الايديولوجية ، بايديولوجية ثورة . وكان الرومانطيقيون ــ المثاليون من الروس ينجون في الاربعينات ، من العالم الذي يؤذيهم بالالتجاء الى عالم الفكر ، والخيال والادب ، الى العالم الذي تولده الافكار . كانوا يتألمون من العيش في عصر قائم على الخطأ وباغ ولكن القوة كانت تنقصهم لتغييره . وهكذا جعل طلاق هؤلاء الرجال مع الواقع منهم رجالا غير فعالين ، خاملين ، وخلق منهم نموذج الـ «ناس غير النافعين» الذي سبق لنا ان حللناه في مكان آخر ــ عاجزين عن تقدير قواهم ، بميزان هذه الحياة ، لا من اجل الخضوع لها ولا من اجل الدخول معها في صراع . ومع ذلك فان فهم الموقف الذي كانت تدعو اليه الهيجلية بمواجهة الواقع ، كان ممكنا ، على وجهين: هوية وأحدة بين الفكر والموجود فليس الموجود هو الذي يصير فكرا فحسب بل الفكر هو الذي يصبح موجودا ايضا وفي نهاية الاربعينات ، في الفترة الاخيرة من حياته يندفع بيلنسكي بحمية متأججة ، في الواقع الاجتماعي ، لا من اجل ان يتلاءم معه ، وانما من اجل محاربته : لكن الكفاح يفترض الصراع الواقعي مع الفعل ، ولا يتفق مع موقف الرجل الحالم . الا ان هذا الميل الى المعركة لدى بيلنسكي يتخذ شكل القطيعة مع الهيجلية ، ومع بيلنسكي ، انتزع اليسار الثوري في الفكر الروسي كله ، نفسه من سلطة تأثير الهيجلية ، حتى جاءت الماركسية التي سوف تعيده هي من جديد الى هيجل نظرا لان الديالكتيك يفهم بعدئذ بمعنى ثوري . وكرست الفترة الاخيرة من حياة بيلنسكي في سبيل الاشتراكية الثورية والالحادية المناضلة . وقد عبر عن هذه الحالة العقلية في رسائل مذهلة الى بوتكين (وهي رسائل لم تنشر قط في ظل النظام القديم). وقد نشبت المعركة ضد هيجل باسم الشخصية

الانسانية الحية وسوف تتحول المعركة من اجل الشخصية الانسانية الى معركة من اجل المجتمع المنظم بالاشتراكية . وهكذا تتكون الفكرة الروسية الصميمة عن الاشتراكية الفردية .

يعترض بيلنسكي ، قبل كل شيء ، وبهذا العنف المتطرف ، الذي يتسم به مزاجه ، على المثالية المجردة ، البعيدة عن الحياة الملموسة والتي نجد انفسنا طبقا لها مساقين الى تضحية الفرد الحي من اجل الجماعية البعيدة ، من اجل الروح العالمية .

ولهذا كتب قائلا «ان مصير احد الرعايا ، مصير الفرد ، مصير الشخص ، اهم من مصير العالم بأسره ومن صحة امبراطور الصين ، اي من «Allgemeinheit» الهيجلي . وقال مخاطبا هيجل وهو يفسره على هذا النحو : «انني احيي قلنسوتك كفيلسوف ولكني مع كل احترامي لفذلكتك الفلسفية ، لي الشرف بان اعلمك انني لو منحت الصعود الى اعلى درجة في سلم التطور ـ فانني سوف اطلب هناك اعلامي عن جميع الكائنات التي جعلت منهم ظروف الحياة والتاريخ شهداء وعن جميع ضحايا القدر والوهم ومحكمة التفتيش وفيليب الثاني ، الخ ... والا فانني سوف القي بنفسي من ذلك المكان الشاهق على راسي فانا لا اريد السعادة، وليعفوني منها ، اذا لم اكن قبل كل شيء سلفا مطمئنا على كل واحد من اخوتي في الدم ، الذين ، عضمهممن عضمي ولحمهم من لحمي . يقولون ان النشاز هو شرط الانسجام ، وقد يكون هذا مجديا ولذيذا للمولع بالموسيقى ولكنه بلا شك اقل من ذلك كثيرا لمن فرض عليهم القيام بدور النشاز» .

هذه الصفحة مهمة جدا في جميع المناقشات القادمة . فهي تطرح مسألة البحث في العدالة الالهية ومسألة تبرير فكرة الالم ، وهي فكرة روسية صميمية ، حتى انها تعتبر مصدرا لحركة الالحاد الروسية ، ـ كما انها تضع كل قيمة التقدم في ميزان البحث . كان بيلنسكي ممهدا لدوستوفيسكي والنزاع الذي يثيره هو نزاع ايفان كرامازوف (١) حول دموع الطفل . ويبدو دوستويفسكي في الديالكتيك الذي يستخدمه في **اسطورة المفتش الكبير** ، مع انه هنا كان بذورا اولى ، وكأنه يفكر في كثير من الملامح التي يضفيها على شخصية ايفان بيلنسكي الذي كان يعرفه معرفة شخصية وسبق له ان ناقشه مرات عديدة . وقد اصبح بيلنسكي

---

١ ـ احد ابطال الاخوة كرامازوف لدوستويفسكي . ـالمترجم ـ

اشتراكيا وثوريا وملحدا ، بعد ان انتقل من المثالية الى اليأس وتحمله بصلابة . وعلى **الصعيد العاطفي** التقت الاشتراكية بالالحاد ، لديه . ذلك ان منبع الالحاد هو الرحمة بالانسان ، انه استحالة القبول بفكرة الله مع وجود الشر والالم في الحياة : فانه ينبجس من دفق اخلاقي ، اي من حب العدالة والخير . وهذه هي بسيكولوجية دينية خاصة تماما ، وديالكتيك مثالي سوف يتمكن دوستويفسكي من اكتشافه . فان بيلنسكي صار اشتراكيا من طريق التعاطف مع الانسان والتمرد على مقولة العام (الفكرة، العقل ، الروح ، الله) التي تخنق انفاس الفرد ، وهو نفسه يصلح شاهدا على تلك المرتكزات الاخلاقية والنفسية التي شيدت عليها الاشتراكية الروسية . ولكن الكفاح المناسب ضد الجماعية باسم الشخصية سرعان ما سيصبح الكفاح من اجل جماعية جديدة ، من اجل الانسانية ومن اجل تنظيمها الاجتماعي . ولم يتنبه بيلنسكي الى انه ، برفضه لكل معنى «جماعي» ، كمحطم للشخصية ، يخضع الشخصية في الواقع الى فكرة جماعية جديدة . وعبثا ينحني امام هذه الجماعية الجديدة (ذلك انه لا بد للروسي من شيء ينحني أمامه) باسم الشخصية بالذات ، فان الشخصية في ذلك سوف لا تكون أقل تعرضا للاضطهاد والاذىمن قبل هذهالجماعية. وكان بيلنسكي ينادي : «الاجتماعية ، الاجتماعية ، او الموت» . «ماذا يهمني ان يحيا العام ما دام الفرد يجب ان يتألم !» و«الرفض ـ هذا هو الهي » .

وكما كانت هذه العملية الديالكتيكية تظهر في المانيا ، في صفوف الجناح اليساري من الهيجليين عند فيورباخ وماركس ، فانها قد برزت في الفكر الروسي في أواخر الاربعينات وهذا هو العصر الذي تجري فيه القطيعة مع المثالية المجردة للانصراف الى العمل الملموس وكان يحرك بيلنسكي ، حب للانسانية على طريقة مارات Marat على حد تعبيره هو نفسه . فقد كتب في ذلك : « انني اصبح رجلا مخيفا عندما تستحوذ برأسي فكرة من الحماقات الصوفية» . و«الحماقة الصوفية» لتستحوذ بسهولة على رأس اي واحد من الروس ، وكلمات بيلنسكي هذه ذات دلالة بعيدة . اذ ينزع ، بدافع الشفقة على الانسانية ، الى التبشير بالاستبداد والقسوة . فلا بد من ان يسيل الدم . وبقصد تأمين السعادة لاكبر جزء من البشر يجب ان تقطع رؤوس بل تقطع مئات الالوف منها . ويبدو بيلنسكي هنا رائدا لاخلاقية البولشفيك . فهو يرى ان الناس من الغباء بحيث لا نستطيع الاخذ بيدهم الى السعادة الا بالاكراه . ويعترف بأنه لو

صار قيصرا ، لاصبح مستبدا باسم العدالة . ويميل بهدف ازالة الفروق الاجتماعية ، الى الدكتاتورية .

وقد طرح بيلنسكي كمبدأ اولي ان الشعب الروسي كان شعبا ملحدا. ومع ذلك فانه لا يزال يحب مسيح الفقراء والمتالمين . اما مجاهرته الكاملة بعقيدته فقد فصلها برسالة الى غوغول كتبها بمناسبة نشر كتابه : **مراسلات مع اصدقاء** . فان الناقد يتهم الروائي في هذه الرسالة التي تداولها الناس طويلا من يد الى يد بدون ان يمكن طبعها . بانه فار من صف القضية العادلة وانه قد انضم الى اخلاقية مشايعه للعبودية .

ان جماع الملامح التي حاولنا تحديدها تمنح بيلنسكي مكانة مركزية في تاريخ الفكر والوعي الروسيين في القرن التاسع عشر . فان اسمه اكثر من اي انسان آخر يجب ان يكون مدوّنا في قائمة منشئي الايديولوجية الشيوعية ، يستحق ذلك عن جدارة اكثر من هرزن ومن اهم مفكري الاربعينات بل والستينات وليس مفهومه الاخلاقي هو الذي يقربه من الشيوعية فحسب بل ونظرته الاجتماعية . وعلى حين كان ضعيف التمثيل للنزعة الشعبية ، فانه كان يعلق اهمية كبيرة على تطور الحركة الصناعية، ورغما عن انه لم يكن يتحمل البورجوازية الا انها اتخذت في ذلك ، في نظره تلك القيمة الرمزية ، التي يخصها بها الماركسيون . ومع ذلك فان الاسباب الداخلية جميعها التي كشفناها فيه ، كانت هي الاسباب نفسها التي نشأ منها مفهوم العالم عند الانتليجنسيا ، وهو مفهوم ينتهي ، بعد ان يهيمن دهرا طويلا ، الى انجاب الشيوعية ــ اذ تكون الظروف التاريخية ، قد تبدلت تماما . ويمكننا ان نلخص هذه الاسباب بما يلي : نجدها ، قبل كل شيء ، في دوافع الاحتجاج اللاهب ، الساخط على الشر وعلى الاضطهاد وعلى آلام الحياة ، وفي الشفقة على المساكين والمحرومين والمهانين . ولقد راينا ان الروس بدافع الرحمة ولاستحالة قبولهم بالالم يصيرون ملحدين. وقد صاروا ملحدين ، لانهم يرفضون الاعتراف بخالق ابدع عالما شريرا ، ناقصا مليئا بالآلام . وهم انفسهم كانوا على استعداد لخلق عالم جديد ينتفي منه الظلم . ومثل هذا الالحاد يقدم اكثر من شبه بعقيدة مارسيون Marcion الا ان مارسيون كان يفترض للعالم خالقا شريرا ، بينما اعتبر الملحدون الروس ، في حقبة مختلفة من تطور العقل الانساني ، ان الله غير موجود ، لانه لو كان موجودا حقيقة فلا يمكنه ان يكون الا شريرا. وهذه هي الحجة التي نجدها هنا عند بيلنسكي . كذلك كافح باكونين ضد الله مستعينا بموضوعات قريبة من موضوعات مارسيون . الا ان هذه

العقيدة سوف تأخذ اخيرا في فكر لينين صيغتها الكاملة .

وهكذا يجب ان يفهم بأن الشعور بالانسانية الذي نمّي حتى الهوس قد ارتكز على النبع الاول للالحاد الروسي : ان الحركة الانسانية التي اندفعت الى اقصى التطرف في الشيوعية وفي التيار الغالب للجحود بالله، هي نفسها التي سوف تتغير من جديد الى حركة غير انسانية ، وفقا لايقاع سبق ان توقعه دوستويفسكي . فان فكرا غنيا جدا كفكر بيلنسكي يجول في دورتين على التوالي : فهو في المدار الاول لا يحسب حسابا الا للشخصية يؤكد كرامتها وحقها في الحياة . ومن ثم فان النظرية تتحول : حيث تتلاشى الشخصية في الكل الاجتماعي ، في الهيئة الاجتماعية . هذا هو المجتمع ، المجتمع الجديد الذي اعدته الثورة والذي يجب عليه الآن انقاذ الشخص الانساني من الالم ومن الانحطاط فالمسألة الاجتماعية تعدّل معطيات المسألة الفردية . وبعد نفي «العام» بحجة انه يسحق «الخاص». فان الثورة سوف تشيّد شكلا جديدا «للعام» ـ المجتمع ـ الذي سوف تضيق الخناق على الكائن المنعزل وتتطلب منه كامل تبعيته . وهكذا يكون الديالكتيك الحتمي قد وضع حيث يصبح ان لا مفر ، في روسيا ، من مرور كل الفكرة الثورية ـ الاشتراكية ـ الملحدة به . ويصبح الالحاد من هذه الزاوية ظاهرة دينية تنطوي في اساسها على حب العدالة . اما واحد مثل بيلنسكي فهو قبل كل شيء شخص مسه ذلك التعصب للخير الذي يميز بعلامات قاطعة جميع الانتليجنسيا الثورية .

ان ابرز صفتين اساسيتين في سيماء الحركة الشعبية هما موضع شك اذن في بيلنسكي : الاعتقاد بأفضلية الشخص الانساني من جهة ومبدأ الجماعية ، مبدأ التنظيم الاشتراكي للمجتمع من جهة اخرى . بيد اننا لا نستطيع ان نطلق عليه صفة الشعبي بمعناها الدقيق، اذ ينقصه الايمان الاعمى بالشعب . ويبقى هرزن ، في هذا المجال ، اكثر تمثيلا منه للشعبية بما لا يقاس . فقد كان هرزن مهاجرا معروفا جدا في الاوساط الاجنبية طبع جريدته في لندن : الناقوس . وكان على صلة بالحركات الاشتراكية في الغرب وترجمت آثاره الى اللغات المختلفة . وفي بداية حياته كان فرديا وانسانيا ، اكثر من بيلنسكي بكثير . وقد رأينا كيف انه وقد خاب ظنه وانكشف انخداعه بالغرب ، اتجه نحو الفلاح الروسي (الموجيك) وحوله الى مثل اعلى وهو ما لم يفعله ابدا بيلنسكي ، ذلك الذي كان ماركسيا بالقوة . ويبدو الفلاح الروسي ، الخاضع لشرط العبودية البائس ، المحروم من أبسط مبادىء التعليم ، انه يجسد ، في رأي هرزن ، لاكثر

من سبب ، مبدأ الشخصية ، اكثر من الاوربي ، المتخلق بأخلاق «العطار» دائما . فالمعنى الخاص لا يتحد بالمعنى العام الا في صميم الشعب الروسي. ويجعل هرزن من نفسه ، وهو في الخارج المؤسس لتلك الاشتراكية الشعبية الروسية التي بلغت تمام تطورها في السبعينات وكان يعتقد اعتقادا جازما بأن روسيا تستطيع تحقيق الاشتراكية بسهولة اكثر من البلدان الغربية وانها لن تمر بمرحلة البورجوازية . وكان يعارض ، شأن كثيرين من معاصريه ، كل ثورة سياسية قد تدفع روسيا بالذات لتلك الطرق البورجوازية الغربية . فان يكون المرء اشتراكيا في ذلك العصر كان معناه : المطالبة بالاصلاحات الاقتصادية ، واحتقار النزعة التحررية وان يرى الشر كل الشر في تطور الصناعة الراسمالية الذي يحطم اعلى اشكال المجتمع وهي في بدايتها الاولى ، اي تنظيمات الفلاحين . وغالبا ما كان يعني أن يكون الانسان اشتراكيا : القبول بالدكتاتورية بل وبالملكية عند الحاجة . ذلك ان الاشتراكيين الشعبيين كانوا على استعداد لدعم العرش وتأييده اذا احتضن هذا العرش قضية الشعب في وجه النبلاء والبورجوازية الناشئة . لذلك فان هرزن من مقر هجرته البعيد ، بعث ، في اعمدة **الناقوس** يهنىء الاسكندر الثاني على تحريره للعبيد . ورغما عن ان هرزن هو مؤسس الشعبية وانه اكمل من يمثلها ، الا أن خلفاءه كانوا قد تجاوزوه . واصبح في نظر الجيل الجديد يبدو في ملامح رجل الاربعينات، ارستقراطيا ، روسيا Barin مستنيرا وانسانيا متشككا الا انه غير عدمي Nihiliste . ولئن كان ينتمي اكثر من بيلنسكي الى حركة امس الشعبية ، الا انه اقل منه مساهمة في هذا الشكل الجديد للانتليجنسيا الذي ينشأ ويتطور تحت بصره . وعلى الرغم من ان تشيرنيشفسكي Tchernichevski اشتراكي ـ شعبي ، يدافع عن افكار كانت افكار هرزن عينها ، الا انه لن يتحدث عنه الا بازدراء وبصفة سخرية كما لو كان ارستقراطيا من زمن آخر ، كان يتجادل جدلا اكاديميا مع خومياكوف في صالونات موسكو . ذلك ان طبقات اجتماعية جديدة قد برزت الى الوجود في هذا العصر . تجمعت على الاخص من طلاب المعاهد الدينية ، فتعددت الصفوف ولم تعد طبقة النبلاء تقود حركة الانتليجنسيا. وبزغ نجم نمط من الرجال على المسرح اشد مراسا وأكثر تصوفا في الوقت نفسه ، وأكثر واقعية وأكثر ايجابية. اما جيل التيار المثالي في الاربعينات، جيل «الذين لا يعملون» الذين يعيشون في الستينات ورؤوسهم في الاربعينات فقد اصبحوا ينتمون بعد الآن الى عصر بائد . وآن ظهور

العدميين على المسرح .

- ٢ -

ان النزعة العدمية ، هي ظاهرة روسية صرفة ، غير معروفة في الغرب ، على الاقل في هذا الشكل الذي ندرسه هنا . ومن الممكن ان نقصر العدمية ، بمعناها الضيق على حركة التحرر الايديولوجي في الستينات وان نتبين زعامتها في بيساريف Pissarev الذي يجسد الرجل العدمي الروسي كما وصفه تورغنيف فيما اضفاه من ملامح على بازاروف Bazaroff احد ابطال قصصه . الا ان حركة العدمية كانت في الواقع اكثر اتساعا بما لا يقاس مما يمثله هذا البطل . وعلى الرغم من انها لم تكن في ذاتها حركة اجتماعية بيد اننا نجدها بين اصول الحركات الاجتماعية جميعها في القرن التاسع عشر الروسي . وهناك جذور عدمية لدى لينين الذي عاش في عصر جد مختلف . كان دوستويفسكي يقول : جميعنا عدميون والعدمية الروسية قد انكرت الله والروح والنفس والافكار والمعايير والقيم العليا : ومع ذلك يجب ان تعتبر ظاهرة دينية . فقد نبتت من تربة الاورثوذكسية الروحية كما انها قد استحوذت على نفوس كونتها الاورثوذكسية وهي نفسها ممارسات اورثوذكسية بدافع الاتقان ، ولكنها ممارسات منحرفة ، بل هي ممارسات بلا ثواب ، اذا جاز القول . نجد في جوهرها وفي تكوينها الإنكار القديم لعالم يغمره الشر والشعور بالخطيئة التي تحتملها كل حياة مترفة ، وكل محاولة لرد الفعل في عالم الفن والفكر . والعدمية كالزهد كانت حركة فردية وهي في نفس الوقت موجهة ضد كل ما يصنع افراط الفردية الانسانية وثرائها ، وهي كالزهد تعتبر ، الفن ، وفلسفة ما وراء الطبيعة ، والقيم الروحية ، ترفا منكرا ، وتضيف الى ذلك ايضا : الدين . فكل شيء يجب ان ينصب على تحرير الانسان على الارض وتحرير الشعب العامل وانقاذه من الآلام التي لا حدود لها ، وعلى اعداد ظروف للحياة اكثر سعادة ، وعلى تبديد الخرافات والافكار المسبقة ، والقواعد المتعارف عليها ، تلك «الافكار العالمية» التي تستعبد الانسان وتفسد سعادته . السعادة ؟ ما هي السعادة اذن ان لم تكن الحصول على ما نحن بحاجة اليه ؟ اما ما عدا ذلك فمكيدة ورجس من الشيطان .

كذلك فان الحياة الفكرية ، هي الاخرى ، يجب ان تحدد ، وان تكتفي بالعلوم الطبيعية المحطمة للاخطاء القديمة ، وبالاقتصاد السياسي الذي

يصلح لتنظيم المجتمع على صورة اكثر عدالة . فالعدمية في الاساس ، هي الجزع من يوم الحشر الروسي القديم باشارة سالبة . فهي تتصف بصفات الجزع جميعها : من تمرد على ظلم التاريخ وعلى افك الحضارة ، ومن تطلع نحو نهاية الازمنة التاريخية وحدوث حيـــاة جديدة ، حياة تاريخية ممتازة ، مرحلة تاريخية اعلى ؛ والعدمية تتطلب التجرد من جميع الزخارف الثقافية ، وازالة جميع التقاليد التاريخية ، فهي تريد تحريـر الانسان حتى يصبح طبيعيا لا تثقله اية قيود . وسوف تجد هذه العدمية تعبيرا عنها في المادية ــ اذ تنبذ كل فلسفة مرهفة كفلسفة فاسدة . كان العدميون الروس فـي الستينات ــ ليس بساريف وحده بل وتشيرنشفسكي ودوبروليوبوف الخ .. رجالا متعلمين : ومع ذلك فقد كافحوا ضد التقاليد التاريخية وضد «العقل» الذي لم يكونوا ليعترفون له بوجود ما ، بصفتهم ماديين ، وضد جميع المعتقدات والافكار السلفية عن الماضي . فلا فولتير ولا ديدرو عرفا العدمية . ولكن «فلسفة الانوار» الروسية ، الاوفكلارونغ، انتهت دائما ، لما يتسم به المزاج القومي من حب للتطرف ، الى هـــذه العدمية . لذلك تتخذ المادية التي تكون امتدادا للعدمية طابعا يختلف في روسيا عنه في الغرب : فهي في روسيا تتحول الى عقائدية من نوع خاص، الى «لاهوت» . انها لسمة ظاهرة للعيان عند الشيوعيين ، ولكنها حددت في ذلك الوقت المادية ، فـــي الستينات . وهكذا وضعت للماديـــة تعاليـــم كالتعاليم الدينية تستحوذ علـــى اكبر شطر من جنـــاح الانتليجنسيا اليساري فيغدو كل خرق لشريعتها خطأ . فمن لم يكن ماديا يجعل نفسه ، خلقيا ، عرضة للازدراء ، كما يعني انـــه يقف الى جانب اضطهاد الفرد والشعب . وهذا الموقف المتزمت كالوثنية مـــده العدميون الروس الى العلم ايضا . اذ يطرح العلم ــ وأعني العلوم الطبيعية ــ على انه موضوع ايمان ، وقد تحول الى صنم. وقد حظيت روسيا في ذلـك العصر بعلماء افذاذ ، مثلوا نخبة في حياة البلاد الفكرية ، ولكن العدميين المتعلمين الذين نعنى بهم هنا لم يكونوا رجال العلم : كانوا مؤمنين ، وكانوا مؤمنين عقائديين . فلم يكن الشك المنهجي ، على طريقة ديكارت ، يعنيهم الا قليلا ، وهو لم يكن يعني ، على العموم ، الا قليلا ، الروس الذين كانوا دوما يجنحون الى الاثبات (١) المتكامل . ان عنصر الشـــك غير متجانس

---

١ ــ آثرت ترجمة Affirmation هنا بمعناها الفلسفي وهو اثبات او ايجاب في مقابلة السلب . ــالمترجمــ

معهم ، وهو غريب عنهم كما وانه لن ينفذ ابدا الى ماديتهم : اذ ان المادية الروسية هي مادية مؤمنة .

ثمة سمة أخرى من سمات الاورثوذكسية تطبع العدمية ايضا بطابعها. ونعني بها صفة التردد في تقدير المدى الاخلاقي للقضايا الثقافية فقد ترددت الاورثوذكسية الزاهدة في ايجاد تبرير لمسألة الثقافة وكانت تريد ان تكتشف فيها خطيئة ما . وهكذا يمكن اعتبار الحكم المسبق ، الصادر من منبع اخلاقي وديني واجتماعي ضد كل ابداع ثقافي موضوعا روسيا صميميا . وعلى هذا نجد ان فكرة الثمن الذي ينبغي ان تفتدى به الثقافة نفسها ، هي احدى الافكار الرئيسية التي تحدد اتجاهات الاوساط الاجتماعية في السبعينات . وفي الحقيقة ماذا تعني العدمية ، ان لم يكن منفذا للخروج من عالم غارق في الشعر واقتلاعا من الاسرة ومن جميع ظروف كل حياة موجودة ؟ الا ان الروسي ، أقل تعلقا ، حقا ، بالاسرة من الغربيين وتدل عبارات : الحكومة والتقاليد والحق والاخلاق ، جميعها ، على الشر ، في نظره ، بصورة عامة . لان المبادىء والمؤسسات التي تمثلها تسحق الشعب والفرد الانساني . وابرز ما يلفت النظر في هؤلاء الرجال ، الذين وسموا بالتكوين العدمي ، انهم كانوا يقبلون خفافا ، على تحمل التنكيل والاشغال الشاقة او الى المشنقة . وهم اذ يولون وجوههم شطر المستقبل ، كانوا لا يغذون في نفوسهم اي أمل في الحياة الدنيا ولا في آخرة لا يؤمنون بها. كانوا يظهرون انهم على استعداد دوما للاستشهاد، وهم الذين كان سر الصليب غريبا عنهم وذلك بجدارة فائقة تميزهم عن مسيحيي عصرهم الذين كانوا ، على قلة استعدادهم لنكران الذات ، لا يقدمون ، بصورة عامة ، غير المثل المشين ، يضرب للتنفير من المسيحية. وهكذا كان تشيرنشفسكي **Tchernichevski** ، وكان زاهدا حقيقيا في حياته الخاصة ، يقول انه رسول الحريات كافة ، دون ان يطالب بأية حرية منها لصالحه الشخصي ، لكي لا يتمكن كائن من كان من اتهامه بالسعي الى اهداف انانية (١) . وتبرهن هذه القدرة المذهلة على التضحية التي تميز بها هؤلاء الرجال ، ذوو المفهوم المادي عن العالم ، الى اي مدى كانت عدميتهم ، على منوالها هذا ، ظاهرة دينية.

---

١ ـ من المفيد مراجعة : الحب عند رجال الستينات . مطبعة الاكاديمية الروسية ١٩٢٩ ـ موسكو ـ وذلك من اجل دراسة تشيرنشفسكي .

ولم يكن من قبيل المصادفة ان يكون فتيان المعاهد الدينية ، من ابناء الرهبان المتخرجين من المدرسة الاورثوذكسية قد لعبوا دورا كبيرا في تاريخ الحركة العدمية . كان دوبروليوبوف وتشيرنشفسكي من اولاد رؤساء الكهنة ودرسوا في معهد ديني . وكانت صفوف اليسار في الانتليجنسيا تفص بالفارين من صفوف الكنائسيين . وهي ظاهرة ذات مغزى مزدوج : ان الاعداد الذي تلقوه كان يهيؤهم لهذا السلب الزاهد في العالم ، ومن جهة اخرى كانوا يسمعون ، هدير ثورة ساخطة ، من حولهم في منتصف ذلك القرن ، على انحطاط الاورثوذكسية وعلى تشتت الوجود الروحي ، وعلى حياة الظلام المخجلة التي كان يعيش فيها التعليم الديني. وكذلك اخذ معنى التحرر من التعليم ينتشر بينهم ، ولكن على « الطريقة الروسية» ، اي على نحو حانق ، مفرط في حنقه . فان «حقد» هؤلاء الشباب من طلاب المعاهد الدينية على الثقافة الارستقراطية سوف يلعب دوره كاملا . كان تعطشهم الى العدالة الاجتماعية ، المستمد من ينابيع المسيحية حاجة لا تقاوم . وسواء أكانوا طلابا او غير طلاب، فهؤلاء الشباب الذين برزوا من صفوف تلك الطبقة الجديدة المختلطة الوشائج ، وقد سبق ان اشرنا اليها ، والتي كانت تميز حالة المجتمع الروسي غداة الغاء العبودية ، كانوا ، من خريجي المعاهد الدينية او سواهم ، يجلبون معهم حالة نفسية جديدة : فهم اشد تجهما ، واكثر حضا على التخلق وكثيرو الطلب ومتعصبون في رايهم ، جُبِلوا في مدرسة للحياة اقسى من المدرسة التي تكوّن فيها قبلهم رجال طبقة النبلاء . وكان لا بد لهذا الجيل من ان يبدل نموذج الثقافة الروسية ، وان يخفض مستواها . وبذلك انتهى عصر رجال ، مثل تشايديف وكيريفسكي وخومياكوف وغرانوفسكي او هرزن . لان الثقافة تبلغ دائما ، اشكالا اكثر اتقانا بفضل انتخاب لارستقراطية ثقافية . ولكن هذه الثقافة حين تصبح ديموقراطية ، تكسب اتساعا ، وتنتشر بين طبقات أوسع ، فانها تميل الى التناقص من حيث الكيف ، حتى تصل الى وقت تعود فيه مرة اخرى بانتخاب نوعي جديد الى الارتقاء. وهذا ما حدث في روسيا ، على مستوى صغير ، في الستينات ، الا انه كان لا بد من حدوثه اثناء الثورة بنسب هائلة . وكان التعبير عن تحول النمط الثقافي يتم فجأة في تبدل وجهة الموضوعات نفسها فيهذه الثقافة. وهكذا كان «المثاليون» ، في الاربعينات ، يهتمون ، على نحو خاص بالعلوم «الانسانية» كالفلسفة والفن والادب . على حين كان كلف العدميين ، بعد عشرين عاما ، ينحصر بالعلوم الطبيعية والاقتصاد السياسي فقط . وبذلك

حددوا ، سلفا الميول القادمة لجيل الشيوعيين في الثورة .

ولشخصية دوبروليوبوف ، اهمية خاصة في فهم اصل العدميـــة بمعناها الواسع وروح ذلك العصر الثورية . اذ ان التربة التي يقدمهـــا لدراستنا هي التربة نفسها التي نبتت فيها الافكار الثورية والعدمية . كانت لدوبروليوبوف بنية نفسية هي بنية قديس : وهي عبارة سنستخدمها مرة اخرى لتطبيقها على تشيرنشفسكي . وقـــد خلف دوبروليوبوف «يوميات» وصف فيها طفولته وشبابه . عززت التربية الدينية الصرفـــة التي تلقاها ، استعداده الى الزهد . ولما كان الشعور الدائم بالخطيئـــة متغلغلا في نفسه فانه كان يقع باستمرار فريسة اليأس . فكانت اتفـــه الاخطاء تعذبه . كان لا يستطيع ان يغفر لنفسه اكلة من المربى اكثر مما يجب ، او انه نام طويلا ، اكثر مما يجب ، وما الى ذلك ، كان هذا الطفل الشديد الورع يحب والديه حبا مفعما بالحنان ولاسيما امه ، التي لـــم يستطع ابدا ان يقنع نفسه بموتها . كان متوقعا انه رجل نزيه، صارم وجاد لا تشوبه شائبة من سفاسف الامور . فاذا بهذه النفس الزاهدة ، الرضية الى حد القسوة تفقد ايمانها فجأة . فقده نفورا من الشر والظلـــم وآلام الحياة . اذ لم يستطع ان يتقبل حقيقة وجود خالق كلي القدرة مسؤول عن هذا العالم الشرير ، المليء بالجرائم . وهذه هي الناحية التي تظهر فيها حجة مارسيون Marcion بصورة خاصة . والحقيقة ان دوبروليوبوف اضطرب اشد الاضطراب لموت امه الحبيبة . وبمثل هذا التمرد رفض ان يتقبل الحياة التعسة التي يحياها رجال الدين الروس ، وافتقارها الـــى الروحانية ، وما يخيم عليها من جهل يستعصي على التقدم وعدم وجود اي تحقيق ذي بال للمسيحية في الحياة . فأحس هو نفســـــه بأنه محاط بـ «مملكة الظلام» وكان اهم مقالاته ، وقد كتب في موضوع اوسترفسكي يحمل هذا العنوان : **شعاع من النور في مملكة الظلام** . والانسان نفســـه هو الذي يجب ان يجلب الشعلة الى هذه المملكة المظلمة . فلا بد من التعليم ومن التحويل الثوري لكل بناة الحياة . ودرس دوبروليوبوف المسائـــل الادبية كناقد محترف. دون ان يذهب مثل بساريف ، في تطرفه الـــى السلب في عالم الجمال esthétique ، الا انه اعتبره كترف وادانة من وجهة نظر الاخلاق . لقد ابتغى للانسان السعادة الارضية ــ اذ انه بعد ان فقد الايمان لم يكن يتوقع للحياة هدفا سواه . بيد انه ، هو نفسه لـــم يذق طعم هذه السعادة ، وخلت حياته من الفرح ومات بالسل وهو ما يزال بعد غلاما تقريبا . فالعدمية التي يمثلها ، هي العدمية في مطلعها ، وفي

شبابها : اما العدمية التي تظهر في عصر النضج فتتسم بطابع يختلف تمام الاختلاف .

اما تشيرنشفسكي Tchernichevski فلم يكن عقل الانتليجنسيا المفكر في عصره فحسب ، وانما كان عقل الاجيال القادمة كذلك . واسهمت هالة الاستشهاد التي احاطت بحياته ، في انتشار شعبيته . فقد اتهم بكتابة بيان يحرض الفلاحين على الثورة وسلم للمحاكم فلجأت السلطات الى تزوير الاسانيد وشهود الزور ضده لتأييد الاتهام . وهكذا حكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة ست سنوات يجب ان يمضي بعدها اثني عشر سنة في سيبيريا الشرقية في ظروف بالغة القسوة . وتحمل الاشغال الشاقة بصبر الرسول الحقيقي وجعل منه الرضا الذي برهن عليه واحدا من اولئك المسيحيين الاوائل الذين اصبحوا كذلك قديسين (١) : فأضاف هذا العقاب الذي طبق عليه ، الى سجل الحكومة القيصرية التي رتبته يوما من ابشع الايام . وكان تشيرنشفسكي ابنا لأحد رؤساء رجال الدين (شأن دوبروليوبوف ايضا) قد تلقى تعليما انسيكلوبيديا . درس التاريخ ، وعلم اللاهوت والفلسفة وبخاصة فلسفة هيجل والعلوم الطبيعية : واستوقفه الاقتصاد السياسي قبل كل شيء وسوف نرى ماركس يقدره في هذا المجال تقديرا خاصا . وكانت مثل هذه القابليات تؤهله للبحث العلمي . غير ان الكفاح العام قد جذبه اليه بكل قواه فلم يترك له الوقت لكي يتخصص في نطاق محدد . ومع ذلك فقد بقي مجدا في طلب العلم متعلقا بالكتب ... ولم يوح ابدا بأنه ذلك الرجل العنيف او شديد الحماس . وما يسترعي الانتباه في رواياته انها اكثر فائدة بما فيها من علم اجتماع مما تتكشف عنه من قريحة ادبية . فضلا عن ان تشيرنشفسكي لم يكن رغم معارفه الواسعة فكرا رفيع الثقافة . فهو ينتمي الى جيل اخذ يتقهقر بالنسبة للجيل الذي سبقه. اتسم بافتقاره الى الذوق لانضمام رجال جدد الى صفوفه ارتقوا، منذ زمن قليل ، الى الحياة الفكرية. وكان تشيرنشفسكي من ذوي النزعة العقلية وتلميذا لفيورباخ وفي نفس الوقت كان شأن افضل ممثلي الانتليجنسيا الثورية والعدمية ، مثاليا ، يرتبط مثله الاعلى بالحياة على الارض . وقد اقام مذهبه المادي المتطرف بدافع الزهد . كما انه بدافع الاخلاقية وبدافع من حبه للخير يؤكد الاخلاق النفعية التي تدعو اليها

---

١ ـ الحب عند رجال الستينات .

الانانية المعتدلة . ومن الالمام بتفكير تشيرنشفسكي يتضح الى اي حد كان الدليل الاخلاقي قويا عند هؤلاء العدميين الذين رفضوا ، نظريا ، كل اخلاق . ذلك ان المثالية وفلسفة ما وراء الطبيعة الروحية والدين ، قد تحالفت في نظرهم مع المنافع المادية والظلم الاجتماعي : وقد زودتهم المسيحية بالسند الكافي لتوجيه هذا الاتهام . كذلك فان الذين احترفوا اعتناق المثالية والروحية ، اخفوا وراء الذرائع النبيلة ، احط انواع الاهتمامات الخاصة . ولهذا راح هؤلاء الرجال الجدد، باسم مثالية حقيقية حية ، يفضلون مادية خشنة ونفعية على جميع تلك الافكار «الراقية» وعلى جيع الوان تلك البلاغة الكاذبة .

كتب تشيرنشفسكي رواية طوباوية بعنوان : **ما العمل** ؟ يمكن اعتبارها بمثابة كتاب ديني للعدمية الروسية ، وهو كتاب الانتليجنسيا الثورية المفضل ، بأسرها . يكاد ان يكون ركيكا من الناحية الفنية ولكنه يقدم فائدة عظيمة في تاريخ الفكر الروسي . الا ان الهجمات الموجهة اليه ، الصادرة من معسكر اليمين كانت في غير محلها وكان بوخاريف Baukharev عالم اللاهوت الكبير ، كان اقرب الى الحقيقة عندما الح على طابع رواية ما **العمل** المسيحي . فما تقدمه هو قواعد للحياة يهتدي بها العدميون . فبطل الرواية راشمتوف Rachmetoff ينام على المسامير لكي يقوي شكيمته وليتمرس على تحمل الآلام والتعذيب . ودفاعه عن حرية الحب ليس دفاعا عن الاخلاق الاجتماعية السهلة ، المنحلة، اي الاخلاق التي كانت موضع تبجيل في الاوساط المحافظة وخاصة في صفوف ضباط حرس البلاط اكثر منها في اوساط العدميين ، رجال الافكار ، ولكنه يتميز فقط بالنزوع الى الاخلاص في العواطف والانعتاق من كافة ما يضغط على الانسان . وما من شك ان الاخلاق التي يدعو اليها تشيرنشفسكي هي اسمى كثيرا من الاخلاق التي تظهر في «دوموستروي» Domostroi اما «حلم فيرافلولوفنا» فهو ضرب من الطوباوية في شكل رواية تصور لنا تنظيم مشاغل الحرف . ورغما عن ان اشتراكية تشيرنشفسكي لا تزال تجمع بين الطابع الشعبي والطابع الطوباوي ، الا انها تتكشف عن انها اكثر من سواها ، في تلك الستينات ممهدة للشيوعية . وهذا ما يعترف به بليخانوف ، مؤسس الماركسية الروسية ، في الكتاب الذي كرسه لدراسة

تشيرنشفسكي (١) . ولم يكن عبثا ان يتعلم ماركس نفسه اللغة الروسية خصيصا من اجل قراءته .

ذلك ان تشيرنشفسكي كان أشد اصالة بصفته اقتصاديا . اذ لم يكن ككثير غيره من معاصريه معاديا لكل تطور صناعي . اما المسألة الاساسية التي استحوذت على تفكير القرن التاسع عشر الروسي بأسره وهي هل تستطيع الروسيا النجاة من مرحلة الراسمالية ؟ فانه قد اجاب عليها بما يفيد : ان الروسيا تستطيع اختصار هذه المرحلة كلها والانتقال من اكثر اشكال الاقتصادية بدائية ، الى الاقتصاد الاشتراكي مباشرة . وهذا هو عين ما حاول الشيوعيون ، رغم ماركسيتهم ، ان يبرهنوا عليه . وقد اقام تشيرنشفسكي تناقضا كان من مميزات الاشتراكية الشعبية في زمنه حقيقة ، بين الثروة القومية ورفاهية الشعب . فثروة الدولة ، في البلاد الراسمالية ، تتزايد، ورفاهية الشعب تتناقص . ووقف مدافعا عن الجماعة الزراعية مبينا ان تطور الاشتراكية الى اكمل درجاتها يلتقي عندئذ باصوله الاولى ــ اي في كومونة الفلاحين . وكما فعل هرزن من قبل وسيفعل ميخائيلوفسكي من بعد ، فانه جعل مصالح الشعب مطابقة لمصالح الشخصية الانسانية بوجه عام . والحقيقة انه يمكننا القول ان نشيرنشفسكي كان بين كتاب عصره جميعا ، اصرحهم اشتراكية وهذا ما يحدد اهمية المكانة التي يحتلها في صفوف الانتليجنسيا الروسية التي كانت طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اشتراكية من خلال تصورها الاخلاقي . على حين كانت عدمية امثال بساريف ، على العكس ، تترك ضعفا في الموضوعات الاجتماعية ، ولكنه لا يمثل سوى ظاهرة مؤقتة.

كان مركز تشيرنشفسكي الفلسفي اضعف من مركزه السياسي والاجتماعي فعلى الرغم من انه ينتسب بالفكر الى مفكر عظيم كفيورباخ ، الا ان ماديته تكاد ان تكون مبتذلة ، مشبعة بصفة تبسيط الكتب العلمية من اجل الشعب التي انتشرت في عصره اكثر من تشبعها بالمادية الجدلية لماركس . وشغلت قضايا علم الجمال ما يكفي من اهتمامه ليجعل منه نموذجا للـ«نقاد ــ الصحفيين» في ذلك العصر . ولما كان مقتنعا بأن العمل اسمى من الفن ، فانه اراد ان يبني علم جمال واقعيا . ووراء هذا العداء للنزعة الجمالية يلمح الانسان فكرة تشيرنشفسكي المسبقة في الزهد .

---

١ ــ انظر N.G.G. Tchernichevski G. Plekhanov

فهو منذ ذلك الحين يصبو الى ذلك النمط من الثقافة الذي سوف ينتصر ـ بصورة هزلية (كاريكاتورية) غالبا ـ في الشيوعية ، وهذا النمط يمكن ان يتحدد بالسمات التالية : سيطرة العلوم الطبيعية والاقتصادية ، ورفض الدين وفلسفة ما وراء الطبيعة وان تكون وجهة الادب والفن هي الدفاع عن القضايا الاجتماعية واقامة اخلاق نفعية ، واخيرا اخضاع الحياة الشخصية الداخلية لمصالح الجماعة ومتطلباتها . ويجب ألا نشك في ان ما دعا اليه تشيرنشفسكي من أفكار جديدة وطبعه بـ«ماديته» قد شكل مساهمة جدية في ذلك الرصيد الاخلاقي الذي يعيش عليه الشيوعيون ، الذين لا يتحلون هم انفسهم ، بفضائله .

وبخلاف تشيرنشفسكي ودوبروليوبوف ، كان بساريف ، اهم ممثل للعدمية الروسية بمعناها الصحيح ، من ابناء النبلاء . كان شابا انيقا ، مهذب الذوق ، مؤدبا . وكان هذا «المحطم لعلم الجمال» ذا ذوق جمالي ، نشهد آثاره على ما يتمتع به من موهبة ادبية ارفع مما تحلى به سابقاه . وقد اتسم مصيره بخاصية الروسي الصميم . اذ القي به في السجن لاسباب تافهة فقضى اربع سنوات في زنزانة منفردة حيث كتب معظم مقالاته . وما ان اطلق سراحه حتى مات وهو ما يزال في عنفوان شبابه ، غريقا في حادث تعس .

كانت الموضوعات الاجتماعية التي عولجت من قبل تشيرنشفسكي نادرة عنده . اذ كان اشد أفراد ذلك الجيل الذي ينحدر منه ، نزوعا الى الفردية . ان تحرير الشخصية هو الذي كان يهمه قبل كل شيء ، تحريرها من كافة الضغوط كالوهم والافكار المسبقة والروابط العائلية والاخلاق التقليدية والشروط التي تفرضها الحياة . والتحرر الفكري يمثل في نظره القيمة الاولى بين القيم . ويأمل في الوصول اليها بتطور العلوم الطبيعية ، وكنبيّ يدعو للمادية ظن ، بشيء من السذاجة ، ان في هذه المادية خلاص الشخصية ـ في حين انها ، في الواقع ، تنفيها ، اذ ما دامت الشخصية محددة بأكملها بالوسط فانها لا تستطيع في هذه الحالة ، ان تملك الحرية ولا الاستقلال . وكان بيساريف اشد كلفا باعداد نمط جديد للانسان منه بتنظيم جديد للمجتمع ويطلق على هذا النمط الجديد للانسان اسم الـ«واقعي المفكر» . وهنا نجد الجيل الواقعي من «الابناء» يعارض الجيل المثالي من «الآباء» . وهذا النمط من الاشخاص هو ما سيحاول تورجتيف أن ينسج صورته في شخصية بطله بازاروف ، لم يحالفه النجاح في هذا التخيل الا قليلا ، ولكنها صورة سابقة للشيوعية

القادمة الى حد ما وتنبىء بمجيئها .

كان نمط الانسان «المثالي في الاربعينات» هو النمط الاوسع انتشارا في الاوساط الروسية المثقفة حتى ظهور العدميين ، وفيه كانت تستمر روح نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، مقرونة بتيارات الماسونية المتصوفة . ويبدو هذا النمط المنتسب الى طبقة النبلاء الروسية وحدها، انه كان ناشئا من احتكاك النفس الروسية بالحركتين الرومنطيقية والمثالية الالمانيتين . وكان نمطا انسانيا سخي التطلعات ، تفتنه جميع الاشياء «الرفيعة والبديعة» ـكما يقول دوستويفسكي فيما بعد بسخريةـ ويبدي استعدادا كبيرا للحلم واستعدادا قليلا جدا للعمل . وهذا النمط هو الذي تكون منه «الناس الذين لا يعملون» . اما نموذج الانسان «الواقعي المفكر» الذي يدعو اليه بيساريف فمختلف تمام الاختلاف عن ذلك النمط بل يكون عمله موجها ضده بأكمله . هذا الواقعي لا يعرف التأمل ولا الرومنطقية وهو عدو «الافكار الرفيعة» التي لا تمت بصلة الى الواقع ، واذا ما غدا الدين او فلسفة ما وراء الطبيعة او علم الجمال موضع بحث فما من شيء يمنعه من التخلي عنه ومحاربته . ولما كان شديد الحماسة للفعل والعمل فانه لا يقدر الا العلوم الطبيعية ويزدري العلوم الاخرى . واذا كان يبشر باخلاق الانانية المعتدلة فليس معذلك اكثر انانيةمن متقدميه المثاليين ـ بل على العكس تماما : ولكن لانه يريد ان يفضح تلك «الافكار الرفيعة» الكاذبة ، التي استخدمها الآخرون لاغراضهم الحقيرة . فضحا لا رحمة فيه .

بيد ان المستوى الفلسفي الذي يتمتع به هذا الانسان «الواقعي» كان ادنى من مستوى الجيل الذي حل محله . فقد تمكن بوخنر Buchner ومولیشوت Molechot وهما لم يعملا الا على تبسيط المادية القائمة على جهود العلوم الطبيعية في عصرهما تبسيطا مبتذلا، من ان يصبحا فيلسوفين شهيرين ومربيين . فكان هذا السقوط سقوطا بينا منذ عهد فيورباخ . وقد شرع «الواقعيون المفكرون» في البحث لاكتشاف لغز الحياة والموجود في تشريح الضفادع . فهم الذين استنبطوا الدليل الخلف والذي كان لا بد له من ان ينتشر اوسع الانتشار في صفوف الانتليجنسيا المتطرفة ، وهو ان تشريح الجثث لا يبرهن على وجود الروح في الانسان . وكان يمكن ان تكون لهذا الدليل نتيجة عكسية : اذ ان اكتشاف الروح اثناء تشريح الجثة يمكنه ان يقيم الدليل ، على العكس ، لصالح المادية .

وعلى وجه العموم ليس ثمة قياس مشترك بين جدية الازمنة الانسانية

واهميتها ، التي احدثها هذا الجيل من الواقعيين وبين فقر فلسفتهم ومادیتهم الخشنة ، المبتذلة . كان «الواقعي المفكر» . بطبيعة الحال عدوا لعلم الجمال ، ينكر قيمة الفن بذاته . وهذا ما دعاه الى ان يمارس في هذا المجال اشد انواع الزهد . وهكذا اكب بيساريف على عملية اجتثاث حقيقي للقيم الجمالية ، فانكر ما في بوشكين من مزايا الاتقان ونصح كتاب القصة الروسي بكتابة نشرات شعبية لبث المذهب الواقعي . والحقيقة ان البرنامج الثقافي الذي وضعه الشيوعيون ، كان ، من هذه الزاوية ، اكثر تخيرا ما دام اسم بوشكين واردا فيه وما دمنا ، على العموم نجد فيه اعترافا للفن بقيمته ودلالته . ولم تهبط المادية الجدلية هي ايضا لا تهبط في تقديرها، الى مستوى مادية «بوخنر ــ موليشوت» على حين كانت عدمية بيساريف تعلن ان «شكسبير لا يساوي زوجين من الجزم» وتسند للادب مهمة اجتماعية صرفة ــ وهي متشددة في افكارها اكثر مما كان السوفييت في اي وقت : اذ لو ان السوفييت ارادوا ، في الواقع ، تنفيذ برنامج العدمية الثقافي ، فانهم كانوا سوف يصلون في التدمير الى أبعد ما وصلوا اليه بالفعل .

الا ان هذا النمط من العدمية التي اشاعها بساريف قد خلف اثرا صحيا ضد احلام اليقظة الرومنطيقية وعدم العمل والكسل والانطواء الاناني على الذات ، كان يمكنه ان يكون دعوة سليمة الى العمل والمعرفة ــ وان كانت مقصورة على جانب واحد ــ كما تكون عاملا فعالا للتحرر . وهذه العملية التي درسناها والتي قادتنا من الرجل الحالم في عام ١٨٤٠ الى العدمية ، نلاحظ حدوثها مرة اخرى : وذلك عندما يجري الانتقال من مثالية مطلع القرن العشرين ، التي كانت صاحبة الفضل في يقظة حقيقية للادب ــ الى الشيوعية . اذ يلعب التكنيك عندئذ بالنسبة للانسان الجديد الدور نفسه الذي اداه المذهب الواقعي والعلوم البيولوجية في عام ١٨٨٠ .

لم يلحظ اصحاب الايديولوجيات العدمية ما يكمن من تناقض عميق في اصل جهودهم كانوا يبحثون عن تحرير الشخصية ويعلنون الحرب ، باسم هذا التحرير على كافة المعتقدات وعلى جميع الافكار المجردة . وباسم الشخصية التي تكون قد تحررت اخيرا ، كانوا ينكرون الدين والفلسفة والفن والاخلاق ، وكانوا ينكرون الفكر والحياة الفكرية ، ولكنهم بهذا نفسه ، كانوا يثقلون على الشخصية ، ويجردونها من محتواها الكيفي ، ويفرغونها من حياتها الباطنية ، ويأبون عليها حقها في الارتفاع بالخلق والابداع الى نوع من الثراء الروحي . فالنظريات الداعية الى النفعية قلما

تناسب تطور الشخصية اذ لا يمكن ان تقوم الشخصية عليها او تؤكد بها ذاتها . وقد ظهرت العدمية ـ والمادية معها ـ كاكراه زاهد والزام مفروض من الخارج لافقار العمل الخلاق والفكر . وعلى مثل هذا الصعيد لا يمكن تعزيز مبدأ الشخصية ولو امتد العمر ببساريف زمنا كافيا ، وهو على جانب عظيم من الموهبة ، لادرك اذن ، دون شك ان نظريته كانت تنطوي على تناقضات ، وان دنيا «تشريح الضفادع» ليست هي الدنيا التي تصنع بطلا يدافع عن الشخصية. الا ان اتجاهات السبعينات قد هذبت حواشي العدمية التي برزت من قبل في الستينات . فلم يعد ، عندئذ بوخنـــــر ومولیشوت هما الممثلين الفكريين لهذا الجيل الثاني وانما اوغست كونت وهربرت سبنسر وهكذا تم التحول من المادية الى الوضعية . وبدت بوادر رد الفعل ضد اكتساح العلوم الطبيعية. واسترد علم الجمال حقوقه جزئيا. ولم يعد لنغمة انكار الفن من وجود . ولكن فكرة «الرسالة الاجتماعيـــة» للفن ظلت تهيمن على الوعي الفكري في ذلك العصر .

الفصل الثالث

الحركتان الروسيتان : الشعبية والفوضوية

تتميز الشعبية بأنها ظاهرة روسية خصوصية كالعدمية والفوضوية . كان اصحاب النزعة القومية (السلافوفيل) كهرزن ـ وكان دوستويفسكي كباكونين ـ وكان ليون تولستوي كالثوريين في السبعينات ـ جميعهم كانوا شعبيين وان اختلفت في ذلك اساليبهم فالشعبية هي قبل كل شيء الايمان بالشعب الروسي ويجب ان نفهم بأن المقصود هو شعب الشغيلة البسيط ، ومعظم الفلاحين ، والشعب ليس هو الامة . وقد اعتقد الشعبيون على اختلاف مشاربهم بأن سر الحياة الحقيقية التي كانت خفية عن الطبقات الحاكمة والمثقفة يكمن في الشعب . كان يخامرهم الاحساس بأن الانتليجنسيا معزولة عن الشعب بهوة عميقة . وانهم بالنظر لكونهم جزءا من هذه الانتليجنسيا ، لا يشعرون بأنهم يشكلون جزءا عضويا من هذا الشعب ، فالشعب كان خارجهم . كما ان الانتليجنسيا ليست عضوا في الحياة الشعبية ، ولا تشكل جزءا منها ، وتشعر من هذه الناحية الرئيسية ، انها مجرمة بحقها . وهو شعور بالذنب سيلعب دورا كبيرا في بسيكولوجيا الحركة الشعبية كلها . اذ يعتقد كل فرد من اتباعها بأن عليه دينا يجب ان يؤديه للشعب وانه ملزم بالوفاء به . افليست كل ثقافة مكتسبة قد تم اكتسابها على حساب الطبقات الفقيرة التي تدفع ثمنها من تعبها ، ومن ثم افلا يلقي هذا عبئا من المسؤولية على من يحظون بالاستفادة

من هذه الثقافة ؟ وكان فريق الشعبيين المدنيين (اصحاب النزعة القومية وتولستوي ودوستويفسكي) يعتقد بأن الشعب ينطوي على حقيقة دينية . على حين كان الذين لا يؤمنون بالدين (مثل هارزن وباكونين والاشتراكيون في السبعينات) يعتقدون انهم يكتشفون فيه الحقيقة الاجتماعية . وبالنسبة لهؤلاء وأولئك على حد سواء كان الانسان في أرقى درجاته هو من لا ثمة خطيئة تثقله بعبئها ، خطيئة استغلال اشباهه من الرجال، وهذا الانسان هو الشغيل ، الرجل المنتمي للشعب . فاذا كانت الثقافة ، ليست في الواقع ، تبريرا للوجود ، واذا كان لتحصيلها ثمن مرتفع جدا هو استعباد الآخرين ، فمن حقنا ان نقف منها موقف العداء ، وان نمتنع على كل حال عن تقديم القرابين لها . كانت الشعبية الدينية تعارض الثقافة بحجج دينية ، ولكن حجة الشعبيين الاشتراكيين كان لا بد لها من ان تتكشف عن فعالية من نوع آخر تماما : لقد عابوا على الثقافة انها اعدت طبقة من العاطلين تعوّل على استغلال الطبقة العاملة تعويلا كاملا . وهكذا فان المفكرين انفسهم في روسيا لا يتملكهم سوى احساس ضعيف بأهليتهم الثقافية . كانوا ، حتى وهم في القمة وفي أوج الابداع يعانون من العزلة وانخلاع جذورهم من تربة الشعب . لهذا حاولوا العودة الى الارض واستعادة صلتهم بالشعب وبالتربة . كانت هذه هي حال تولستوي ودوستويفسكي ؛ فبين موقف شخص كليون تولستوي وشخص كنيتشه، مثلا ، اختلاف كبير : «ان الشعب يحيا تحت سلطان الارض» كما كتب اوسبينسكي Ouspienski وبعد ان اصبحت الانتليجنسيا مفصولة عن الارض اخذت تصبو للعودة اليها . وهذا تصور للحياة متعلق بالارض يمكن ادراكه فقط في بلد ذات تكوين زراعي . وهو تصور جماعي لا فردي. وهذه الجماعية التي يريد المفكرون العودة اليها ليغوصوا في أعماقها ، يمثلها الشعب .

هذا الشعور المحتدم بذنب اقترف من جانب الطبقة العليا بحق الطبقة الدنيا والذي نجده في تكوين الشعبية الاساسية ، يصدر مباشرة عن حالة الفكر التي يولدها الـ«راسكول» ، اي الانشقاق القديم الذي حدث في عصر رومانوف الاول . وقد نشأ عن افتقار في القدرة على التكييف وعن ذلك العجز الذي كان دائما ينقص المجتمع الروسي للانتظام وللتوازن . فلم يجد اي شعب من شعوب الغرب في نفسه هذا القدر من البواعث على اليأس . الا ان هذا النمط الخصوصي لـ«شريف النادم» قد نشأ في روسيا وفي الطبقات صاحبة الامتياز ذاتها . فهو نادم لا على خطأ قد

اقترفه شخصيا ، وانما على الخطأ ، اي على الخطيئة الاجتماعية . وقد ميز ميخائيلوفسكي Mikhailovski وهو عالم اجتماع شعبي في السبعينات بين الاهتمام بالمسؤولية والاهتمام بالكرامة . فالمسؤولية اي قلق الضمير والانشغال بالواجب والشعور بخطأ ما أمور كانت من شأن النبلاء خاصة . بينما كان الاهتمام بالكرامة الانسانية منتشرا في صفوف الطبقات المضطهدة والمهانة. وهذا الاهتمامسوف يظهر لدى «الرازنوتشنزي Raznotchinzi » اي الطبقة الاجتماعية الجديدة التي تتشكل من عناصر المجتمع الدنيا كافة . وقد انطوى الروس دوما على كراهية خاصة للبورجوازية وعلى الذعر من نمو محتمل للرأسمالية . وكان الشعبيون وفقا لسنتهم ، يريدون لبلادهم مصيرا خاصا تتجنب بفضله اتباع طريقة الراسمالية الغربية وتجد حلا للمشكلة الاجتماعية اسرع من الغرب وافضل . وحول هذه النقطة التقى الثوريون منذ زمن هرزن باصحاب النزعة القومية (السلافوفيل). ومما ساعد كثيرا على انتشار الاشتراكية الشعبية ان التصور الروماني للملكية قد بقي غريبا عن الشعب الروسي اذ كانت الطبيعة المطلقة للملكية الخاصة موضع إنكار في روسيا على الدوام . ليس المهم هو الموقف الذي نقفه من الملكية ولكن المهم هو موقفنا من الانسان الحي . وهو التصور الذي كانت تتبناه المسيحية . وهنا ينبغي ان نلاحظ بأن الانتليجنسيا لا تختلف روحيا فحسب عن المفكرين الغربيين ، الذين كانوا على وجه العموم ، بورجوازيين ، منتمين للطبقات المميزة في المجتمع، ولكنها تختلف عنهم بموقعها الاجتماعي ايضا . وهكذا تأثر المستوى العام للثقافة في الغرب بالبورجوازية . وعلى العكس كانت الانتليجنسيا في روسيا بروليتارية : حتى عندما كانت متمثلة في النبلاء ، كما حصل قبيل الستينات ، فان النبلاء الذين تحولوا الى بروليتاريين هم الذين كانوا يمثلونها : اذ كان اعضاء الانتليجنسيا معزولين ، لا يملكون من سبل العيش الا ما يعطونه في البيوت من ساعات تدريس زهيدة الاجر ، تكاد لا تقيهم من غائلة الجوع ، وكانت الثقافة الجامعية في روسيا اقل كثيرا منها في اوربا ، امتيازا للاغنياء . وهذا ما يفسر ، جانبا من ميول المفكرين الاشتراكية وما تتسم به ايديولوجيتهم من عداء للبورجوازية . الا انها اشتراكية ، بعيدة جدا عن الواقع . ولكن مشكلة «الانتليجنسيا والشعب» لن تطرح في اي مكان من الغرب بهذا الشكل الخاص الذي ظهرت عليه ، في الفكر الروسي طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر : صحيح انه لا يوجد في الغرب لا **انتليجنسيا** ولا **شعب** ، بمعناهما الروسي ، اذ ان

الشعبيين ينسبون الى اطار حياة الفلاح بأكملها ، صفات الكمال ، وتبدو لهم الجماعة الريفية ، الثمرة الاصلية لتاريخ روسيا ، النموذج المثالي ، او بحسب تعبير ميخائيلوفسكي النموذج الاعلى في مستوى منخفض من النمو .

ولا يتفق مع الحقيقة ان ننسب لهذه النظريات الاولى في المشاعية Collectivisme اهمية بالغة . بل اهم من هذا بما لا يقاس دراسة سجايا الشعبية الروحية والاخلاقية . الا ان الشيوعية التي اعتنقت مذهبا يتعارض مع الشعبية ، تحمل في طياتها كثيرا من عناصر هذه الشعبية الثورية .

كانت بداية الستينات هي عصر الاصلاحات التحررية ، عصر اعتاق العبيد وتنظيم الجمعيات الاقليمية الانتخابية، «الزيمستفوس» zemstvos سادت عقب ذلك فترة سنوات من الانسجام . قبلت فيها الانتليجنسيا اليسارية بأن تتصالح مع السلطة وان تشارك في تنفيذ الاصلاحات التي كانت تتم . فكتب هرزن ، بل وتشيرنشفسكي مقالات في مديح الاسكندر الثاني . وكان حلم الانتليجنسيا في تحرير الفلاحين يبدو امرا محققا . ولكن هذه الاستعدادات الميمونة ، لم تدم . ذلك ان الاتجاه الرجعي من فوق والاتجاه الثوري من تحت قد كبرا معا فكان لا بد من الا تتأخر الامور في خلق توتر جديد . اذ سرعان ما برزت ، في البلاط ، في صفوف تلك الفئة من النبلاء التي اضيرت بمرسوم التحرير ، ارادة المقاومة في وجه تلك الاصلاحات . ورجحت كفة الميول الى كبح جماح الانتليجنسيا . وهكذا اخذ الهوى الرجعي ينتصر من جديد في داخل الحكومة . وبدا انه كما ان الحياة الاجتماعية لم تنجح ابدا منذ عهود الاضطراب في أواخر القرن السادس عشر ، في ان تنتظم في روسيا على اسس ثابتة ، فان الحكم ، منذ بطرس الاكبر ، كان دائما في روسيا معرضا للهوى اما الآن ففي وجه هذا الحكم تهب رياح الحركة الثورية فتجد متنفسا لها في سلسلة من الاعمال الارهابية ضد الاسكندر الثاني الى ان ذهب ضحيتها. وهكذا عملت التيارات الرجعية تحرضها الطبقات الحاكمة باسم مصالحها واهوائها ، على اشهار تدابير القمع ، فولدت هذه التدابير بالمقابل ، تيارات الثورة وافعالها . وبذا كانت الحلقة القدرية تطبق حول امور البلاد . ولكن الافعال الثورية لم تكن تستطيع تغيير بناء المجتمع ـ طالما ان الغالبية العظمى من الشعب كانت لا تزال ماضية في اعتقادها بقدسية الملكية الاوتوقراطية . ولم تكن الانتليجنسيا تدرك ادراكا كافيا انه كان لا يمكن

للملكية الروسية الاحتفاظ بمركزها بالضغط وحده وانها كانت تعتمد على معتقدات الشعب الدينية . كان الفلاحون قد تحرروا مع الارض : وبذلك انتهى راي الذين نادوا بتحريرهم وحدهم دون تزويدهم بالارض اي بتحويلهم الى بروليتاريا ، الى الفشل . ولكن الفلاحين رغم امتلاكهم للارض ، ظلوا بلا تنظيم ومستائين . وبقي تكنيك الاقتصاد الزراعي كما هو على حالته البدائية . وبعد ان ترك امر استغلال الارض للفلاحين وحدهم فانها لم تكف لاطعامهم . فما برحوا تعساء في ظروفهم ومهانين في كرامتهم الشخصية . ولسوف تبقى روسيا في جوهرها ، حتى ثورة ١٩١٧ مقاطعة ارستقراطية، يستمر فيها كبار رجال الدولة اسياد الضياع الواسعة. وظلت الاخلاق في روسيا اقطاعية: بحيث ان الاصلاحات رغم اهميتها الحقيقية ، لم تخلق سوى الساخطين وبعد التحرير تزودت الشعبية والاشتراكية الزراعية بموضوعات جديدة . وكان تطور الصناعة الرأسمالية قد اخذ ينتشر في روسيا ، واخذت البورجوازية تنمو فيها على نطاق ضيق وكان المزارع الكبير يتحول الى بورجوازي . وكانت معرفة ما اذا كانت روسيا يجب ان تتجنب مرحلة الرأسمالية تظهر مشكلة الساعة اكثر من اي وقت آخر ، واصبحت اشد المشاكل حدة .

اننا لا نجد وجها اكثر تميزا من وجه نيتشاييف Netchaev العبوس ، المضطرب، للتعبير عن الاتجاهات المتطرفة في الستينات . كان نيتشاييف مؤسس الجمعية الثورية **القاس او عدالة الشعب** ووضع تعاليمها الثورية Catéchisme revolutionnaire وهي وثيقة مفيدة ، غاية الفائدة ولا شك في انها فريدة في نوعها . فمبادىء الزهد الالحادي التي تجد في هذه الوثيقة اشد ما يعبر عنها من التطرف ، هي القواعد نفسها التي ينبغي على الثوري الحق ان يهتدي بها ويسيّر حياته على خطاها . وكتاب نيتشاييف التعليمي لا يزال هو تعاليم الزهد الاورثوذكسي مقتبسة لاتجاه آخر ، فضلا عن انه يستعير من اليسوعية Jesuitisme بعض ملامحها ــ كاسحق السوري الذي يكون في الوقت نفسه للاشتراكية الثورية شبيها بما كانه اينياس دي لويلا Ignace de Loyola لليسوعية . كان نيتشاييف متعصبا ، واثقا حتى الهوس ، بنفسه . تشبه بنيته النفسية ، نفسية الانشقاقيين القدماء Raskolniks : فهو على استعداد لحرق جاره ولكنه على استعداد لان يلقي بنفسه في النار ، في كل لحظة . وقد بعث الخوف في الناس جميعا . فابتعد عنه الاشتراكيون والثوريون على اختلاف الوانهم واعتبروا انه يعرض الثورة للخطر . حتى

باكونين نفسه سوف ينكره . وهكذا قدم نيتشاييف ورفاقه النموذج الكامل لدوستويفسكي في تأليف روايته **الشياطين** (١) وخاصة مقتل الطالب ايفانوف بأيدي اتباع نيتشاييف لاشتباههم في انه يخونهم ، فانه اوحى للكاتب بحادثة موت شاتوف . ولا شك في ان بطرس فيرهوفينسكي لا يشبه نيتشاييف الا قليلا ويعطي انطباعا اقرب الى الصورة الكاريكاتورية الا ان الشخصية التي خلقها دوستويفسكي تحتوي على حقائق نفسية عظيمة. وقد تكشف نيتشاييف ، في **تعاليمه** عن انه متصوف الى حد ما . بيد انه امر هام جدا بالنسبة لنا ان نتحققمن ان تصوره لتكوين حزب مركزي الى ابعد حدود المركزية تصدر فيه الاوامر جميعها من فوق ، يمت بالقربى المتينة للبولشفية . كان يريد ان يغطي روسيا كلها بخلايا ثورية صغيرة مزودة بتنظيم حديدي تملك جميع السلطات للعمل من أجل تحقيق اهدافها . فقد انكر نيتشاييف الديموقراطية . وكان يرى ان تقاد الجماهير التي يزدريها والتي يقودها الى الثورة ، من فوق وهذا ما يصف به الثوري: «فالثوري هو انسان مطبوع . ليس له مصالح ولا اعمال ولا مشاعر شخصية ولا صلات ولا شيء يمكن ان يكون خاصا به ، ولا حتى الاسم . فكل شيء فيه قد سُدّد باتجاه مصلحة واحدة فقط وفكرة واحدة وهوى واحد : الثورة» (٢) . لقد قطع الثوري صلاته بالحياة المدنية ، وبالعالم المتمدن وبالاخلاق التي تحكم هذا العالم . وهو يواصل حياته في هذا العالم لكي يهدمه بل يجب عليه الا يعجب فيه حتى بالعلم . اذ ان العلم الوحيد الذي يعرفه هو الهدم لان كل ما يخدم الثورة يكون اخلاقيا في نظر الثوري: وهذه اقوال سوف يرددها لينين فيما بعد . وبالتالي فان كل ما يمنع الثوري من تحقيق هدفه يجب ان يحذف من الوجود ومن لا يزال يتعلق بشيء على الارض لا يستحق لقب الثوري الحق . وفي راي نيتشاييف ان العضو المؤمن catéchumène ينبغي عليه ان ينفذ الى خفايا البوليس وان يدخل عملاءه الخاصين الى صفوفه . ويحاول تنمية الآلام والمظالم لكي يحسن استثارة سخط الجماهير . وعلى هذا الثوري ان يتحد بقطاع الطرق فهم الثوريون الحقيقيون . اذ ان المقصود هو حشد العالم بأكمله

---

١ ــ وهي الرواية التي ترجمت الى الفرنسية بعنوان Les passédés المسون .

٢ ــ انظر مجموعة الوثائق حيث تجد بينها التعاليم الثورية Catéchisme revolutionnaire لنتشاييف في كتاب بعنوان : مراسلات ميشيل باكونين مع الكسندر هرزن وأوغارييف ١٨٩٥ .

في قوة هدم واحدة لا تقهر . وهكذا فان هذه التعاليم الثورية تقتضي من المرء ان يخلع من العالم وتقتضي منه عملا مستميتا ، موجها الى هدف أوحد وتقتضي منه تقبل الالم والتعذيب وان يكون دائما مستعدا لتحملهما . الا ان بسيكولوجية هذه التعاليم تبقى غامضة ، لانه لا يكون للانسان مقابل قيامه بعبء هذا الدور كما هو الحال في كنف المسيحية ، ايمانه في النعمة الالهية ، وفي الحياة الابدية . ومع ذلك فان الفضائل التي تقتضيها هذه الثورة في نكران الذات هي الفضائل المسيحية الا انها موجهة الى غايات اخرى . ولكن المسيحية ، على العكس ، لا تقبل الجريمة ولا العنف باسم النصر النهائي .

لقد انتقلت بعض الملامح التي تميز بها زهد نيتشاييف الى شخصية دزيرجنسكي Dzerjinski الثوري ، في ايامنا هذه وهو الذي أوجد البوليس السياسي السري ، التشيكا Tcheka وكان محركها الرئيسي . وكان دزيرجنسكي رجلا متعصبا ، مستعدا لتسخير جميع الوسائل من اجل تحقيق الاشتراكية . ولا شك في انه عمل على ان يتحمل آخرون آلاما مبرّحة . اذ كان رجلا قاسيا ولكنه فيما يتعلق به رضي مقدما بتضحية نفسه فقد قضى خمسة عشر عاما في الاشغال الشاقة وفي صباه وشبابه كان كاثوليكيا يتقد حماسا ، بل اعد لكي يكون من الكهنوت ، فكانت هذه الفترة هي المدرسة التي شحذت طاقاته . وهي حالة مر بها كثير من الثوريين .

بيد ان الشيوعيين قد لطفوا من قسوة تعاليم نيتشاييف بعد ان تركت آثارا قوية في عقيدتهم ، وهي في ايامها الاولى . اذ كان لا بد لهم ، بالضرورة ، كأسياد للحكومة عاكفين على البناء لا على الهدم، من ان يتطوروا نحو اشكال اقل تطرفا ومع ذلك فقد غدا البعيد ، هو المهم في نظرهم ، دائما، وليس القريب. والعالم في نظرهم ينقسم دائما الى معسكرين، وكل شيء مسموح به في احد المعسكرين ضد المعسكر العدو . وقد قضى نيتشاييف نفسه عشرة أعوام في سجن الكسيفسكي في ظروف مريعة. فلم يتوقف فيه لحظة عن النضال عاملا على تحويل حراسه ، بفضل دعايته الى عملاء لفكرته ، وكان يتصل بواسطتهم بحزبه الشعبي ويرسل اليه نصائحه. والحقيقة انه كان رجلا يملك طاقة فريدة حقا ، ولكن انتصاره لم يكن في مقدوره ان يحمل شيئا من الخير .

كانت الفوضوية ، كالشعبية والعدمية ، علامة مميزة من علامات النفس الروسية . والشعب الروسي كان شعبا يتقبل تدخل الدولة في شؤونه الاقتصادية ، وقبل بأن يستخدم اداة لبناء دولة عظيمة . بيد انه ، هو في نفس الوقت يجنح الى التمرد والى الاضطرابات . والعنصر الديونيزي (١) الذي ينطوي عليه الشعب هو عنصر فوضوي يجسده الشعب في امثال ستينكارازين Stenka Razine وبوغاتشيف Paugatchev وهما شخصيتان ما برحت ذكراهما حية في صميم الشعب .

وقد اشبع الفكر الروسي ، بدوره ، بهذا العنصر الفوضوي في القرن التاسع عشر : فقد راينا الى اي حد كانت الانتليجنسيا منفصلة عن دوائر العمل الحكومية . وكانت كلمة «هم» ، «الآخرون» ، تدل في احاديثها على الرجال الموجودين في السلطة، اما كلمة «نحن»، الانتليجنسيا، فاننا نعيش في مستوى مختلف تمام الاختلاف . ومثل هذا الاتجاه يلاحظه الانسان حتى لدى ذوي النزعة القومية (السلافوفيل)، رغم ما يقدمونه من تأييد للملكية المستبدة . فكونستانتان اكساكوف Constantin Aksakov كان فوضويا حقيقيا : اذ تذكرنا فقرات من كتاباته بباكونين . ووجود العنصر الفوضوي لدى دوستويفسكي امر لا شك فيه . لذلك لم يفقه الشعبيون الروس اهمية وجود الدولة ابدا ، ولم تخطر ببالهم قط مسألة الاستيلاء على السلطة . وهذا هو ما دعا ياروسلافسكي Iaroslavski الى لومهم في كتابه **تاريخ الحزب الشيوعي** (٢) فان المستقبل المثالي يتمثل في ذهنهم دون اية حكومة : فالحكومة تنتمي الى الحاضر البغيض .

والامر الغريب هو ان يكون رجال ينتمون الى الفئات العليا من طبقة النبلاء هم الذين انشأوا هذه الايديولوجية في روسيا ، وان تكتسب الفوضوية الروسية بسرعة كبيرة قيمة اوربية فيكون رجال من الاعيان كباكونين والامير كروبوتكين Kropotkine والكونت تولستوي ، هم

---

١ ـ نسبة الى ديونيزوس Dionysos احد آلهة اليونان القدماء وهو باخوس نفسه اله الخمر . تقام له احتفالات في ايام معينة من السنة . فيما بعد ولاسيما بعد نيتشه اصبحت هذه الصفة تشير الى حالة نفسية وفكرية معينة . ـ المترجم ـ

2 — G. E. Iaroslavski, Aus der Geschichte des Komm. Partei der Sowiet Union. Erste Teil.

مؤسسي الفوضوية العالمية في نهاية الامر . وفي هذه الحركة تأخذ شخصية باكونين الموقع الرئيسي : كان وليدا فريدا وغريبا لارستقراطية بلاده ، فقد بدا هذا الطفل العملاق ، الذي يتقد دائما حماسا لاشد الافكار الثورية تطرفا وهذا الروسي الذي تجتذبه الرؤى ، العاجز عن النظام وعن التفكير المنهجي ، كانه ستنكارازين طبقة النبلاء . وكان في نفس الوقت لا يزال من رجال الاربعينات ، صديق بيلنسكي وهرزن واصحاب النزعة القومية ومثاليا وهيجليا معا . ومع ذلك لم يكتسب اهميته ــ واهميته الاوروبية ــ الا في الستينات بل وفي السبعينات . وقد شارك بصفته مهاجرا في جميع الثورات . وقاتل ضد ماركس في الاممية الاولى حيث كان يريد ادخال مبدأ فوضوي هو اللامركزية والنظام الاتحادي . ففي البداية ، كانت العلاقات الشخصية بين الرجلين حسنة : بل يبدو ان تأثير باكونين على ماركس قد ظهر في عقيدته بدعوة البروليتاريا للقيام بحمل رسالة الخلاص في العالم (١) وسرعان ما اصبحا عدوين لدودين . يرى باكونين في ماركس ممجدا للدولة وداعية للجامعة الجرمانية . ولم يكن باكونين يحب الالمان ابدا وكان يفضل عليهم الشعوب اللاتينية . فقد اعطى احد كتبه في ايام شبابه هذا العنوان : **امبراطورية السوط الجرمانـي والثورة الاجتماعية** (٢) . كان باكونين متشبعا بتأثير اصحاب النزعة القومية ، فان ايمانه في رسالة التحرير messionisme revolutionnaire الثورية هو قبل كل شيء ايمان برسالة تحرير روسية ــ سلافية ، وفي رايه ، ان نيران الثورة العالمية سوف يشعلها السلاف . وجعلت منه رسالة التحرير الثورية ورسالة التحرير الروسية ممهدا للشيوعية . وهو القائل: «الميل للهدم ميل خلاق» . كانت فوضوية باكونين تمردا . فقد اراد اثارة انتفاضة عامة ، عالمية ، لانه اعتقد انه من بين اطلال العالم العامة لانه اعتقد انه من بين اطلال العالم القديم ينشأ ، تلقائيا ، عالم جديد . ولذلك اتجه الى العامة والى الرعاع لقناعته بأن العامة اذا ما هبت للثورة ، بعد ان تحطم جميع اغلالها ، وتنبذ التاريخ والحضارة فانها ستخلق حياة حرة وافضل . وأراد استخدام هذه القوة حتى آخر مدى فيها . وكان ينتمي

---

١ ــ انظر كتاب كورنو الآنف الذكر .

٢ ــ Knauto-germanique وكلمة Knaut في الاصل تفيد نوعا من السياط وهو في روسيا ينتهي بعدة شعب وبعقد فيها مسامير . ــ المترجم ــ

الى الشعبية ، في نطاق ايمانه بالحقيقة المستترة في اعماق جماهير الشعب العامل الغامضة ، وفي الشعب الروسي بصورة خاصة ، الذي يدعوه شعب التمرد اما ماركس فقد كان رجل فكر يعلق اهمية رئيسية على النظرية وعلى العلم وعلى الفلسفة ، ولم يكن يعتقد بالسياسة التي تستند على الاسس الانفعالية : والدور الحاسم ، في رايه منوط بالتنظيم الواعي. وكان باكونين على العكس انفعاليا صرفا ، عدوا لكل عقيدة قائمة على الفكر. وهو يحذر من العلم ويكن بغضا خاصا لسيطرة الاساتذة ، لانها تجسد في نظره مجيء «الاشتراكية العلمية» الى السلطة ، وكانت كل سلطة مشبوهة لديه ايا كان مصدرها . وكان مثله الاعلى الوحيد هو هذا التيار الثائر ، هذا التيار «البوغاتشيفي» و«الرازيني» الذي يجري في الشعب الروسي ، والذي استفاد منه البلاشفة ، بالرغم من نظريتهم الماركسية ، في المرحلة الاولى من ثورتهم . كان لافرون احد الايديولوجيين الداعين الى الاشتراكية الثورية في السبعينات يريد تعليم الشعب ، آملا ان تتولد الثورة من هذا التعليم . اما باكونين ، من جهته ، فقد اراد دفعه الى التمرد . كان لا يؤمن الا في القوة والا في حقيقة الاندفاعات غير المنتظمة. وفي رايه ان النور ، يجب ان يشتعل في الشرق ويأتي لينير الغرب الغارق في دياجير البورجوازية وقد تبنى موقدو نار الثورة الكبرى جانبا كبيرا من هذه الموضوعات على الرغم من ماركسيتهم . ولكن باكونين كان واضحا اكثر في تعبيره : فهو يعدد ثلاث مبادىء للتطور الانساني : ١ـ الانسان الحيوان. ٢ـ الفكر. ٣ـ التمرد . وهو يعارض ما هو منظم بالتمرد ويضعه في مرتبة اعلى . ويرى في ماركس يعقوبيا (١) ولم يستطع باكونين ابدا تحمل روبسبيير ولا المذهب اليعقوبي عامة . فاذا كان باكونين شيوعيا فانه شيوعي عدو لتمجيد الدولة وفوضوي . واذا كان مقتنعا بأن السلاف Slaves لا يستطيعون ، هم انفسهم ، تشكيل دولة ، فقد اقام على هذا اليقين عقيدته في رسالة الحركة السلافية. فالنزعة الى تمجيد الدولة ترجع في جوهرها الى التأثير الالماني ، ويقول : اذا كان لا بد للماركسية من

---

١ ـ Jacobin نسبة الى نادي اليعاقبة في فرنسا الثورة ، الذي التأم شمل اعضائه الثوريين منذ عام ١٧٨٩ دفاعا عن لجنة السلامة العامة وروبسبير . واغلق النادي عام ١٧٩٤ . وهي صفة تطلق سياسيا على المتحمس للديموقراطية ، كما يوصف بها الثوري المتحمس . ـالمترجم

ان تتحقق في بقعة من بقاع العالم فسوف تكون طغيانا مرعبا . وهكذا كان لبعض تكهنات باكونين رجعا تنبؤيا .

كان الحاد باكونين اشد ميلا الى المناوأة ، واكثر قسوة وتشددا من الحاد ماركس لسبب يعود الى مزاجه المتطرف . كان ماركس رجل فكر ، والكفاح ضد الدين كان يعود الى نزاع بين تصورين للوعي . فباكونين رجل انفعالي والحاده يوحي بأنه معركة تدار ضد الله ، معركة آلهة ، اكثر منه انكارا لفكرة الله بوصفها باطلة وضارة . وهكذا تظهر الحجج المارسونية Marcionistes من جديد لتلعب دورها ، وهي التي سبق ان كشفنا عنها في اصول الالحاد الروسية . ومن أهم مؤلفات باكونين كتابه الذي يعطيه هذا العنوان : **الله والدولة** . فالدولة ، في نظره ، كانت دواما ، على مدى تاريخ العالم منبع جميع الشرور ولإستعباد الانسان والشعب . والدعامة الرئيسية للدول كانت هي الاعتقاد بالله . فكل واحد اعلن انه يستمد سلطته من الله وهذا يعني في نظر باكونين انه يستمدها من الشيطان . ذلك ان الله في رأيه هو الشيطان نفسه ، صاحب السلطة المطلقة التي يمارسها الانسان على الانسان وسبب العبودية والاضطهاد . فـ«اذا وجد الله اصبح الانسان عندئذ عبدا» . اذ ان فكرة الله هي نفي للعقل الانساني وللعدالة وللحرية والله يثأر لنفسه . ذلك ان جميع الاديان قاسية . والمادية وحدها ، هي المثالية عمليا اما في الدين ــ وفقا لفكرة فيورباخ التي رددها ماركس فيما بعد ــ فان الالهي يرفع الى السماء ولكن ما هو حيواني غارق في الحيوانية يمكث على الارض . وعلى عكس بيلنسكي ، تحدث باكونين عن المسيح بعبارات عنيفة ، قائلا : انه كان يجب ان يقتاد الى السجن ، كشخص خامل ومتشرد ... فالفرد الذي يوهب روحا حرة وخالدة هو كائن معاد للمجتمع (١) فان روحا خالدة لا تكون ضرورية للمجتمع . فالمجتمع هو الذي يولد الفرد ، وهو منبع الاخلاق . وعلى عكس فوضوية ماكس ستيرنر ، ان فوضوية باكونين هي ضد الفردية ، انها جماعية وشيوعية . فهو ينكر الشخصية وقيمتها المستقلة واستقلالها الذاتي . وهو يختلف هنا ايضا مع برودون . فما يدعو اليه ، هو شيوعية فوضوية ، ولكنها ليست شيوعية كروبوتكين الفوضوية ايضا التي تتسم بألوان عاطفية من التفاؤل . ولكن شيوعية باكونين تصطبغ بعلامات التدمير

---

١ ــ باكونين ، امبراطورية السوط الجرماني والثورة الاجتماعية ، ١٩٢٢ .

القاتمة وبالتمرد على كل شيء ، وخاصة على الله . والكنيسة ، في نظره، تساوي الحانه . وكان يصيح قائلا : ليت الثورة تستطيع مرة ، امتلاك القوة لاغلاق جميع الحانات وجميع الكنائس معا» . وقد ذهب الحاد باكونين النضالي هنا الى ابعد مما ذهب اليه إلحاد الشيوعيين الروس النضالي ، طالما ان هؤلاء الشيوعيين الذين كانت الماركسية تمارس تأثيرها الفكري عليهم ، لم يغلقوا ابواب الكنائس كافة .

غير ان باكونين يبقى في ذلك ممهدا لهم . فقد استخدمت الشيوعية، لغايات التدمير ، ما دعا اليه من فوضوية ومن تمرد . وكان الامر ، على عكس ذلك ، في الجانب البناء والتنظيمي من عملها حيث قلّما نجد اثرا لباكونين ، لان باكونين ، من حيث المبدأ ، كان لا يعرف التنظيم ولا يريده. وكان موقف باكونين من العلم ومن الانتليجنسيا موقفا عدائيا ، كما كان موقف نيتشاييف ، وقد نفذت هذه الفكرة المسبقة كذلك الى الثورة الروسية .

ثمة تيارات أخرى من الفكر الاشتراكي والثوري اذا ما قورنت بتطرف باكونين ونيتشاييف تبدو معتدلة . فان تأثير أوغست كونت والنظرية الوضعية ، نظرية ستيوارت وسبنسر والكنتية ـ الجديدة ، قد جرى في الفلسفة على حساب المادية المحضة . وكانت الحركة النفعية الفظة تعاني تقهقرا كما كانت مواقف العدمية المغالية بصورة عامة . وكسبت نظريات برودون الاجتماعية اتباعا . وسرعان ما بدأ التعرف على ماركس . ولكن لافروف وميخائيلوفسكي كانا هما القائدين الحقيقيين للعقول في صفوف الانتليجنسيا في السبعينات والمدافعين عما ندعوه بعلم الاجتماع الذاتي ، اي العلم الذي يرى انه لا مندوحة من اضفاء قيمة اخلاقية على الظاهرة الاجتماعية . وقد دافع كل منهما بطريقته الخاصة عن الشخصية الانسانية دون تفريق بينها وبين الفرد . وكانت اشتراكيتهما ، على منوال اشتراكية هرزن تتسم بالطابع الفردي . والتنظيم الاشتراكي للمجتمع ضروري لكل فرد باسم حياته الكاملة . واعلن ميخائيلوفسكي «المعركة من اجل الفردية» وشيد نظرية للصراع بين الشخصية والمجتمع المبني وفقا لنموذج عضوي. ويعد لافروف وميخائيلوفسكي ايديولوجيين نموذجيين ويحتلان كفيلسوفين اعلى مركز في صفوف الانتليجنسيا اليسارية. الا ان ضعفهما يكمن ، على وجه الدقة ، في وضعهما الفلسفي ، اي في تلك النزعة الوضعية السطحية التي منعتهما من ان يدعما بالفلسفة مبادىء الشخصية التي سوف تكون الاساس الحقيقي لنظريتهما الاجتماعية . وظل الشخص،

في نظرهما، من خلق المجتمع والوسط الاجتماعي . وبالتالي ، فأين تجد هذه الشخصية قوة الكفاح لمحاربة مجتمع يريد ان يجعل منها فقط اداته ووظيفته . وقد نال لافروف شهرته عن طريق **رسائله التاريخية** التي كانت بمثابة انجيل الانتليجنسيا الشعبية في السبعينات . فهو يعرض فيها مسألة الندم ، او الخطأ الذي ارتكبته الطبقات المثقفة بحق الشعب وضرورة التكفير عنه . ونجده يطرح من جديد مسألة قيمة التقدم وقيمة الثقافة، وهي قضية الروس التقليدية . ولكن لافروف كان كميخائيلوفسكي على السواء ينتمي الى تلك الفئة من المفكرين الشعبيين الذين يهمهم مصالح الشعب لا آراؤه .. فالافكار ، في رأيهم حكر على الانتليجنسيا . وعلى هذه الانتليجنسيا ان تخدم الشعب وان تعمل على تحريره ولكن عليها ايضا ان تحتفظ ازاءه باستقلالها الفكري . وهي حالة فكرية لخصها ميخائيلوفسكي في الصيغة التالية : «اذا الشعب الثوري اقتحم غرفتي بقصد تحطيم تمثال بيلنسكي النصفي وتدمير مكتبتي فانني سوف أكافح ضده حتى النقطة الاخيرة من دمي» .

لقد تنبأ في هذه الفكاهة الحية ، بالوضع الذي سوف تجد نفسها فيه انتليجنسيا اليسار المتطرف وهي تكافح من اجل الثورة . والحق ان ميخائيلوفسكي اقل تمهيدا للشيوعية من اي شخص آخر ، اقل من بيلنسكي ومن تشيرنشفسكي او باكونين ، وهو بهذا القدر الضئيل أشبه بهرزن . بيد انه يمثل وجها آخر للتصور الاشتراكي . فأما تحطيم تمثال بيلنسكي النصفي فان الشعب الثوري يريد القيام به بمقدار ما يشعر انه مشبع ببعض افكار بيلنسكي نفسه : وبهذا التناقض تتضح لنا حقيقة مفارقة الفكر الروسي .

لقد شهدت السبعينات انتشار موجة عريضة من الشعبية وميلاد ذلك الشعار الغامض «العودة الى الشعب» ولم يكن هذا الاتجاه ، منذ البداية، ليبدو ثوريا . كان اعضاء الانتليجنسيا يرغبون في ان يتشيّعوا للشعب وان يخدموه في تحقيق مصالحه وحاجاته اليومية . ويريدون له «الارض والحرية» ، وتمشيا مع هذه الاهداف ، انشأوا حول حركة «الارض والحرية» تنظيما سريا واسعا ، ولكن ما منيت به هذه التجربة ، التي تكشفت عن كثير من نكران الذات وقدر عظيم من روح التضحية ومن الايمان ومن الامل وبالتالي عن نبل عظيم ، من اخفاق يرجع بالطبع الى ما اصطدمت به من قمع الحكومة وعسفها . ومع ذلك فليس هذا هو السبب الوحيد في اخفاقها . فمأساة الحركة الشعبية تكمن قبل كل شيء في ان

الشعب نفسه لم يكن يفهم مرامي الانتليجنسيا وانه كان يخذل هؤلاء الرجال الذين كانوا يرغبون رغبة شديدة في مساعدته ، فيتخلى بنفسه عنهم لأيدي السلطة . ذلك ان الشعب ـ وتشمل كلمة شعب في جزء كبير منهـــا الفلاحين ـ كان غريبا عن تصور عالم المفكرين ، كان لا يزال متدينـــا وارثوذكسيا وعدم ايمان الآخرين بالدين كان يعمق الهوة بينـــه وبينهم . لهذا راى الشعب في شعار «المجيء الى الشعب» في شعار «القدوم الى الشعب» الذي رفعه الشعبيون ، نزوة ترف من نزوات النبلاء . وكانت الحالة الراهنة تطرح على وعي الانتليجنسيا مشكلة سياسية لا بد لها من ان تقودهم الى اعداد مناهج اخرى للمعركة .

- ٣ -

كان تكاتشيف Tkatchev (١) منظرا ، عظيم الاهمية «للثورة في السبعينات ، ينبغي ان نعتبره ـ اكثر من اي واحد آخر ممهدا للينين . كان يصدر وهو في الخارج الصحيفة الثورية **«الناقوس»** ، تعبر عن اشد الميول تطرفا : وكان اول من تحدث الى الروس عن ماركس. وفي عام١٨٧٥ وجه رسالة الى انجلز اشار له فيها الى ما يجب ان تتبعه روسيا من طرق خاصة بها والى ما تتميز به ثورتها التي توشك ان تندلع من طابع خاص بها والتي يمكن تطبيق مبادىء الماركسية عليها ، تطبيقا دقيقا . ولا ينبغي ان نفهم من هذا ان تكاتشيف يعارض في اقامة الماركسية من وجهة نظر القضايا الشعبية ، فلم يكن هو نفسه شعبيا سلفيا . وفي قرارة نفسه لم يكن مؤمنا بالشعب . الا انه ينكر ان يتطلب التطبيق الحرفي للماركسية في روسيا على التوالي ، تطور الرأسمالية ، والثورة البورجوازية ، ثـم الدستور ، الى آخر ما هنالك من أمور . وهنا يبرز الاختلاف النوعي الذي يفصل لينين عن بليخانوف . كان تكاتشييف لا يريد ان يقر بتحويل الدولة الروسية الى دولة دستورية وبورجوازية . بل كان يرى ، على العكس ان فقدان التطور البورجوازي مزية لبلاده لا يمكن انكارها ، وتأكيد على امكانية

---

١ ـ انظر بليخانوف ، خلافاتنا ، وكذلك منتخبـــات تكاتشيف ، جزء رابـــع ، موسكو ١٩٢٣ .

الثورة الاجتماعية فيها . والشعب الروسي شعب اشتراكي بالفطرة . ولم يكن تكاتشييف ديموقراطيا ابدا ، فقد اكد كثيرا على سلطان الاقلية على الاكثرية . ووصف بأنه يعقوبي دون ان يكون هذا الوصف منطبقا عليه كل الانطباق . فالمذهب اليعقوبي شكل من اشكال الديموقراطية . على حين اننا نجد تكاتشييف اشتراكيا قبل كل شيء الا ان اشتراكيته ليست من النوع الديموقراطي ، وهي تتفق مع اشتراكية لينين والشيوعيين . وكان عدوا للحركات الشعبية : «الارض والحرية» و«التوزيع الاسود» للارض لان هذه الحركات تنكر الكفاح السياسي . وموقفه من هـــذه التشكيلات ينبيء منذ ذلك الحين بموقف لينين ممن يدعون بال«اقتصاديين» الذيـن كانوا يطرحون امام الطبقةالعاملة مسائل اقتصادية بحتة، تاركين للتحرريين زمام المبادهة في المعركة السياسية . بل على العكس يظهر تكاتشيف ، في تاريخ التيارات الثورية الروسية ، ممهدا لتلك الحركة المعروفة بـ «حرية الشعب» التي كانت ، بخلاف الحركات السابقة ، تطرح حل المشكلـــة السياسية لسقوط الحكم الاستبدادي عن طريق الارهاب . وحزب «حرية الشعب» يظهر انتصار تكاتشييف على لافروف وعلى باكونين . وقد كان تكاتشييف ، قبل لينين ، منظرا للثورة. وفكرته الاساسية كانت الاستيلاء على السلطة من قبل اقلية ثورية . وللوصول الى هذه الغاية ، كان المطلوب هو تفكيك نظام السلطة القائمة بواسطة الارهاب . وفي رايه ان الشعب مستعد دائما للقيام بالثورة لان دوره ينحصر فقط في ان يكون اداة لهذه الاقلية الفعالة . كذلك لا فائدة من التمهيد للثورة بتربية الجماهير او بأية دعاية من الدعايات . ذلك ان تكاتشييف ، عدو لدود لفوضوية باكونين . لذلك يبدو له تدمير الدولة حماقة ما بعدها حماقة . وعلى العكس ايـــد ضرورة تحويل المؤسسات الرجعية الى مؤسسات ثورية ، بعبارات تكاد تكون العبارات نفسها التي يستخدمها لينين فيما بعد وكانت ديونيزيـــة باكونين الفوضوية غريبة تماما على تكاتشييف . انهما على طرفي نقيض : فباكونين يحذف كل تنظيم من عمله السياسي بينما يؤيد تكاتشييف تنظيم تلك الاقلية الثورية المناط بها الاستيلاء على السلطة . فهو واحد مـــن الثوريين الروس القلائل ، القدماء ، بل ربما كان هو الوحيد الذي اولـى موضوع الحكم والاستيلاء عليه وتنظيمه عنايته البالغة . كان يريد مـــن الحزب الاشتراكي الثوري ان يكون حزبا للحكم وفي هذا وجه الشبه بينه وبين لينين وكان تصوره لهذه الحكومة الاشتراكية الثورية يكاد يقوم على الاستبداد . فقد كان سيهدم الماضي بيدين أقل رحمة من يدي الزعيـــم

البولشفيكي . ولكن الايام لم تكن قد نضجت بعد بالنسبة له . فلم تحظ افكار تكاتشييف بشعبية كبيرة في الوسط الثوري . ذلك ان ارادة القوة التي دعا اليها كانت تخالف مخالفة كبيرة انعطافات الاشتراكية الشعبية في عصره .

لقد شن بليخانوف ، مؤسس الماركسية الروسية والديموقراطية ـ الاجتماعية حملة شعواء منذ الثمانينات على افكار تكاتشييف . وكانت هذه الحملة احد المواضيع الرئيسية في كتابه : **خلافاتنا** . ويقدم لنا هذا الجدل فائدة عظيمة في الحقيقة اذ نخال فيه اننا نسمع بليخانوف يجادل لينين والبولشفيك ، قبل ان يوجدوا وقد كافح استيلاء الحزب الاشتراكي على السلطة كفاحا عنيفا . واعتبر احتمالا كهذا نذير شؤم من شأنه ان يحمل في طياته ردة فعل مباشرة . كذلك عارض بليخانوف نزعة باكونين الفوضوية ودعوته الى التمرد . ذلك انه في حقيقته ـ غربي وعقلاني ، ومن اتباع الاستنارة والتطور . لذلك كانت موضوعات روسيا اللاعقلانية غريبة عنه . فقد دافع عن العلم والفلسفة ضد ما دعا اليه باكونين وتكاتشييف من ابقاء الشعب على جهله . ولم يقبل بليخانوف الموافقة شأن جميع الماركسيين ـ المنشفيك فيما بعد على ان لروسيا قدرا خاصا تتميز به وطرقا اصيلة انفتحت امام ثورتها . وهذا ما اخطأوا فيه بالتأكيد . وكان تكاتشييف اقرب منهم الى الحقيقة ، عندما رفع راية نظرية ثورة اجتماعية روسية تتم خارج نطاق الاشكال الغربية وهذه المسألة تعتبر في الحقيقة المسألة الرئيسية ، في الفكر الروسي بأكمله ـ هل يجب على روسيا ان تتعرض لتجربة التطور الراسمالي وتجربة السيطرة البورجوازية ، وهل يجب ان تقتصر على تمثيل النظريات الماركسية دون ان تنظر بعين الاعتبار الى مصائرها الخاصة ؟ كان تكاتشييف هنا على حق في معارضته لانجلز. ولم يكن انتصار حججه انتصارا للشعبية على الماركسية بل كان الانتصار التاريخي للبولشفيك على المنشفيك ، وانتصار لينين على بليخانوف . اذ ليست الثورة الشيوعية هي التي تكشفت اخيرا عن انها طوباوية ، بل على العكس فان الثورة التحررية والبورجوازية هي التي كانت كذلك . كان ماركس لا يحب الروس ابدا ولا يستطيع تحمل باكونين . قليلا ما يتذوق هرزن ، وفي موقفه من الروس يستطيع الانسان ان يشتم رائحة الامبريالية الجرمانية الشاملة . ولكنه كان يعلق اهمية كبرى على الروسيا وعلى امكاناتها الثورية حتى لقد تعلم اللغة الروسية لكي يتابع على نحو افضل مناقشاتها السياسية والاجتماعية . ورسالته الى ميخائيلوفسكي

جد مشهورة (١) . وقد لاحظنا من قبل في اية منزلة من التقدير كان ينزل تشيرنشفسكي . غير ان ماركس كانجلز لم يكن يستشف الا الطابع البورجوازي للثورة القادمة ، وكانا ، يعارضان الارهابيين ، والهجوم الذي يقودونه لتحطيم الحكم الاستبدادي ، وجملة القول انهما كانا ممهدين لمجيء لينين اقل بكثير مما كان تكاتشييف . فلم يفهم ماركس ولا انجلز العملية الخاصة التي كان لا بد للثورة الروسية من اقتباسها ، كانا من «المنشفيك» مهما بذل البولشفيك من جهد لاخفاء ذلك فالـ«بلشفيكي» الحقيقي كان تكاتشييف . كما كان نيتشاييف بولشفكيا ، وكان باكونين بولشفيكيا جزئيا ولو انه نبذ السلطة والتنظيم . وكانت السبعينات قد شهدت نشأة تلك المناقشات التي سوف تجعل الماركسيين الروس ، في التسعينات على خصام مع الشعبيين وفي بداية القرن العشرين تجعل الماركسيين ـ البولشفيك ضد الماركسيين ـ المانشفيك .

كان مقتل الاسكندر الثاني بناء على أوامر حزب «الارادة الشعبية»علامة النهاية ، وايذانا بتقطيع أوصال الحركة الثورية الروسية التي سبقت تسرب الماركسية . ونهاية هذه المأساة هي التي استخدمت بين الحكم الروسي والانتليجنسيا . وعلى راس هذا التنظيم الارهابي : **ارادة الشعب** التي تدبر اغتيال الاول من مارس عام ١٨٨١ يظل وجه جليابوف Geliabov البطولي . لقد بدأ جليابوف ، الذي ينحدر من الشعب كابن احد الفلاحين، شعبيا وأنكر اهمية الكفاح . الا ان اخفاق حركة الانتليجنسيا في الانفتاح على الشعب ، قاده الى الاقتناع بانه لا بد من ان تكون مهمته الاولى هي تحطيم الحكم الاستبدادي. وكان جيليابوف بعيدا عن ان يكون متعصبا على طريقة نيتشاييف . بل كان أقرب الى ان يكون شخصا مهيأ لحياة كاملة ومنسجمة . كما انه لم يكن ماديا بحال من الاحوال ، بل ربما كان أقرب الثوريين جميعهم الى المسيحية . فعندما القي عليه هذا السؤال في محاكمته : هل هو أورثوذكسي ام لا؟ أجاب قائلا: «عمدت في الاورثوذكسية ولكنني ارفضها ، وان كنت أقر بجوهر تعاليم المسيح . وتحتل حقيقة هذه التعاليم مكانا متميزا بين قناعاتي الاخلاقية . وانا أومن بحقيقة تعاليم هذه العقيدة وصدقها ، واعلنها صراحة على الملأ بأن الايمان بلا اعمال هو ايمان ميت وان كل مسيحي يجب ان يكافح من اجل العدالة ومن اجل حق

---

١ ـ انظر ك. باجيتوف : تطور الافكار الاشتراكية في روسيا ، جـ١ ـ ١٩٢٤ .

المضطهدين والضعفاء ، بل وان يقاسي من اجلهم اذا دعت الحاجة : فهذه هي عقيدتي» وعندما حان تنفيذ الاعدام لثم الصليب . وهذه التفاصيل أربكت مؤرخ حياته الشيوعي فورونسكين Varanskin أشد الارتباك فأراد تفسير تعاطف جليابوف مع المسيحية بارجاعها الى انه كان ينتمي لجيل الشعبيين في السبعينات لا في الستينات . بيد اننا نعتقد بأن سر بسيكولوجيه جيليابوف يكمن في انبثاقه من الشعب : ففي ذلك العصر الذي عاش فيه كان لا بد لرجل مثله تحركه انقى المقاصد وحب العدالة ، من ان يوهب حياته الى تنظيم للاغتيال . هكذا ارادته مأساة الحياة الروسية . ولم يكن جيليابوف بتصوره للعالم ممهدا للبلشفية الا انه كان ممهدا لها بطرائقه في التنظيم وبأفعاله . ويمكن اعتبار تاريخ الثوريين الروس تاريخا للاستشهاد وهو سجل حافل اتخذه الشيوعيون رأس مال اخلاقيا لهم . فقد حطمت القوة التاريخية الروسية نفسها عندما اتاحت مجالا لخلق الشهداء .

الفصل الرابع

الادب الروسي في القرن التاسع عشر
وطبيعته التنبؤية

- ١ -

نلج الآن الى عالم آخر اي جو روحي آخر هو مجال الادب في القرن التاسع عشر الذي يشكل بالنسبة لروسيا اضخم بناء للفكر، اصاب اهمية عالمية . واذا امعنا النظر بكل تدقيق في الموضوع الذي يشغلنا اي في الينابيع التي استقت منها الشيوعية ، صفاتها فاننا نلاحظ سمة اساسية : هو طابعه التنبوئي . فالادب الروسي هو اكثر آداب العالم تنبؤية : فهو طافح بالنذور وبالنبؤات ، جياش بقلق يتوقع كارثة وشيكة . فقد احس كبار الكتّاب الروس في القرن التاسع عشر بأن روسيا كانت على شفا جرف ، وهي على وشك السقوط فيه . وقد عكست آثارهم الباطنية التي تمت والثورة الاخرى الآخذة في الحدوث . وكان القرن التاسع عشر بأكمله ـ وهو اعظم عصور التاريخ الروسي وهو الذي حدد صعودها المبدع ـ هو قرن الثورة التي بدأت تولد . وقد عبر عن الانقسامات والوان الازدواجية التي كانت روسيا مسرحا لها ، بتوتر مفرط في انتاجها الادبي . واذا تركنا جانبا آثار بوشكين فان هذه الحقبة من التجديد التي كانت العصر الذهبي

للشعر الروسي ، لم تتسم بألوان سعيدة من روح النهضة . اولا وقبل كل شيء لم يتحقق التجديد الا في دائرة ضيقة من طبقة النبلاء . ثم سرعان ما انفرط عقد هذه الدائرة الضيقة فاتخذ الادب مسارات مختلفة . فمنذ عصر غوغول تصير غاية الادب العمل على تهذيب الاخلاق والبحث عن الحقيقة والعدالة ووسائل تحقيقهما ولم يتفتح هذا الادب اينما كان في روسيا في اطار من الوفرة والرضا ، بل على العكس تدفق من العذاب ومن مصير الانسان والشعب المؤلم ومن البحث عن خلاص الانسانية . وعلى هذا نكون قد فهمنا موضوعات الادب الروسي الاساسيه على افضل وجه اذ نعتبرها دينية ، وان ما يتميز به من تعاطف وانسانية قد ظهر للعالم بأسره.

لقد لازمت مشكلة الثقافة وما يتعلق بتبرير الشك اذهان الكتّاب الروس ، كما لازمت المفكرين الاجتماعيين . وهذا استعداد لا يفترق عن حالة نفسية كونتها الاورثوذكسية حيث يهيمن عليها انتظار حياة ثانية ، حياة اسمى الى جانب عامل قوي من الزهد . وهكذا غالبا ما نجد غوغول وتولستوي ودوستويفسكي قريبين بسيكولوجيا من بيلنسكي وباكونين وتشيرنشفسكي وبساريف ومن الشعبيين في السبعينات . ولو انهم كانوا معادين للمادية وتحمل كتاباتهم طابعا دينيا . كما انه نادرا ما نجد الغربيين في حالة من الشك بقيمة الحضارة : هذا الشك صاغته ضمائر الروس . فكيف ظهر ؟ فهو لم يظهر لدى الذين لم ينتفعوا بعد بهذه الثقافة وهذه الحضارة ، ولكنه ظهر ، على وجه الدقة لدى الذين بلغوا فيهما اعلى القمم . ولم يكن الكتّاب الروس ، وخاصة اعظمهم ، يؤمنون لا بثبات الحضارة ولا بثبات تلك الاسس التي يرتكز عليها العالم البورجوازي المعاصر . وهم يضطرمون بمعاناة مقلقة لتوقع كارثة ما . وعبثا يبحث الانسان عن مثل هذا الاضطراب الديني والاجتماعي معا في الآداب الاوربية الاخرى ، فانها ترتبط بحضارة اكثر ثباتا واكثر استقرارا واكثر رضى عن نفسها ، واشد هدوءا وكذلك اكثر تنوعا وتحديدا في المقولات . كانت نزعتنا العالمية والكلية من المميزات الروسية سواء في عالم الفكر او في احداثات الحياة . وقد سعى المفكرون الروس ، المبدعون ، الروس الذين يرتبط بهم مغزى روحي ، الى ان يبلغوا ليس ثقافة كاملة ، وان يحققوا آثارا كاملة فحسب بل وان يبلغوا حياة كاملة ايضا من وجهة نظر الحقيقة. وعلى هذا النحو تفسر واقعية الادب الروسي في القرن التاسع عشر التي كثيرا ما استعصت على الفهم . ذلك ان الادب الروسي العظيم لا يصنف الى جانب الكلاسيكية او الرومنسية الاوربية : فهو ينطوي على واقعية

خاصة به ، يجب ان تفهم بمعنى ديني تقريبا وديني محض حتى في بعض عيون هذا الادب . ولكنها واقعية حتى وان كانت تتجـــه الى اكتشاف الحقيقة واعماق الحياة . فهي التي نجدها اكثر رومنطيقية عند غوغول ، واكثر كلاسيكية عند تولستوي . وكلاهما ــ بل ويمكن انطباق هذا القول على جميع الكتّاب الروس ــ عاشا مأساة : هي مأساة الاثر الذي يجب ان يبدعه كل منهما حيال الضرورة الحتمية لتبديل وجودهمـــا الخاص ولتحقيق المثل الاعلى للعدالة فيهما . كان هذان الفنانان العظيمان ، على استعداد ، احدهما كالآخر ، للتضحية بخلق آثارهما الادبية الكاملة من اجل خلق حياة كاملة . ولم يكونا ، بصفتهما كاتبين روسيين ، مقيدين بمعايير الحضارة التقليدية ولذلك نفذا متغلغلين الى سر الموت وسر الحياة. وتولستوي ودوستويفسكي ، تجاوزا جميعا تخوم الفن المعروفة . ولكن بوشكين هو الوحيد في صورته الخلاقة ، الذي مزج بين التصورين : فقد نقل الى الفن معنى حريته ، عاملا على صيانة استقلاله بالنظر الـــى «الدهماء» ــ وهي لفظة لم يكن يقصد بها الشعب بالطبع وانما الوسط الذي كان يعيش فيه من النبلاء والموظفين . وهو في هذا يبقى حالة شاذة .

ولقد اثار غوغول قبل اي كاتب آخر مسألة رسالة الفن الاجتماعية ، وانخراط الكاتب في دور الخدمة الإجتماعية . ومنذ ذلك الحين طالب بما نشرت فكرته الشيوعية من اخضاع الفن للاهداف الاجتماعية ودعتـــه «المطلب الاجتماعي» . ومع ان الكتّاب الروس العظام كانوا معزولين في عصرهم ، متأهبين للوقوف في وجه المجتمع المحيط بهم ، الا انهم لم يكونوا فرديين من حيث المبدأ ، وانما على العكس كانوا يبحثون عن صيغة جماعية للفن تصلح لمجموع الشعب ، اي عن فن عالمي . وكان الادب يؤدي رسالته الاجتماعية في فضحه لمظالم المجتمع القائم وفي بحثه عن هذه الحقيقة وهي رسالة كانت في نظر الكثيرين من حيث توافقها مع بنية الشعب الروسي الروحية نفسها ، رسالة اجتماعية ودينية .

كان الشعر الروسي طافحا بالتنبؤات بالثورة التي تقترب بل كثيرا ما دعا اليها وناداها . وقد دعي بوشكين ، الذي يجب ان نعود اليه كثيرا، بمنشد روسيا الامبراطورية . والواقع ان ثمة ادلة تنهض لاعتباره اكثـــر تعلقا بالدولة بتصوره للعالم ، وأقل انشقاقا عنها من كثير من مواطنيه . لقد احترم بطرس الاكبر ومجد عظمة روسيا . الا ان نشر أشعاره كاملة قد كشف عن ابيات ثورية تضمنتها . بل يمكننا من هذه الناحية ان نجد بين القسم الاول من فعاليته الادبية وبين القسم الثاني اختلافا هائلا ، وهو

اختلاف يمكن قياسه من تقديره لراديتشيف . كان بوشكين في الحقيقة ينتمي الى جيل الديسمبريين الذين كانوا اصدقاءه ، ولكن يبدو ان سحق المعركة قد اقنعه بعدم قدرة الكفاح . وهنا تظهر ازدواجية بوشكين ويبدو ذا وجهين متميزين : وهكذا تعايش فيه حبه لعظمة روسيا وسطوتها وحبه المشبوب للحرية . غير ان هذا الحب المشبوب للحرية يحمل طابعا خاصا فهو ليس الحب الذي سوف يلهم الانتليجنسيا . وبقي بوشكين شاعر الحرية الحقيقي :

« اننا ننتظر بشغف محموم
اللحظة الموعودة للحريات المقدسة
كما يتلهف الشاب العاشق الولهان
الى لحظة لقائه الذي حلم به » .

ويبدو ان العنصرين اللذين كانا منفصلين دائما ، احدهما عن الآخر في روسيا قد اجتمعا في بوشكين : ايديولوجية الامبراطورية وايديولوجية المفكرين . فقد وصف نفسه على هذا النحو :

« اريد ان اكون محبوبا بعد ان أوارى التراب
وان تستيقظ قيثارتي على الانغام الاخوية» .

ويصف الشاعر في قصيدته ، **ريف** ، سحر وشاعرية الريف الروسي ولكنه يتذكر فجأة ، الظلم والعبودية ، وظلام الجهل والضلال ، التي يرتبط بها سحر هذه الحياة الريفية التي لا وجود لها في الحقيقة الا من اجل اقلية مميزة . وتنتهي القطعة بهذه الابيات :

«هل ارى ايها الاصدقاء ، معتقا من نير ما زال يجره حتى الآن
الشعب الذي تحرره ايدي الاباطرة
وعلى بلادنا المستحمة بتلك الاضواء
هل ارى بزوغ ذلك الفجر الفاتن ؟»

بيد ان قصيدة بوشكين : غليان هي اكثر تمييزا ايضا لميوله الثورية :

«أريد ان امجد حرية العالم ،
واصب اللعنة على عرش الملوك»

وتحتوي القصيدة نفسها على كلمات عنيفة موجهة الى القياصرة :

« ايها المستبد الاثيم
انني امقتك ، انت وسلالتك
واشهد بفرح غامر
هلاك وموت ذريتك » .

كان بوشكين يحس في الشعب الروسي بذور التمرد ، وكان يستشف امكانية «هبة مسعورة لا ترحم» . لا نستطيع ان نجد في هذا الشاعر ، وهو اكثر شعراء روسيا انسجاما ، انسجاما كليا لانه يعي ما تنطوي عليه روسيا الامبراطورية من فاسد ومن خلف . وهو انطباع ينبعث اكثر وضوحا ايضا من قصيدة ليرمونتوف ، **نبوءة** التي تفوح منها نغمة نبوية حقيقية :

« سوف يطل العام ـ ايتها الروسيا ، فهو عام اسود
حيث ترين تاج الملوك يسقط
وتفقدين ذكرى حبك القديم
ويثير الدم والموت رعبك
وبالنسبة للفقير البريء ، لا يبقى ثمة وصي عليه من القانون
ولكنه ، عندئذ ، منبثقا من دنس الجيف المتراكمة ،
يأتي الطاعون فيلازم السوقة المنكوبين
ويمضي على مهل من كوخ الى كوخ
وللقرية البائسة الحزينة يطلب كفنا
ايتها البلاد التعيسة ، انهم ما زالوا يعذبونك ،
والانهار الموشحة بالدماء تحمر احمرار الفجر
وفي هذه الايام الشؤم ترين ظهور
غريب لا شيء ينبيء بقدومه
تعرفينه من وقع خطواته القوية
كما تعرفينه من المدية الفولاذية التي يشهرها بيده العارية
يا للتعاسة ويا للتعاسة التي تحل بك ! ثم يطلقها قهقهة ظلماء
تستقبل بكاءك وآهاتك وصراخك
ومن هذا السيد الغامض سوف لا ترين في الظلام
سوى جبهة قاسية قاتمة منتصبة في وجه الليل» .

هذه القصيدة الرومنطقية المؤرخة في عام ١٨٣٠ ، تتنبأ بفظائع الثورة قبل حدوثها بما يقرب من قرن . وكان تيوتشيف Tiautechev ، وهو ثالث الشعراء الروس العظام ، ذا نظرة محافظة عن العالم اكثر منها ثورية. ولكنه مع ذلك قد لازمه الاحساس طيلة حياته بأن هناك ثورة مريعة في طور المخاض . ويوجد لديه تضاد غريب بين قناعاته الرجعية والنزعة القومية وبين شعوره الحاد الثابت بوجود عناصر لاعقلانية . ولاح له ان

نقاب الانسجام والنظام الذي أضفى على العالم ستار الاشكال الابولونية(١) واهيا وزائلا :

«الانسان كاليتيم دون مأوى ،
وهو هناك عار وعاجز
وجها لوجه مع ظلمات البحار العميقة
يبدو له انه قد نام طويلا جدا
وعندئذ فان كل شيء يتضح ويصبح حيا من جديد
وفي ما هو ليلي ، لا تفسير له ، غريب ،
يتبين تركة القدر» .

هذا التيار الصاخب المضطرب لا يوجد في الطبيعة فحسب وانما في التاريخ كذلك . فتيوتشيف حدثه قلبه بوقوع الكوارث التاريخية وبانتصار قوى الظلمة . انه محافظ لا يعتقد بثبات المبادىء المحافظة . ووفقا لرأيه، او وفقا للنظام الذي تخيله كان يجب ، على وجه الدقة استخدام المسيحية، كقوة محافظة ، والاستعانة بها من اجل انقاذ العالم من الثورة ومن العدم. ان اشعار تيوتشيف السياسية البحتة ضعيفة تقريبا ، وعلى العكس فان اشعاره المتشبعة بالالهام الكوني تقدم صورا جميلة مدهشة .

ولم يكن خومياكوف زعيم مدرسة النزعة القومية يملك مزاجا تنبؤيا ومع انه كان مفكرا عميقا فقد كان ، على العكس شاعرا وسطا . غير اننا نجد في آثاره مجموعة من القصائد تحمل طابع الاتهام ، يبدو خومياكوف فيها ، رغم ما تقوم عليه عقيدة اصحاب النزعة القومية في الاساس من تحويل منظم للماضي الى مثل اعلى ، انه يعاني من عيوب هائلة تثقل تاريخ روسيا . الا انه ظل مقتنعا بأنه يجب على الروسيا ان تعلم العالم «سر الحرية» وتبشه «روح الحرية المقدسة» ولكنها اذا كانت «مختارة» فانها تظهر بأنها «غير جديرة بهذا الاختيار» :

«فوقك ، وعلى وجهك ، وا اسفاه
كم من الخطايا ارتسمت
نير العبودية المخجل
والظلم ، والبغي
تزحفين حمقاء ، خائنة ،

---

١ ـ نسبة لـ Apollon وهو اله النور والفنون والخلود عند اليونان . ـ المترجم ـ

ثملة بالكسل القتال
تحرضين دوافع الضجر الذليل» .
ويختتم خومياكوف قصيدته بهذه الاستغاثة البائسة :
من اجل كل شيء ، من اجل كل الم من الآلام
من اجل كل شريعة من الشرائع المستباحة
من اجل أفعال أجدادنا الضالة
من اجل الخطايا الحاضرة القاتمة
من اجل بؤس الوطن كله ،
امام الله ــ بكل رضى وبكل قوة ،
ابتهلي ، باكية ، منتحبة
لكي يغفر لك ، لكي يغفر لك ....

ويتهم خومياكوف الدولة الروسية بانها تستخدم ما تتصف به الروسيا من حسن الانتظام في الدولة ، في سبيل غايات مادية ، اي انها انغمست الى احط اشكال الافساد . لهذا رحب بانهزام روسيا في القرم واعتبره عقابا عادلا . ولم يرض لبلاده اي شكل من أشكال الامبريالية ، وكان ما طالب به هو تحقيق العدالة . فقد بقي في هذا على طريق الانتليجنسيا على حين كان يعذب غوغول ما يراه من استرسال الروسيا في الشر وفي الكذب ، مليئة بالبشاعات والخدود المصعَّرة ، وكان يقول ساخرا : عبثا تبحث فيها عن وجه رجل فانك لن تجده . ومن الخطأ ان نرى في غوغول مجرد كاتب هجاء . كان يرى الشر ، يراه في اعماقه الميتافيزيكية لا في مظاهره الاجتماعية فحسب. ولم تكن الاشكال الخارجيةللظلم توجد وحدها في الروسية القديمة التي تعاصره ، روسيا الحكم الاستبدادي وروسيا العبودية ، ذلك ان روسيا غوغول القديمة تستمر خالدة في روسيا جميع العصور وفي روسيا الحالية وفي روسيا السوفييت وفي روسيا الشيوعية ، بمعنى أعمق. فما برحت باقيةفيها الاتجاهات المفرطة والخدود المصعَّرة ، والوجه الكاريكاتوري للانسان . فان امثال كليستاكوف ، وامثال نوسدرييف ، وأمثال تشيتشيكوف ما زالوا يعيشون في وقتنا الحاضر وما زالت التجارة بالنفوس الميتة تجري فيها ويبعث المفتش المزيف رهبة في الناس جميعا . فقد نفذ غوغول الى روح الكذب التي تعذب روسيا. وقدر له ، هو نفسه ، ان يعانيمأساة ازمة دينية وأن يكافح ضد هذا الشر الذي فهم وجوده فهما صحيحا . والتمس مخرجا في الحياة المسيحية والبحث عن هذا المخرج والتلمسات للعثور عليه تشكل موضوع كتابه

الذي وضع له عنوانا : **مراسلات مع اصدقاء** ـ وهو الكتاب الذي أثار سخط بيلنسكي اذ راى فيه خيانة للمثل الاعلى الانساني وللتقدم والحرية. والحقيقة ان غوغول في هذا الكتاب قد فهم الحياة المسيحية . فهما يكاد يكون ضيقا ومعاد للحياة الاجتماعية في اساسه . ـ (ما دام يفضي بقارئه الى ان يضيف غوغول في عداد المدافعين عن النظام القائم وعن مؤسسات كالعبودية) . وثمة شيء رهيب ينطوي عليه هذا الكتاب ، لا يتجاوب مع العمق المعتاد في عبقرية غوغول : فهو يعكس تناقضات المجتمع في عصره وبشاعاته الا ان ما تتسم به طبيعته من عنصر الزهد كان يعيده الى عمله المبدع والحكم عليه بقسوة ومع ذلك لا يمكن ابدا نسيان تلك الصورة التي لا نظير لها والتي تنتهي بها **النفوس الميتة** عندما يشبه الروائي روسيا بترويكا Troika (١) منطلقة في الفضاء الرحب .

كان الشاعر الروسي في مطلع القرن العشرين أشد انطباعا بمسحة تنبؤية فهو شعر الافول ، شعر نهاية عصر ، قد ترك فيه الانحطاط تأثيرا عميقا . كان الشعر يتنبأ : وكان الشعراء الرمزيون يحسون ان روسيا تطير للسقوط في هوة ، بعضهم يصيبه الذعر، بينما كان آخرون يبتهجون كأنما يرون امكانية تحقيق حياة جديدة وافضل . كانت رمزيتهم تعبر عن قطيعتهم مع الواقع الاجتماعي ، وعن النزوع للوصول الى عالم مختلف . وقد رغب الشعراء الرمزيون و. ايفانوف ، واندريه بيلي والكسندر بلوك، وكلهم عانوا من عزلتهم ، في بلوغ فن قومي وحاولوا في الوقت نفسه التغلب على آثار علم جمال آخذ في الانحطاط ، كانوا يبحثون عن اخضاع الفن للغايات الاجتماعية ، اي عن «المطلب الاجتماعي ، وفقا للاصطلاح السوفييتي . ومن الاشعار التي تتسم على نحو خاص بطابع التنبؤ حول مصير روسيا هذه الابيات لالكسندر بلوك اعظم الشعراء الروس في مطلع القرن العشرين :

«اسمع ابواق التتار
وارى بعيدا على ارض روسيا
مقارع القدر البربرية
والحريق العظيم الذي لا آخر له ...»

---

١ ـ Troika عربة روسية كبيرة تجرها في الغالب خيول ثلاث يشدّ اليها احدهما تلو الآخر . ـالمترجم

ويقول في قصيدة اخرى من المجموعة الدورية: **فوق حقول كوليكوفو:**

«الفراسخ تومض في الجوار
توقف مكانك
فالغيوم المذعورة ماضية في طريقها
ايها الغروب الدامي !»

بيد ان القصيدة التي تحمل عنوان : **الروسيا** ، هي التي بصورة خاصة تتضوع بحبه لبلاده وتنبؤاته حول مصيرها :

«اي روسيا ، يا ايتها الروسيا الذليلة
ان بيوتك الخشبية الغبراء هي بيوتي
ولي اغانيك الطائشة
كدموع الحب الاول
لا املك الشفقة عليك
وساحمل صليبك بحذر
فلأي ساحر تريدين
تسليم جمالك الوحشي
ليغشك ويخدعك
انك لا تستطيعين ضياع نفسك
على الرغم من ان القلق يأتي
ليكدر ملامحك المدهشة » .

هذا تنبؤ بأن روسيا سوف تسلم جمالها الوحشي للـ«ساحر» الذي سيغشها ويخدعها ، وفي نفس الوقت ، ايمان بأنها لا تستطيع ان تضيع نفسها .

وثمة شاعر رمزي آخر هو اندريه بيلي يهتف في احدى قصائده قائلا: «هاجري في الارض الواسعة ، اي يا روسياي الحبيبة» . لقد كان شعراء هذه الحقبة التي سبقت الثورة صوفيين ، مؤمنين بالرؤيا ، يعتقدون بالحكمة الالهية بالـ Sophia وبنوع جديد من الوحي ، ولكنهم لا يؤمنون بالمسيح . ولم تكن نفوسهم في الحقيقة متصلبة ، بل كانوا يهبونها بلا دفاع وربما كانت لهذا السبب متفتحة لاستقبال نسيم المستقبل ، حساسة لقدوم الثورة الداخلية التي لم يكن الآخرون يتصورون وقوعها .

لقد احس الكتّاب الروس في القرنين التاسع عشر والعشرين انهم لم يكونوا يعيشون في حضارة ذات اسس متينة . وظل الادراك المفجع للعالم السمة التي تميز الممتازين منهم . لان الثقافة الكلاسيكية ، الوطيدة والقائمة على اسس ثابتة بحواجزها وطبقاتها المتفرعة وبمعاييرها وميلها الخاص الى التحديد كانت قليلة الموافقة على التنبؤ واستباق الحوادث . فالثقافة تخلق درعا للفكر ، وهي تحميه مما يصدر اليه من المستقبل الذي ما يزال مجهولا من طاقات . فقد نشأت في روسيا حالة نفسية ناجمة عن البحث في الاخرويات eschatologique [1] متجهة نحو نهاية الاشياء، منخفضة **على كل ما سيكون** ، على الكارثة التي توشك ان تقع ــ وهي حساسية صوفية من نوع خاص . والنفس الغربية في معاناتها لهذه الحالة تكون في حصن حصين من حضارتها الخاصة ولكن تلك الروسيا التي كانت تعيش في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين ، يكتنفها جو متزايد الثقل من نذر الثورة ، لم تكن لها جذور ولا روابط . لم يكن ثمة ما يربطها بتلك الروسية الموسكوفية القديمة ، التي خلفت وراءها نمطا من الفن التشكيلي حقيقة ولكنها لم تترك اية تقاليد للفكر ولا اي اسلوب للنقد ، حيث لا يمكن التنقيب عن مقدمات تعقيدها ولا عن ازدواجتها . ذلك ان الثورة قد حدثت في النفس الروسية من الاحتكاك بالغرب ويجب ان تقودها هذه الثورة تماما الى طرق متعارضة كل التعارض مع طرق الغرب . فهو تأثير ينطوي على مفارقة عجيبة : يثني الروسيا عن المعايير التي عرفها عليها لكي ينمي، بالتضاد ، القوى الغامضة المضطربة ، القوى الديونيزية ، بل والشيطانية احيانا . فقد تحررت النفوس فكشفت عن ديناميكية كانت مجهولة في العصر السابق لعصر بطرس . والتطلعات الى اللامحدود ، التي ظهرت في الغرب لدى الانسان الفاوستي ، الانسان الذي ينتمي الى مرحلة جديدة في التاريخ ، وهي التطلعات التي تعبر عنها مؤلفات دوستويفسكي تعبيرا عبقريا ، فانها آخذة في التكشف في الوقت الحاضر بطريقة خاصة تماما. اما الروسيا التقليدية ، الروسيا التي تواصل الماضي ، الروسيا السائرة على طريق السلف ذات النسب الشريف ، التاجرة ، المساومة ، التي وطدت منذ قرنين دعائم الامبراطورية فانها آخذة بالعمل ضد هذه

---

١ ــ صفة من Eschatologie وهو مصطلح استخدمه اللاهوتيون بالاخص للدلالة على المبحث الخاص بنهاية العالم واليوم الآخر . انظر يوسف كرم المعجم الفلسفي .
ــ المترجم ــ

الاتجاهات والاصطدام بروسيا الانتليجنسيا الثورية اجتماعيا وروحيا ، الكلفة باللانهائي ، والتي تتجه نحو مدينة المستقبل . وهـــذا الاصطدام سيعمل على تفجير قوى جديدة وعلى احداث تمزقات . وفي الوقت الذي كانت تقوم فيه الثقافة والتعليم في اوربا الغربية باعداد نظام ما ــ وهو نظام نسبي دون شك ، الا انه نظام تحكمه قوانين ثابتة ، كان التعليـــم والثقافة في الروسيا ، على عكس ذلك ، ينكران القواعد ويعملان علـــى تذويب الحواجز ويستثيران ديناميكية ثورية . ويمكننا ان نتحقق من هذه الظاهرة عند جميع الكتّاب الروس وفي شتى مستويات خلقهم .

ـ ٢ ـ

لقد انعكست الثورة الباطنية التي كانت تتم في الروسيا في آثـــار دوستويفسكي اكثر منها في اي مكان آخر . وتعطي مؤلفات تولستوي عنها صورة مختلفة : لان فنه لم يكن تنبؤيا ، على الرغم من انه كان بحد ذاتـــه ثورة برمتها . ومن المفيد ، من هذه الناحية ، أن نعقد المقارنة بين هاتـــين العبقريتين لان العلاقة بين آثار كل منهما وبين وعيه الفردي تظهر معكوسة. كان دوستويفسكي ــ الفنان الديناميكي، بل لا شك انه أكثر الفنانين الذين عرفهم العالم ديناميكية (١) . كل شيء عنده يغوص في جو ملتهب ، وكل شيء قد التقط وهو يدور في زوبعـــة ، فلا شيء ثابت متحـــدد ولا شيء اتخذ شكله النهائي . فدوستويفسكي ، في جوهره ، فنان ديونيزيسي . يعكس روح الثورة ويكشف عن ديالكتيكها وكان ما كشف عنه وتنبأ به في الواقع هو ديالكتيك الثورة الروسية . ولكن انسياب هذا التيـــار التنبؤي خلال آثار دوستويفسكي كلها لم يمنع ان تكون ايديولوجيتـــه ، في نفس الوقت ايديولوجية محافظة كما عبر عنها في **يوميات كاتب** : حيث تظهـــر فيه نزعة محافظة ذات طابع خاص ، مشبعة بروح الثورة حقيقة ولكنها مع ذلك محافظة .

اما تولستوي فهو على العكس ، الفنان الذي يصف استقرار الاخلاق . واذا كانت روايات دوستويفسكي مآسي فان روايات تولستوي مـــلاحم . وتفسر تنبوئية دوستويفسكي الديناميكية بان مشكلـــة الانسان تسيطـــر عليها سيطرة تامة وانه قبل كل شيء متخصص في علم الانسان الطبيعي .

---

١ ــ انظر نيقولاس بيرديف ، تصور دوستويفسكي للعالم (الترجمة الفرنسية ١٩٢٩ ــ طبعة سان ميشيل ، ستوك ١٩٤٣) .

أما فن تولستوي ـ الذي يمكن اعتبار رواياته اكمل الروايات في الادب العالمي ـ فالحياة الانسانية ، على العكس ، غارقة ، متلاشية في دورة الحياة الكونية الهائلة. كان دوستويفسكي يدور في التاريخ ـ أما تولستوي فكأنه يدور في الكون : لذلك تنتمي الديناميكية والتنبوئية الى التاريخ . هذا بالنسبة للآثار . ولكن تولستوي في قناعته الخاصة كان ثوريا يفضح المظالم العالمية . كان فوضويا وعدميا تمرد على التاريخ والحضارة بنبرات من التطرف لم يسمع بمثلها . فالانسان يجب الا يطيع شريعة العالم . يجب ألا يخضع الا لشريعة الله . كان تولستوي بموقفه المعارض لاي ضغط بل ولمبدأ الدولة وعدائه للتكنيك وللتنظيم العقلاني للحياة وكلفه بالاساس الالهي الذي تقوم عليه الطبيعة ودعوته الى الحب لا الى الحقد يناقض الشيوعيين . ولكنه كان فيما ينكره، ممهدا لهم. نراه ، مثلهم ينبذ الماضي، التراث التاريخي ، الثقافة القديمة ، الكنيسة والدولة يمسج كل ظلم اقتصادي واجتماعي ، ويستمطر اللعنات على الطبقات الحاكمة ، ولن تجد النخبة المثقفة نفسها رحمة لدنة . وفي شعبية السبعينات لعب « النبلاء النادمون » دورا لا يستهان به . وفي ما انتجه تولستوي من آثار عبقرية بلغ يأس هذه الطبقات الحاكمة وندمها توترا غريبا اشد الغرابة بحق . ذلك أن تولستوي كان متشبعا بالفكرة التي ترى أن حياة المجتمع المتمدن مبنية على النفاق وعلى الاستبداد . فاراد أن يقطع علاقته بهذا المجتمع . وها هو المجال الذي كان فيه ثوريا ، الا انه ثوري لا يقبل تطرف الثورة .

كان دوستويفسكي ثوريا هو ايضا رغم ما حفلت به آثاره من اراء محافظة . لم يكن يحب الانتليجينسيا وقد شهر بها لانه كان يتبين منذ ذلك الحين في امتداد معتقداتها انكارا للحرية والفكر ، كنتيجة نهائية لكل ديالكتيك ثوري يرتكز على الالحاد . اذ لا بد للالحاد في رأي دوستويفسكي من أن يؤدي الى انكار حرية الفكر وهذه هي الفكرة التي يكشف عنها في : **اسطورة المفتش الكبير** ، وفي شخصية ايفان كارامازوف كلها ـ حيث تكمن اصالة ما وجهه من تأنيب الى هذه الانتليجينسيا . وقد تولى الدفاع وهو يتهمها ، عن حرية الفكر ، التي تشكل في رأيه ، حدثا ثوريا . وقد تعقب المفتش الكبير حيثما ذهب الى كل كنيسة وكل حكومة . وتذهب روايته « الممسوسون » (١) الى أبعد من ذلك ايضا ؛ حيث يظهر

---

١ ـ في الاصل : الشياطين .

دوستويفسكي ، لفسه حقيقة انه نبي الثورة الروسية التي يستشف اكثر من وجه لها ، وان كان غالبا بظلم وهو هنا ايضا ، ثوري بالروح : لكنه يريدها ثورة بالله وبالمسيح فقد ظل دائما عدو الاشتراكية الملحدة : **فكرة المفتش الكبير** الذي يضحي بالحرية الروحية لحساب الخبز اليومي والسعادة الارضية . ولن ينصب دوستويفسكي من نفسه مدافعا عن العالم البورجوازي القديم ، بل هو آخر من يدافع عنه . كان في الحقيقة اشتراكيا ، بقي في كنف الاورثوذكسية الدينية ، فهو اشتراكي مسيحي تكون طوباويته التيوقراطية (١) انكارا لكل حكومة ولكل اقتصاد بورجوازي. وقد كان بناء مثل هذا الحكم التيوقراطي بناء روسيا صميميا. ولا شك في ان دوستويفسكي قد ازداد خشونة في اواخر أيامه فتقرب من بعض العناصر الرجعية ، والتي كانت مع ذلك غير قادرة على فهمه . ومن المؤكد ان هذين الرجلين تولستوي كدوستويفسكي قد تمردا على السلطة الاستبدادية للقانون وعبرا عن نفحة التمرد في النفس الروسية ، وكانا عدوين للعالم البورجوازي ولمعاييره وبحث كل منهما ــ وان كان بوسائل مختلفة ــ عن المسيحية الحقة خارج نطاق مسيحية التاريخ المشوهة فليس في الامكان ادراك مثل تولستوي أو مثل دوستويفسكي الا في مجتمع يتحرك نحو الثورة وحيث تتراكم المواد القابلة للانفجار . فقد كان دوستويفسكي يدعو الى شيوعية روحية والى مسؤولية اخلاقية للجميع . وعلى هذا النحو كان يتوخى الانسانية الروسية . وليس بالامكان أن يتكيف مسيحه مع معايير الحضارة البورجوازية : أما تولستوي فلم يكن يعرف المسيح، لم يكن يعرف الا تعاليمه. ولكنه يكرز فضائل الشيوعية المسيحية، وينكر الملكية وجميع اشكال عدم المساواة الاجتماعية . وتلامس فكرة كل منهما حدود البحث في الاخرويات eschatologie كما هو الحال في كل فكرة ثورية . وكل منهما بشر بانسانية خاصة ، وبعالمية مسيحية وهما روسيتان صميمتان ، ولا تبدو النزعة الاممية بالنظر اليهما الا صورة مشوهة فالشعب الروسي ، في نظر دوستويفسكي ، هو الشعب الذي يحتفظ فيه هو بالله لانه يحتفظ بفكرة الاخوة الانسانية عينها . وقد كان

---

١ ــ Theocratique صفة للنظام السياسي الذي يستند الى سلطان الهي . والتيوقراطية Thecratie اصلا اصطلاح مأخوذ من كلمتين يونانيتين : تيوس بمعنى الله . وقراطوس بمعنى قوة او سلطان . انظر معجم يوسف كرم . ــ المترجم ــ

موقف دوستويفسكي من الغرب متناقضا ، يحبه في الوقت الذي يبغضه فيه . وثمة تناقض آخر عنده بين تلك الفكرة القائلة برسالة عالمية يعتبرها منوطة بالشعب الروسي ، وبين كراهياته القومية الواضحة . كان يعتقد أن النور يجب أن يأتي من الشرق . ولكن الخصوصية والقومية ليستا من صميم تفكيره فهما سمتان غريبتان على طبيعة الروس العميقة التي كانت القومية في نظرهما دائما ، فكرة المانية مستوردة . وهكذا كانت تحرك تولستوي ودوستويفسكي ، بنفحة ثورية ولا شك في انهما كانا سوف يوليان عن الثورة الروسية التي كانت ستبدو لهما خامدة للفكر ــ ومع ذلك يبقيان ممهدين لها .

وكونستانتين ليونتيف Constantin Léontev هو شخصية كذلك يمكنها أن تكشف عن تلك التيارات التنبؤية التي تخللت الادب الروسي(١). وكان ليونتييف فنانا وصحفيا ، وعالم اجتماع ومفكرا أصيلا الى أبعد حدود الاصالة لا ينتمي الى أية مدرسة ولا الى أي اتجاه . فهو رجعي بالمعنى الدقيق لكلمة رجعي ، لكنه رجعي رومنطيقي . الا أنه اذا كان يريد أن يسد الطريق على عملية تطور المساواة ــ الحرة فذلك لانه يرى أنه يؤدي الى انتصار الفكر البورجوازي والى تحطيم كل ثقافة مهذبة ومعقدة . فالاشتراكية هي مملكة البورجوازية ، هي فردوس كئيب على الارض ، وهي ازالة الفروق ، وتسويتها ، وهي عملية اختلال الآنية (٢) وطرح الرجعي ليونتيف كما طرح هرزن الثوري من قبل مشكلة بسيكولوجية « التاجر » أو « البورجوازي » طرحا حادا وهي على غرار هرزن ، مشكلة روسية صميمية . وكان لحقده على البورجوازية اثر حاسم في حياته لم يكن يستطيع تحمل فكرة أن « الرسل قد بشروا والشهداء قد تعذبوا ، والشعراء قد انشدوا والفنانين قد رسموا والفرسان قد تألقوا في الاعياد العسكرية لا لشيء الا لمجرد أن يتمكن البورجوازي الافرنسي أو الالماني أو الروسي من الاستمتاع « شخصيا » أو « جماعة » فوق خرائب كل عظمة ماضية». كان ليونتيف رجلا من رجال النهضة الايطالية في القرن السادس

---

١ ــ انظر ب. بيراديف : كونستانتين ليونتيف ، نظرات في تاريخ الفكرة الدينية الروسية .

٢ ــ depersonnalisation وتعني اضطراب يصيب الشعور بالوحدة الذاتية فيحس الشخص عندئذ بان احساساته ورغباته وافكاره غريبة عنه . ـالمترجمـ

عشر الا انه في العصر الذي عاش فيه صار راهبا وارتدى الاسكيم Froc وعاش في دير أوبتينا Optina الـــذي كان يديـــره ستاريت امبرواز . كان قبل كل شيء ذواقة في الجمال . وكانت النزعة الجماليـة سمة أصيلة من سمات طبيعته، تفسر ما يلاحظ في شخصيتهمن ازدواجية لازمته حتى آخر حياته : فهو راهب ، فيما يتعلق بالعالم الآخر ، بالسماء وذواقة في الجمال بالنسبة للاشياء على الارض ، لعالم الحياة الدنيا . ولم يكن يأمل في تحقيق المسيحية على هذه الارض وفي تحقيـــق العدالـــة الاجتماعية لان نتيجة كهذه تمثل لناظريه موت الجمال وسيطرة البشاعة . اذ أن مسيحية ليونتيف هي مسيحية تشاؤمية وهي بصورة خاصة تتجاوز الانساني . لقد كان في نقاط كثيرة ممهدا لنيتشه : فارادة القوة والنزعة الارستقراطية في النظر الى الاشياء والشعور المأسوي بالحياة والنزعـــة الجمالية وتركيز الجهد على شروط منشأة الثقافة وانحطاطها ، ــ ملامـح كلها في آثار ليونتيف تقربه من نيتشه . الا أن تنبؤات ليونتييف المتعلقـة بالثورة الروسية هي التي تهمنا قبل كل شيء آخر فيما نحن بصـــدده . فقد اعتقد أول الامر أن ازدهار ثقافة أصيلة في روسيا تختلف عن الثقافة البورجوازية ، أمر ممكن . وفيما بعد كان لا بد لاوهامه هذه من أن تتبدد سواء في الشعب الروسي وفي رسالته . ومضى الى أبعد من هذا ليدعم القول بأن رسالة الشعب الروسي الوحيدة تتلخص في أن المسيح الدجال L'Antéchrist يخرج من صفوفه وقد أحس منذ الثمانينات بأن روسيا تسير حتما الى الثورة ، وتنبأ بما ستكون عليه هذه الثورة ، بصورة أدق وبتفصيلات أكثر مما تراءت لدوستويفسكي . واذ تـكون طاغيـــة ، دموية فان هذه الثورة لا تكون تحررية ولكن شيوعية . وسوف تبتلع هذه الثورة الحق والحرية وتنهي الانتليجينسيا المتحررة ، المتقدمة . واذ تكون لا انسانية فانها تفيد من الغرائز القديمة في حب السيطرة والاستعبـاد . ومن ثم تجتذب الشيوعية الروسية شعوب الشرق وهكذا تجلب خـــراب العالم البورجوازي الغربي . وتدمير هذا العالم البورجـــوازي لم يحـزن ليونتييف في شيء . ولكن ما اراده كان انقاذ بقايا الثقافة الارستقراطية . ولهذا الغرض يلجأ الكاتب الى وسيلة سامية فيقترح عـلى القيصر بنـــاء الشيوعية من فوق . لقد كان بما تبعثه في نفسه الراسمالية والبورجوازية من كراهية مخلصا للتقليد الروسي . وكان الاحساس بقرب نهايـة العالم يرافق هذه التنبؤات والاستكشافات جميعها .

كانت الاتجاهات المتأثرة بالجزع من نهاية العالم ، المتأثرة برؤيا يوحنا

تتعزز في روسيا ، في هذه الروسيا في أواخر القرن التاسع عشر ، مخضبة بألوان قاتمة من التشاؤم . وثمة شعور وراء الكارثة الاخيرة اي نهاية العالم ووراء ظهور المسيح الدجال، هو الشعور بنهاية العصر التاريخي كله وبتدمير العالم القديم كله . وكان مثل هذا الشعور مزدوجا . فهو حزين ومفرح في آن واحد . ولم يكن في مقدور اي كاتب من الكتاب الروس أن يقبل باتباع روسيا للطريق الذي سار عليه الغرب . الطريق البورجوازي العقلاني ، التحرري والانساني . وقد اتخذت هذه الاتجاهات الجزعة من نهاية العالم بتاثير رؤيا يوحنا شكلا اصيلا لدى فلاديمير سولوفييف ، اكبر فلاسفة الروس . كانت فلسفته ككل فلسفة روسية حقة فلسفة مسيحية . فقد شيد ، بداية ، حكومة مثالية مسيحية . تستمد سلطتها من الله وابتغى حكومة تستند الى السلطان الالهي (تيوقراطية) حره واعتقد بامكان قيام سياسة مسيحية . واراد ، على عكس ليونتييف تحقيق الحقيقة المسيحية في اكتمال الحياة . فقد جسد النزعة الروسية الى انسانية جامعة التي ذابت تعادي كل خصوصية قومية . فهو ذو نزعة مسيحية شاملة ، متعطش الى اتحاد الكنائس ، بل سوف يميل في مرحلة ما من حياته نحو الكاثوليكية . وفي هذه الحقبة الاولى من فعاليته ، فسر سولوفييف المسيحية تفسيرا متفائلا . ولم يفصلها عن الحركة الانسانية وعن التقدم ، واعتقد في امكان تنمية انسانية الهية على الارض . ولكن سولوفييف تعرض فيما بعد لسلسلة مواقف تبديد الوهم عانى فيها من صدمة تلو الاخرى . عندئذ ، اضطر الى الاعتراف بأن التاريخ لن يسير في الطريق ذاته الذي كان يرى فيه ، هو انتصار حقيقة المسيح . فاستيقظ ، داخل نفسه معنى الشر بصورة حادة وكان من قبل يكاد لا يعرفه . وفي آخر حياته ، بعد ان تبددت أوهامه في موضوع اقامة حكومة عالمية وحرة تستند الى السلطان الالهي كف عن الاعتقاد بالطرق التاريخية . واعتقد بأن التاريخ قد بلغ أجله ولن يكون له مستقبل وقد استهلك نهائيا. كان هذا حينما كتب قصة «المسيح الدجال» وتنبأ فيها بقرب ظهور هذا المسيح الدجال . فالتنظيم الاجتماعي العالمي للمجتمع الانساني لا يمكن أن يكون من صنع المسيحية أو من صنع حكومة مسيحية تستند الى السلطان الالهي (تيوقراطية) ، بل يكون من عمل المسيح الدجال . وقد ابصر الدور الذي ستلعبه الجامعة المونغولية ، وما يحمله العرق الاصفر من خطر يهدد روسيا واوروبا . وهكذا فان النهاية

التي توشك ان تحدث كانت بالنسبة له ، كما كانت لدى ليونتييف ، هي نهاية الازمنة التاريخية ، وانبأ بكوارث التاريخ التي تراءت لرؤيتهما عن نهاية العالم . واعتبر كل منهما ان روسيا تقف على شفا هوة سحيقة .

ومن اجل متابعة الميل الروسي الى نزعة الجزع من نهاية العالم apocalyptisme تقدم آثار نيقولاس فيدوروف فائدة للدراسة ذات دلالة خاصة . وعلى الرغم من انه عاش في نهاية القرن التاسع عشر ولكن شهرته تبدأ خاصة في القرن العشرين : فهو يتجه بتكوين عقله الديني الى المستقبل اكثر منه الى الماضي ، ورؤيته ايجابية اكثر منها سلبية وقد تبدلت لديه طبيعة نزعة الجزع من نهاية العالم apocalyptisme وظل فيدوروف مجهولا وغير مفهوم زمنا طويلا على الرغم من أن عقول عظيمة مثل عقل تولستوي ودوستويفسكي أو سولوفييف كانت تحله منزلة رفيعة . كان اصيلا ولم يكن من محترفي الادب ، البتة . بل كان ينتمي الى تلك الطائفة من الروس الذين حاولوا الهروب خارج عالم الشر والالم وبحثوا عن مملكة الله وكانت لديهم خطتهم للخلاص . ورأى فيدوروف انه ليس جديرا بكتبه أن تباع بل يجب أن تمنح بلا مقابل . ولا شك أن مثل هذه الطريقة لم تكن تساعد على بث افكاره . الا ان فيدوروف كان ، بعد الثورة، الوحيد بين المفكرين الدينيين جميعهم الذي ظل متمتعا بالشعبية : ويجب الا نعجب من وجود اتجاه ينتمي الى فيدوروف في روسيا السوفييتية . صحيح أن فيدوروف قد عد أورثوذكسيا مسيحيا ولكنه كان يتصف بكثير من الملامح التي تقربه من الشيوعيين. لقد كان بحق ممهدا للازمنة الحالية. فالاتجاهات المتأثرة برؤيا يوحنا apocalyptiques في روسيا كانت مزدوجة : فقد تضمنت جانبا ثوريا وجانبا رجعيا . الا أن الفهم السلبي لنزعة الجزع من رؤيا نهاية العالم هو الذي ساد بصورة عامة فقد كان الروسي يشعر بنفحة صوفية تنفذ الى صميمه منذرة بالنهاية القريبة وكان يتوقع ، حكم المسيح الدجال الذي لا فكاك منه وفي حالة الانتظار التي كان يعيش فيها ، كان المستقبل يثير في داخله الرعب . فان ما تنبأت به رؤيا يوحنا apocalypse يجب أن يتحقق ـ بالنسبة للفرد وبالنسبة للشعوب ـ ولكن الانسان نفسه لا يبدو انه عامل فعال في اتمام هذه النبوءة . فرؤيا يوحنا يجب أن تفهم كأنها القدر Fatum الالهي والحرية الانسانية لا تلعب في هذا القدر أي دور . وهذا الفهم لرؤيا يوحنا قد جدد تجديدا فريدا من قبل شخص كفيدوروف ففي رأيه أن

مجيء المسيح الدجال ونهاية العالم ويوم الحساب الاخير .. امور يجب الا تفهم الا على انها وعيد . فليس فيها اي شيء من القدر المحتوم . فاذا اتحد الناس من اجل قضية البعث « المشتركة » ومن أجل تطبيق حقيقة الوجود المسيحية ، واذا حاربوا ، في تجمع اخوي بتيارات القوى المضطربة ، اللاعقلانية ، المرضية ، فلن يكون عندئذ ثمة مملكة للمسيح الدجال ، ولا نهاية للعالم ولا يوم الحساب الاخير ، وهكذا تصل الانسانية مباشرة الى الحياة الخالدة . وكل شيء يتعلق بفاعلية الناس . وجعل فيدوروف من نفسه داعية لفاعلية انسانية لم يسمع بمثلها من قبل ، يجب أن تقهر الطبيعة وتنظيم الحياة الكونيه ، وتتغلب على الموت وتبعث الروح في الاجداث . وكانت تلك « القضية المشتركة » تفترض في الاصل ، كشرط لا محيد عنه ، الصلات الاخوية بين الناس وحذف ما يفرق بينهم ، وتدعيم القرابة بين البشر ، كما تتطلب كذلك تعضيد العلم والتكنيك . وكان فيدوروف يعتقد بأن التكنيك اذا ما وضع تحت تصرف انسانية موحدة ، يستطيع انجاز المعجزات ، حتى معجزة بعث الموتى . ونظر الى الفلسفة نظرة عملية كأنها بناءة للمشاريع فليس ثمة ما يستوجب وجود علماء واكاديميات تمثل العلم المحصن ، المنفصل عن الحياة والتفريق بين عقل نظري وعقل عملي تفريق مضر . وقد اعتقد فيدوروف كماركس وانجلز أنه يجب على الفلسفة الا تكتفي بالكشف عن العالم وانما عليها ايضا أن تحوله ، وان تقدم له مشروعا من شأنه أن ينقذه من الشر ومن الالم وخاصة من الموت ، بوصفه منبعا للشرور جميعها ، في نظره . ولا شك أن طرح مشكلة الموت يفصل فيدوروف بصورة اساسية عن الماركسية وعن الشيوعية . وكان تصوره للحياة ، على العكس ، يقربه منهم : فهو يرى أن الانسان يجب ان يسيطر على القوى الطبيعية واللاعقلانية المضطربة التي نجد الحياة واقفة في قبضتها ، كما يجب تطويعها واخضاعها للعقل وللعلم .

واهاب فيدوروف بالناس ان يكفوا عن محاربة بعضهم بعضا ، لكي يكافحوا ، متحدين ، ضد قوى الطبيعة الاولية. وهكذا يلتقي مع الشيوعية وان كانت نقطة انطلاق كل منهما مختلفة فكريا . بيد ان فيدوروف ابغض الراسمالية اكثر مما كرهها الماركسيون ، واعتبرها من انشاء الاولاد الفاسدين ، النسّائين آباءهم الاموات . وكان ذا نزعة جماعية ، عدوا للنزعة الفردية . واذا كان يتميز عن الشيوعيين ، مرة أخرى ، بعقيدته المسيحية وبما يشعر به من دين يجب أن يؤديه للاجداد فان مذهبه

العملي (١) المبالغ فيه ، واعتقاده في قدرة التكنيك الخارقة ، ودعايته لصالح القضية العامة الجماعية ، ونفوره الشديد من الراسمالية ، امور كلها تقربه من الشيوعيين ، كما يقترب منهم ايضا بنزعته الى «التخطيط» وتصوره الشمولي للحياه وفي ميله الى وضع نوع من التقييم العالمي واخيرا بنبذه لكل فكر نظري ، ولكل تامل منفصل عن الفاعليه العمليه وبتعريفه للعمل كاساس للحياة . كان فيدوروف شيوعيا نقل الى الصعيد الديني لا يزال يحتفظ بعنصر لم يتغلب عليه من النزعة القوميه . وفي عقيدته تتراكم المعطيات الواقعية فوق المعطيات الطوباوية ، كان يمثل ، كما هو بقضه وقضيضه ، النموذج الصميمي للمفكر الروسي . وقد حذف تلامذته ، في الوقت الحاضر ، وجهة النظر المسيحية من عقيدته وغرزوا فيها الناحية التكنيكية ، التي تجعلها قريبة من وجهة نظر الشيوعيين .

وهكذا يشهد الادب الروسي كما يشهد الفكر على هذه الحقيقة وهي انه لم يكن لروسيا الامبراطورية اية وحدة ثقافية ، وان هوة عميقة كانت تفصل الطبقة المثقفة عن الشعب ، وان النظام القديم لم يكن يملك أي مرتكز اخلاقي . وكانت الارادات جميعها تتجه الى هدف واحد : وهو ضرورة التغلب على هذا الانشقاق ، والى سد تلك الهوة بهذه التجربة أو تلك التي تملك قيمة جماعية . وكان كل شيء يسير الى الثورة .

---

١ ـ activisme مذهب عملي يقرر ان العمل مقياس الحق اي ان العمل المنتج ميزة للحق ولكن ليس ذلك ان الحق حق لانه نافع انما معناه اننا ندرك الحق ادراكا مباشرا بفضل العمل .

انظر Jones, Rudolf Eucken في فلسفة الحياة . ـالمترجمـ

الفصل الخامس

الماركسية الكلاسيكية والماركسية الروسية

- ١ -

في نحو الثمانينات استنفدت الاشتراكية الشعبية قواها ولم تعد الحركة الثورية تستطيع ان تنمو تحت رايتها . كانت منشأة حزب **ارادة الشعب** الذي اخذ على عاتقه مهمة القضاء على الملكية المستبدة بالعنف ، تمثل منذ ذلك الحين أزمة في الحركة الشعبية . واخذت الانتليجينسيا الثورية تكف عن الايمان بطبقة الفلاحين وتقرر عدم الاعتماد الا على بسالتها الخاصة . غير أن اغتيال الاسكندر الثاني بيد احد اتباع حزب **ارادة الشعب** ، لم يفشل في العمل على جلب انتصار الانتليجنسيا الثورية فحسب ولكنه فجر في عهد الاسكندر الثالث حركة رجعية تمتد من الحكومة الى المجتمع. ولم تستطع الحركة الثورية التوصل الى ايجاد قاعدة لها . وكان يجري في خارج البلاد ، بين المهاجرين ، اثناء هذه الحقبة ، تأسيس جماعة **تحرير العمل** ، ظهر على راسها بليخانوف واكسيلرود وزاسوليتش . فكان هذا هو ميلاد الماركسية الروسية والحركة الاجتماعية الديموقراطية . فقد كان بليخانوف ، بعد ماركس وانجلز ، واحدا من اهم المنظرين المعترف بهم في الماركسية . سبق له أن شارك في التنظيمات الثورية الشعبية : **الارض والحرية** وحركة « **التوزيع الاسود** » . وكان قد

اصبح بفضل تلك الاعوام التي قضاها في أوروبا الغربية ، رجلا من الغرب، ذا تكوين عقلاني ، يتمتع بنصيب كاف من الثقافة الا انه لم يبلغ فيها مستوى رفيعا ، يمثل نمطا للرجل الثوري الكتابي أكثر منه العملي كان يمكنه أن يعمل رائدا للفكرة الماركسية يقوم بتوزيع الادوار فيها لا رائدا للثورة نفسها ، كما اتضحت حقيقته بعد اندلاع الثورة . غير أن عدة أجيال من الماركسيين الروس ، منها لينين وقادة الشيوعية ، قد تربوا على كتب بليخانوف . وقد ظهرت الماركسية في بدايتها على الارض الروسية على انها الشكل المتطرف لحركة الاخذ والاقتباس عن الغرب Occidentalisme لذلك كانت الاجيال الاولى من الماركسيين تشن كفاحها في المقام الاول على اتجاهات الانتليجنسيا الثورية القديمة وعلى الشعبية ، فالحقت بها اضرارا قاصمة لا يمكن علاجها . وكانت الماركسية الروسية تنتظر الخلاص من طريق تطور روسيا الصناعي وهو التطور بعينه الذي كانت الشعبية ترى تجنبه . ذلك ان الصناعة الرأسمالية يجب أن تعود الى تربية الطبقة العاملة وتطورها وهي الطبقة التي يقدر لها ان تقوم بعملية التحرير . ولذلك كان الماركسيون يحبذون تحويل الفلاحين الى بروليتاريا وهو ما كان الشعبيون يرفضون القبول به وكان الماركسيون يحسبون انهم اخيرا قد عثروا على اساس واقعي من اجل المعركة الثورية : فالقوة الاجتماعية الوحيدة التي كانوا يستطيعون الاعتماد عليها كانت بروليتاريا منظمة (اثناء عملية تكوينها) . وكان هذا يعني تنمية الوعي الطبقي الثوري في هذه البروليتاريا، لذلك يجب الا يكون الاتجاه الى الفلاح الذي صد الانتليجنسيا التي سعت الى تحريره ولم يستجب لندائها . بل الى العامل والى المصنع . واعتبر هؤلاء الماركسيون انفسهم واقعيين ، لان التطور الرأسمالي في روسيا يتطابق فعليا مع تطور ايديولوجيتهم . ويمكنهم الاعتماد ليس على الانتليجنسيا الثورية وعلى الدور الذي تلعبه الشخصية في التاريخ ، فحسب بل وعلى عملية موضوعية هي العملية الاجتماعية ـ الاقتصادية . ولم يكنوا في نفوسهم،بالنسبة لاشتراكية الشعبيين الطوباوية الا الازدراء. وازاء هؤلاء الشعبيين الطوباويين ، ازاء هذا النمط الثوري ـ الشعبي القائم على العاطفية الانفعالية ، جسد الثوري الماركسي نمطا اكثر فكرا . وكان الماركسيون الروس يؤكدون على العناصر الحتمية والتطورية في مذهب ماركس ، التي يبدو انها تتجاوب على نحو خاص مع الظروف التي ادخل فيها هذا المذهب الى بلادهم . فقد حاربوا الطوباوية والاحلام ، وافتخروا انهم في نهاية المطاف قد اكتشفوا الاشتراكية العلمية التي تضمن

لهم النصر الحقيقي الذي يحرز بوسائل موضوعية . والاشتراكية هي نتيجة لضرورة اقتصادية ، ولتطور لا يمكن تجنبه . وهكذا كان الماركسيون الروس الاوائل يحبون الحديث عن نمو قوى الانتاج المادية كما لو كان أملا وسندا جوهريين . الا ان تطور روسيا لم يكن يهمهم فقط بحد ذاته ، بوصفه غاية بذاتها وخيرا بذاته بل وبوصفه ، خاصة ، اعدادا لآلة الكفاح الثوري . فاذا بقيت الاهداف التي سعت اليها الانتليجنسيا ، هي نفسها تقريبا فانها على الاقل قد صاغت لنفسها اداة جديدة من اجل الكفاح واخذت تشعر تحت اقدامها بأرض صلبة . ولا شك في أن الماركسية كانت نظرية أشد تعقيدا من النظريات السابقة وكانت تتطلب جهدا اكبر . ولكنها تريد ان ينظر اليها كأداة ثورية ، قبل كل شيء ، كأداة معركة ضد الاتجاهات القديمة التي منيت نهائيا بالعجز . وفي بداية الامر اعطى الماركسيون انطباعا بأنهم ثوريون اقل تطرفا واقل عنفا من اسلافهم : فقد عارضوا الارهاب . فخدعت مظاهرهم رجال الامن . ولكن ميلاد الماركسية في الحقيقة كان يبدي ازمة عميقة في الانتليجنسيا ، هي ما حل من قطيعه في اصول تصورها للعالم . ومن هذه الماركسية انبعثت الاتجاهات الجديدة جميعها. ولهذا فلا غنى عن أن نعرفها في جوهرها وفي ثنائيتها لكي نعرف كيف نتجه بعد ذلك عبر تيارات الفكر الروسي القادمة .

الماركسية ظاهرة أكثر تعقيدا مما اعتدنا الظن . ويجب الا ننسى بأن ماركس خرج من قلب المثالية الالمانية في بداية القرن التاسع عشر ، وانه كان قد تشبع بأفكار فيخته وهيجل . وكان كفيورباخ ، أهم ممثل للهيجلية اليسارية ، في الوقت الذي كان يعلن فيه عن نفسه انه مادي ، قد تغذى من الفلسفة المثالية وظل لاهوتيا على طريقته . غير أن هذا الانتساب الى المثالية نميزه لدى ماركس الشاب خاصة وهو الذي يترك طابعه على المعرفة الماركسية (١) كلها . ولا شك في أن الماركسية تبرر الى حد بعيد التعريف الذي تعتبر نفسها طبقا له نظاما متلاحم الاجزاء يؤدي الى حتمية اجتماعية. فالعنصر الاقتصادي هو الذي يحدد الحياة الانسانية بأكملها ، لا تتوقف عليه بنية المجتمع فحسب بل وكل ايديولوجية وكل ثقافة فكرية ايضا : دين ، فلسفة ، اخلاق وفن . والعنصر الاقتضادي هو الاساس وما الايديولوجية الا البنية الفوقية. وثمة عملية اجتماعية ــ اقتصادية موجودة

---

١ ــ انظر كتاب كورنو المذكور آنفا .

محتومة ، يتحدد بمقتضاها كل شيء . وليس شكل الانتاج والتبادل شيئا آخر غير الحياة الاصلية وما عداه يكون وظيفة لـــه . وحتى في الفـــرد الانساني نفسه، فليس هو الذي يفكر والذي يبدع ولكنها الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، فهو يفكر ويتصرف بوصفه نبيلا او بورجوازيا كبيرا أو بورجوازيا صغيرا او بروليتاريا. ولا يستطيع الفرد أن يتحرر من الاقتصاد الذي يحدده والذي لا يملك الا أن يعكس اثره . هذا جانب مـــن جوانب الماركسية . ان قوة اثر العامل الاقتصادي على الحياة الانسانية لم تـــكن شيئا اخترعه ماركس ولم يكن مسؤولا عن اضعافها للايديولوجية على هذا النحو . فقد وجد ماركس هـــذا المعطى في المجتمـــع الراسمالي الاوروبي المعاصر له . ولكنه حوله الى عقيدة ومنحها صفة شاملة . وما اكتشفه في هذا المجتمع الراسمالي جعل منه اساسا لكل مجتمع . فاذا كان في نقده ثاقب البصيرة وامينا الا ان الحق جانبه في اعتباره الحالة الخاصة حالة عامة . وتحمل حتمية ماركس الاقتصادية طابعا خاصا تماما فهي ازاحـــة النقاب عن وهم الوعي . وهو عمل مماثل للعمل الذي جرى لفيورباخ فيمـــا يتعلق بالوعي الديني . وقد سلك ماركس منهجا الى ذلك يذكرنا بتأكيدات فرويد . فالايديولوجية ليست سوى بناء ثانوي ، والعقائـــد الدينيـــة ، والنظريات الفلسفية والفروق الاخلاقية ، والابـــداع الفني ــ يسقطهـــا الواقع بصورة وهمية في الوعي وهذا الواقع هو قبل كـــل شيء الواقـــع الاقتصادي اعني الكفاح الاجتماعي للانسان ضد الطبيعة للمحافظة عـــلى الحياة، وهذا ما يشبه تمام الشبه الواقع الجنسي الذي ينعكس ــ في راي فرويد ــ على جميع جوانب الحياة النفسية . فالوعي يعـــكس الموجـــود والموجود هو ، قبل كل شيء ، الموجود المادي والاقتصادي ، ولن يظهـــر الفكر من هذا الموجود سوى ظاهـــرة عارضـــة épiphenoméne
ولم تستخلص الماركسية من الاقتصاد مباشرة كل ايديولوجية وكل ثقافـــة روحية ولكنها استخلصت ذلك بواسطة بسيكولوجيا طبقيـــة ، اي انهـــا ادخلت على حتمية علم الاجتماع الماركسي حلقة جديدة ، بديلا نفســـيا . ووجود هذه النفسية Psychologique الطبقية ، وجود هذا التحريف الطبقي الذي تعانيه جميع الافكار وجميع المعتقدات ، هو حقيقة موضوعية بحد ذاته ، الا أن البناء النفسي ذاته ظل اضعف ناحية في الماركســـيـــة ، وهو البناء الذي اصبح عتيقا جدا فيها .

ولكي نفهم معنى الحتمية في علم الاجتماع الماركسي والكشف عن وهم الوعي فلا بد من أن ننظر بعين الاعتبار وجها آخر من الماركسية يتعارض مع

المادية الاقتصادية . فالماركسية ليست مجرد مذهب للمادية التاريخية والاقتصادية بخضوعها التام للعوامل الاقتصادية ، بل هي عقيدة للخلاص كذلك ، ومذهب الدعوة الى انتظار رسالة الخلاص من البروليتاريا ، ومذهب اعلان المجتمع الكامل حيث لن يكون الانسان خاضعا لقوانين الاقتصاد هذه ، وهو مذهب القوة في الانسان والانتصار على القوى اللاعقلانية في الطبيعة وفي المجتمع.وهنا تكمن روح الماركسية في الحتمية الاقتصادية . فالانسان محدد تحديدا كاملا في المجتمع الراسمالي ولكن هذا التحديد صار ينتمي الى الماضي . وخضوع الفرد للعامل الاقتصادي لا يفسر الا على انه عيب من عيوب الماضي . اما في المستقبل فالامر يكون بخلاف ذلك ، ويجب على الانسان أن يكون متحررا من العبودية . والبروليتاريا هي ، تماما ، التي انيط بعملها تحرير الانسانية وخلق حياة افضل . اذ تسبغ عليها الماركسية صفة خاصة بصاحب رسالة الخلاص وتنقل اليها مميزات شعب الله المختار وغدت البروليتاريا اسرائيل الجديدة . واضفى على الوعي العبري القديم ، هنا ، صفة العصر . وعثر على الرافعة التي يمكن بها خلع العالم وقلبه راسا على عقب . وهكذا تحولت مادية ماركس الى مثالية جامحة لا حدود لها . لقد اكتشف ماركس في الراسمالية عملية تجريد للانسانية deshumanisation عملية اذلال الانسان والانحدار به الى مستوى السلعة verdinglichung . وبها ترتبط ، في رايه نظريته الخلاقة عن تمائمية السلع وكل شيء في التاريخ وفي الحياة الاجتماعية حاصل فعالية الانسان وكفاح الانسان (١). ولكن الانسان هو ضحية التصور الواهم ، الكاذب ، الذي يتراءى له ، وفقا لهذا التصور نتيجة فعاليته وجهوده الخاصة ، كأنها عالم قائم بذاته ، خارج عنه ، ويخضع له . الا ان هذا الواقع الاقتصادي الموضوعي ليس له وجود ، فهو خدعة ، فما من شيء موجود سوى فعالية الانسان والعلاقات الفعالة بين انسان وانسان . وليس راس المال حقيقة معطاة ، خارج نطاق الانسان ، فهو العلاقة الاجتماعية بين الافراد داخل نطاق الانتاج . ووراء كل فعالية اقتصادية يختفي دائما افراد احياء ، متجمعين في صورة

---

١ ــ كتب ماركس في دراسات عن فيورباخ : «ان الثغرة الرئيسية في المادية كلها ، حتى الان هي ان الذات ، الواقع المحسوس لا يدرك الا في صورة الموضوع او الادراك لا كفعالية للحساسية الانسانية كبراكس Prascis وليس ذاتيا » .

اجتماعية . ويستطيع الانسان أن يسيطر بفاعليته على عالم الاقتصاد الراسمالي البغيض . ولهذه المهمة تندب البروليتاريا . وهي الجهة التي لا بد لها من أن تحارب تحويل الانسان الى آلة وتجريد الاقتصاد من مضمونه الانساني ، كما يتعين عليها ابراز ما للفعالية الانسانية من قدرة كلية . وهنا ينكشف عنصر خاص بالماركسية تماما يرجع ، خاصة الى الحقبة الاولى من حياة ماركس (١) فقد ورث هذا الايمان بفعالية الانسان من المثالية الالمانية وهو في الحقيقةايمان بالكفر ، وهذا قول يتنافى مع المادية. وهنا يلمس الانسان في الماركسية عناصر فلسفة وجودية حقيقية تفضح كذب التموضع objectivation (٢) ، مؤكدة انتصار الفعالية الانسانية . والماركسية جديرة بأن تبعث الحماس وتشحن الطاقة الثوريين بهذا الجانب وحده . فالمادية الاقتصادية تخفض من قيمة الانسان ، ولكن الانسان ، على العكس ، يشعر بالنشاط يحركه من الايمان في فعاليته الخاصة وفي قدرته على انجاز المعجزات وعلى تجديد المجتمع .

تربط الديناميكية الثورية كلها ، في الديالكتيك بالوقائع التي سبق ذكرها : والمادية الجدلية تشكل ربطا بين الفاظ لا تعبر تمام التعبير عن الفكرة المطلوبة . اذ لا يمكن أن يوجد جدل dialectique لمادة . فالجدل يفترض وجود اللوغوس والفكر ، ولا يمكن الجدل أن يتم الا بالفكر والروح . بيد أن ماركس كان ينقل خصائص الروح الى عالم المادة . وهكذا اصبح العقل والحرية والفعالية المبدعة ، كلها تبدو انها تنتمي الى العملية المادية ولذلك تستطيع العملية المادية هنا أن تقود الى انتصار الفكر والى السيطرة على الحياة بالعقل الاجتماعي . ويتحول الجدل فيؤدي الى تمجيد الارادة الانسانية . فكل شيء محدد لا بالنمو الموضوعي لقوى الانتاج المادية ولا بالاقتصاد ايضا ، بل بالمعركة الثورية بين الطبقات اي بالفعالية الانسانية . فالانسان يستطيع أن يقهر ما للاقتصاد من سلطات على حياته الخاصة . ويبقى عليه ، على حد قول ماركس وانجلز انجاز القفزة من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية . فالتاريخ ينقسم بصورة حادة الى

---

١ ــ لقد اوضح لوكاش Lukacs وهو احد مشاهير الكتاب الشيوعيين هذه الناحية من الماركسية ، في كتاب تاريخ ووعي طبقي في دراسات حول الجدل الماركسي .

٢ ــ الظن بان الصورة المتخيلة موجودة في الواقع ، او تحول الاحساس من مجرد حالة انفعالية الى ادراك مصطبغ بصفة الواقع . انظر لمعجم الفلسفي : يوسف كرم . ــ المترجم ــ

شطرين : الماضي ، حيث الاقتصاد المحدد والزمن الذي كان فيه الانسان عبدا ـ والمستقبل الذي ينطلق من نصر البروليتاريا ويكون متكيفا برمته بفعالية الانسان ، الانسان الاجتماعي . وعندئذ تكون مملكة الحرية قد شيدت اخيرا . وهذا الانتقال من الضرورة الى الحرية يجب أن يفهم هنا بمعناه الهيجلي . ولكن الجدل الثوري في الماركسية ، ليس الضرورة المنطقية للافكار التي تتوارد بحسب تسلسلها الخاص ، بل هو فعالية الانسان الثوري التي لا تعتبر انه كان للماضي ضرورة محتومة .

ان الحرية هي الضرورة الواعية وهذا الوعي للضرورة يمكن أن يولد معجزات ، وأن يجدد الحياة ، وأن يخلق منها حياة جديدة ، لا مثيل لها حتى الآن . والانتقال الى عالم الحرية، يكون هو الانتصار على هذه الخطيئة الاساسية التي يدينها ماركس بوصفها استغلال الانسان للانسان . وهكذا يرتكز الحافز الاخلاقي كله في الماركسية على موضوع الاستغلال كأساس للمجتمع ، اي استغلال العمل . ومن الواضح أن ماركس يخلط هنا الاقتصاد بالاخلاق . فيعد مذهبه في فائض القيمة الذي يوضح استغلال الراسماليين للعمل مذهبا علميا اقتصاديا . بينما هو في الحقيقة، قبل كل شيء ، نظرية اخلاقية . فما هو الاستغلال ان لم يكن ظاهرة في منزلة اخلاقية ، أي علاقة رجل برجل ، خطأ خلقيا ؟ ويبرز هنا التباين واضحا بين اللاخلاقية العلمية لدى ماركس التي لم تكن تستطيع احتمال اساس اخلاقي للاشتراكية وبين الاخلاقية العميقة التي توجه تقديرها للحياة الاجتماعية . وكل مذهب في الكفاح يحمل طابعا ذا طبيعة بديهية . فالتمييز بين «البورجوازي» وبين « البروليتاري » هو التمييز بين الشر والخير والظلم والعدالة وبين الذين يستحقون الذم والذين يستحقون المديح . ويمكن الكشف في المذهب الماركسي عن مزيج متناقض منطقيا بين عناصر مادية ، علمية ـ حتمية ، لا اخلاقية ـ وبين العناصر المثالية ، الاخلاقية ، **مبدعة الاساطير** . والحق أن ماركس قد انشأ من البروليتاريا اسطورة حقيقية واصبحت رسالة البروليتاريا ضربا من العقيدة . فلم تعد الماركسية علما وسياسة فحسب فانها ايضا ايمان ودين . وعلى هذا الاساس ارتكزت قوتها .

ـ ٢ ـ

لقد اخذ الروس يتبنون الماركسية بصورتها الموضوعية والعلمية . اذ

كان لا بد للاشتراكية من أن تكون نتيجة لا يمكن تجنبها لنمو موضوعي في الاقتصاد بل كانت محددة بالنمو نفسه لقوى الانتاج . فاستقبلت هذه النظرية كما يستقبل الامل . وكف الثوريون الروس عن اعتبار انفسهم اشخاصا تنقصهم الارض التي يقفون عليها ، وانهم كانوا معلقين فوق هوة سحيقة . واتخذوا لانفسهم اسم الاشتراكيين « العلميين » ولم يعودوا اذا لا طوباويين ولا حالمين . واصبحت « الاشتراكية العلمية » عقيدة ولكن هذا الرجاء المكين بتحقيق الهدف المأمول الذي نشأ عنها ، كان معقودا على تطور الصناعة وعلى اعداد طبقة من العمال الصناعيين . الا أن مثل هذا الامل بالنسبة لبلاد سوف تبقى في طور الاقتصاد الريفي والفلاحي ، لن يكون له معنى . ولهذا كان لا بد للماركسيين الاوائل من استبعاد التصور الشعبي والاعتراف بأن الراسمالية كانت تنمو وانه لا بد لها من ان تنمو في روسيا . وهذا ما جعل قضية نمو الراسمالية هذه والتنامي العددي للطبقة العاملة تحدد الكفاح الثوري . فينقلب الاشتراكيون الشعبيون في نظر الماركسيين الى رجعيين تقريبا . ولكن الماركسية نفسها كانت تفهم بطرق مختلفة . كان نمو الصناعة الراسمالية في روسيا بالنسبة للبعض يعادل الاعتقاد بانتصار الاشتراكية . وكانت الطبقة العمالية تتكون : ويجب على كل انسان أن يكرس جميع جهوده لتسليحها بالوعي . وكان بليخانوف يحاكم الامر على النحو التالي : « ان ديناميكية حياتنا الاجتماعية كلها تنطلق من الراسمالية . « ولم يكن يفكر وهو يقول هذا القول بالصناعة نفسها بل بالعمال . اما الماركسيون الاخرون ، ولاسيما من بقي منهم في روسيا ، وكان يطبع كتبه فيها ، فقد كانوا يعلقون على التطور الصناعي نفسه أهمية فائقة ؛ وكان جانب ثورة الطبقة يتراجع الى المرتبة الثانية في الاهمية . وكان هذا خاصة وضع ب. ستروف P. Strauve ممثل الماركسية البورجوازية . وكان الاشتراكيون ـ الديموقراطيون من الروس ، الذين سينعتون فيما بعد بالمنشفيك يتبنون الراي القائل بعدم امكان قيام الثورة الاشتراكية في بلد ما الا بفضل تطور الصناعة الراسمالية . اذا فالثورة لا تكون ممكنة في روسيا الا بشرط أن تكف هذه البلاد ، في جزء كبير منها ، عن أن تكون بلادا ذات اقتصاد زراعي . فقد راعوا الجانب الحتمي ، الموضوعي والعلمي في الماركسية ولكنهم حافظوا على جانب ثورة الطبقة منها وهو ما يمكن اعتباره ذاتيا . وكانت نتيجة المناقشات المستمرة بين الماركسيين الاوائل حول ضرورة النمو الراسمالي في روسيا واستعدادهم لتقبل هذا النمو ، ان اتهمهم ل. تيخوميروف احد

اعضاء **حزب ارادة الشعب القدماء** ، انتقل فيما بعد الى المعسكر الرجعي ، انهم يريدون ان يكونوا « فرسان التراكمات الراسمالية الاولى » .

كان الماركسيون يعتبرون الشعبيين رجعيين ، مناصرين اشكال بالية من الاقتصاد ، على حين كان الشعبيون ينعتون الماركسيين بعملاء الراسمالية ، انيطت بهم خدمة نموها . والواقع انه كان لا بد للماركسية الروسية ، وقد نشأت في بلاد ما تزال محرومة من الصناعة ، لم تتطور بروليتاريتها بعد ، من ان تتعرض الى تمزق من جراء التناقض الاخلاقي الذي اثقل ضمير كثيرين من الاشتراكيين الروس . فكيف يستطيع الانسان ان يرغب في نمو الراسمالية وان يشجعه وان ينظر في نفس الوقت الى هذه الراسمالية على انها شر وانها ظلم ، يرى الاشتراكيون لزاما عليهم ان يناصبوها العداء . حقا انها لمسألة جدلية معقدة تطرح نزاعا اخلاقيا . كان نمو الصناعة الراسمالية في روسيا يفترض تحويل طبقة الفلاحين الى بروليتاريا صناعية ، وفقدان اداتها في الانتاج ، وهذا معناه بالتاكيد الهبوط بقسم عظيم من الاهالي الى حالة بائسة . ويمكننا أن نجد هذه الازدواجية في تقدير الماركسية للراسمالية والبورجوازية في أشد صور الماركسية كلاسيكية . فبقدر ما كان ماركس يلزم وجهة النظر التطورية ، ويعترف في التاريخ بوجود مراحل مختلفة تتعدل القيم بمرورها ، فانه كان يرفع عاليا مهمة البورجوازية في الماضي ودور الراسمالية في نمو القوة المادية وهكذا يكون وعي الماركسية كله خاضعا لنمو الراسمالية ، ويعمل على اخراج فكرة « انتظار الخلاص » فيما يسنده من رسالة الى البروليتاريا ، من الصناعة الراسمالية ، وهي فكرة لا تمت بأية صلة الى العلم . فالماركسية تعتقد أن المصنع ، والمصنع وحده ، يخلق الانسان الجديد . ولكن ثمة مسألة اخرى تطرح على الماركسية في صيغة ثانية هي: هل الايديولوجية الماركسية هي انعكاس الفعالية الاقتصادية ككل الايديولوجيات الاخرى ، أو انها تزعم اكتشاف الحقيقة المطلقة ، مستقلة عن الاشكال التاريخية للاقتصاد والمنافع الاقتصادية ؟ وهي مسألة هامة جدا بالنسبة للفلسفة الماركسية ، حيث أن المقصود هو ان نعرف ما اذا كانت هذه الفلسفة براغماتية ــ نفعية أو انها واقعية مطلقة . ولسوف نرى هذه المسألة تطرح ، للجدل ، على رأس قضايا الفلسفة السوفييتية . ولكنها ، على الماركسيين الروس الاوائل ، كانت تطرح في نفس الوقت مشكلة اخلاقية ومشكلة في المعرفة ، وكانت تخلق نزاعا اخلاقيا ومنطقيا معا . وكان لا بد من انتظار لينين والبلاشفة لحسم النزاع الاخلاقي . اذ

سوف يقتنع لينين بأنه يمكن للاشتراكية ان تتحقق في روسيا بمعزل عن النمو الراسمالي ودون تكوين طبقة عمالية ضخمة . اما بليخانوف فكأنه يقف ضد حدوث الثورتين في وقت واحد : الثورة السياسية التي تطيح بالحكم الاستبدادي والثورة الاجتماعية ، وكان يعارض تسلم الاشتراكيين والثوريين للسلطة ـ اي يعارض الثورة الشيوعية ، كما كان لا بد لها أن تحدث . كان يعتقد في الثورة الاجتماعية : فتحرير العمال يجب ان يكون على يد العمال انفسهم لا على يد حلقة ثورية .

يتطلب هذا الهدف زيادة عدد العمال وتنمية وعيهم فضلا عن انه يقتضي انتاجا مكثفا . وقد كان بليخانوف منذ الاصل عدوا لباكونين اذ كان يرى فيه مزيجا من افكار فوريه وستيبان رازين Stepan Razin ، وكان يعارض التآمر والفتنة ، ويعارض الاسلوب اليعقوبي والاعتقاد في اللجان . ويرى ان الدكتاتورية لا يمكن ان تقام اذا لم تكن الطبقة العاملة معدّة للثورة . وهو يؤكد الطابع الرجعي الذي تتصف به كوميونات الفلاحين التي تعيق التطور الاقتصادي : ولا يمكن الاعتماد ، في رايه ، الا على حركة موضوعية عامة . ولما كان بليخانوف ، طيلة حياته معارضا للاستيلاء على الحكم ما دامت القوى والوعي غير مهيأة لذلك ، لم يكن في وسعه ان يفهم الثورة البلشفية . كان يطلب ، قبل كل شيء استبدال وعي ثوري ذي عناصر لا واعية ، بوعي ثوري يجب ايقاظه في مجموع الطبقة العاملة لا في اقلية منظمة في حزب . ولكن مثل هذا التطبيق للمبادىء الماركسية على روسيا كان يقتضي وقتا طويلا من الانتظار ، بل كان هذا يعني ان امكانية القيام بعمل مباشر كانت توضع في روسيا موضع الشك وكانت الارادة الثورية توشك ان تسحق بضغط النظريات الفكرية بصورة نهائية . ومن جانب آخر كان لا بد للماركسيين الروس المؤيدين لقيام الثورة من ان يفسروا الماركسية بصورة مختلفة ، وأن يقيموا نظرية اخرى للثورة ويعدوا تكتيكا آخر ، وهكذا تغلبت الارادة الثورية في هذا الجناح من الماركسيين على النظريات الفكرية وعلى التفسير الحرفي للماركسية فأخذ التمازج الذي لم يكن متوقعا يتم ما بينهم وبين تراث الثوريين القدماء، الذين كانوا، هم ايضا ، يؤيدون تجنب روسيا للمرحلة الراسمالية امثال تشيرنشفسكي وباكونين ونيتشاييف وتكاتشييف . فلم يكن فورييه ، في هذه المرة هو الذي يتحد مع ستيبان رازين بل ماركس . وقد تكشف الماركسيون البولشفيك عن انهم اكثر تمكنا في التقاليد الروسية من الماركسيين المنشفيك . اذ لا تستطيع الماركسية ، على صعيد التطور الصرف

والحتمية ، ان تبرر وجودها في بلاد زراعية ذات صناعة متخلفة ونمو ضعيف في الطبقة العاملة : ان تفسيرها الدقيق يقتضي المرحلة الاولى من ثورة بورجوازية تأتي في اعقابها فحسب الثورة الاجتماعية لتتمها . الا ان مثل هذا الافق كان ضعيف الحظ لو تم في شحذه للارادة الثورية .

يجب ان نلاحظ ونحن ندرس نتائج تطبيق الافكار الماركسية في صفوف الاشتراكيين الديموقراطيين الروس النزعة «الاقتصادية» ، بين غيرها من الاتجاهات . وهذا المذهب الاقتصادي ، بعد ان اسلم امر الثورة السياسية الى بورجوازية تحررية وراديكالية لم يكن يتوخى في صفوف العمال عقيدة سوى مجرد ايجاد حركة اقتصادية ومهنية . وكان يمثل الجناح اليميني في الحركة الاشتراكية الديموقراطية ، واستنفذ رد فعل في جناحها اليساري . ثم اخذ التميز يتأكد شيئا فشيئا في داخل الماركسية الروسية بين الشق الاورثوذكسي الاكثر ثورية وبين الشق الاورثوذكسي الاكثر جنوحا الى الاصلاح . الا انه تمييز شكلي لان الشق الاصلاحي كان ، من نواحي عديدة ، أشد اخلاصا للجانب الحتمي والعلمي في العقيدة الاصلية من الماركسية التي تدّعي بأنها اورثوذكسية (صحيحة) والتي كانت في نهاية الامر ، تستخلص ، لتطبيقها في روسيا ، نتائج مبتكرة تماما ، كان من المحتمل الا يقبل بها ماركس ولا انجلز . وفي هذه المملكة الثورية يقدم لنا لوكاش **Lukacs** وهو كاتب هنغاري يكتب بالالمانية وواحد من امتع الكتّاب الشيوعيين ، تعريفا شخصيا ثاقب الفكر ، نعتقد في صحته (١) : فال«ثوري» لا يحدد في رأيه بالتطرف في الاهداف ولا حتى بطبيعة الوسائل المستخدمة في الكفاح والحس الثوري هو الشمولية، totalite ، هو الاكتمال في نظر كل فعل من افعال الحياة . والثوري هو الشخص الذي يرجع في كل فعل خاص قام بانجازه ، الى الكل ، الى المجتمع بأكمله ، ويخضع لكليته فدوائر العمل المحددة غير موجودة بالنسبة للثوري ، فهو لا يقر بالتجزئة ولا يقر بالاستقلال الذاتي للعمل، ازاء الفكر. والثوري يملك تصورا شاملا للعالم تندمج فيه النظرية والتطبيق اندماجا عضويا . **فالشمولية** هي المبدأ الاساسي للموقف الثوري بالنسبة للحياة . لقد كان في وسع الماركسية النقدية ان تتبنى المثل الاعلى نفسه الذي تتبناه الماركسية الثورية التي كانت تطلق على نفسها اسم الماركسية

---

١ ـ انظر كتاب لوكاش الآنف الذكر .

الصحيحة ـ او الاورثوذكسية . ولكنها كانت تعترف بدوائر منفصلة ، مستقلة ، وهي اقل دعوة الى التشدد ـ فتقبل مثلا بأن يكون الانسان ماركسيا في النطاق الاجتماعي ، دون ان يكون ماديا بل وقد يكون مثاليا. واذ اجيز لنا امكان انتقاد هذا الوجه او ذلك من تصور العالم الماركسي ، فان الماركسية تكف عن ان تكون عقيدة عالمية ، فانها تنقلب الى منهج في الفهم الاجتماعي والكفاح الاجتماعي . وهذا ما كان معارضا لشمولية النمط الثوري . اذ ان الثوريين الروس ، حتى في الماضي كانوا دوما شموليين totalistes او مؤيدين «حكم الاقلية» totalitaires . كانت الثورة بالنسبة لهم دينا وفلسفة في آن واحد ، وليست فحسب معركة متصلة بناحيتي الوجود : السياسية والاجتماعية . فكان لا بد من تطويع الماركسية الروسية حتى تستطيع ان تلبي حاجة هذا النمط وهذه الغريزة في الثورة الشاملة . وهذا ما قام به لينين والبلشفية وقد عرفت البلشفية نفسها بأنها الماركسية الصحيحة (الاورثوذكسية) الوحيدة اي المطابقة لهذا المثل الاعلى في الاكتمال وعدم التشتت ، الذي حللناه . ولقد رأينا ان الماركسية الصحيحة ، التي كانت في الواقع ، ماركسية تحولت لتلائم الحياة الروسية ، وقد تبنت ، من الماركسية قبل كل شيء ، ليس جانبها الحتمي ، التطوري او العلمي ، ولكنها على العكس اخذت جانبها المتعلق برسالة الخلاص messianique ، الديني ، الجانب المبدع للاساطير ، تمجيدها للارادة الثورية التي تدفع الى المقام الاول بمعركة البروليتاريا الثورية ، تقودها اقلية منظمة ، ملهمة بفكرة بروليتارية واعية. هذه الماركسية ، هذه الماركسية الصحيحة والكاملة اقتضت دائما الايمان بعقيدة مادية ، على الرغم من انها تنطوي على عناصر كثيرة من المثالية . كانت تظهر تلك القوة التي تملكها **الفكرة** على الحياة الانسانية عندما تلبي حاجة الجماهير . فلم تعد البروليتاريا ، في الماركسية البلشفية واقعا تجريبيا ، اذ انها بهذه الصفة ، بكونها واقعا تجريبيا قد تحولت الى لاشيء كانت قبل كل شيء فكرة البروليتاريا ، اي فكرة يمكن ان تجسدها اقلية : فاذا كانت فكرة البروليتاريا الجبارة قد تملكت تماما من هذا العدد الصغير، الضئيل ، واذا كانت ارادتها الثورية قد جُمّست واذا كانت قد نظمت تنظيما كاملا ودُرّبت ، فانها عندئذ تستطيع الاتيان بالمعجزات وتستطيع الانتصار على الحتمية الاجتماعية . وقد برهن لينين بالوقائع على ان مثل هذا الامر كان ممكنا . ونفذ الثورة باسم ماركس ولكن ليس **وفقا لطريقة** ماركس . وحدثت الثورة الشيوعية في روسيا باسم الماركسية الكاملة ،

وباسم الماركسية دين البروليتاريا ولكنها تمت . مناقضة لمعظم تأكيدات ماركس حول نمو المجتمع . لم يكن الشعبيون الثوريون يصلحون للقيام بهذه الثورة بل كانت الماركسية الصحيحة والكاملة وحدها هي القمينة بالقيام بهذه الثورة التي قفزت بها روسيا فوق مرحلة النمو الراسمالي التي كانت تبدو للماركسيين الاوائل مرحلة لا مفر من المرور بها . وهكذا كانت تذعن للتقاليد الروسية ولغريزة الجماهير. وكانت أوهام الشعبيين الروس في ذلك الوقت قد اصبحت متخلفة عن الواقع وانهارت اسطورة الشعب الموجيك ، ذلك الشعب الذي لم يتبن الانتليجنسيا الثورية . وكان لا بد للثورة من اسطورة جديدة فتحولت اسطورة الشعب الفلاح الى اسطورة البروليتاريا . وحطمت الماركسية نهائيا تصور الشعب بوصفه كائنا عضويا متكاملا وفككته الى طبقات متميزة ذات مصالح متعارضة ولكن اسطورة الشعب الروسي هي التي بعثت مع ذلك في اسطورة البروليتاريا في شكل جديد . فجرى نوع من التطابق بين الشعب الروسي والبروليتاريا ، بين رسالة الخلاص messianisme التي يحملها الشعب الروسي وبين رسالة الخلاص الملقاة على عاتق البروليتاريا . لقد نهضت روسيا السوفييتية ، روسيا العمال والفلاحين ــ فاتحد فيها الشعب الفلاح بالشعب البروليتاري، رغم ما قاله ماركس الذي كان يعتبر طبقة الفلاحين طبقة بورجوازية ــ صغيرة ورجعية ومنعت الماركسية الصحيحة (الاورثوذكسية) الشمولية totalitaire الاشارة الى اي تعارض في المصالح بين البروليتاريا وطبقة الفلاحين : وهي بدعة اعترض عليها تروتسكي الذي اراد البقاء على اخلاصه للعقيدة الكلاسيكية . واعتبرت طبقة الفلاحين ، جهارا طبقة ثورية ، مع ان الحكومة السوفييتية قد حاربتها دواما بل وبقساوة شديدة احيانا . ورجع لينين الى تقليد الفكر الثوري الروسي القديم فأعلن ان تأخر روسيا الصناعي وما تتسم به راسماليتها من بُرعميَّة كان يشكل مزية واضحة لصالح الثورة الاجتماعية . اذ لا يوافقنا ان نواجه بورجوازية قوية ومنظمة . وهكذا وجد لينين نفسه هنا مرغما على ترديد ما قاله تكاتشيف لا ما قاله انجلز . ومن الواضح ان البلشفية احرص على اتباع التقاليد مما نظن ، فقد ظلت متفقة مع العملية التاريخية الاصلية لروسيا . وفي الواقع ان الماركسية قد تعرضت هنا الى الاصطباغ بالطابع الروسي والشرقي .

كانت الماركسية هي الازمة التي وقعت فيها الانتليجنسيا الروسية والوعي بضعفها فهي لم تظهر التبدل في تصورها للعالم فحسب ولكنها اظهرت تبدلا في البنيان النفسي وباتت الاشتراكية الروسية اقل انفعالا واقل عاطفية ، فكانت تدّعي لنفسها اسسا فكرية اشد خوفا ، وتعزز قسوتها. وكان الماركسيون الاوائل اكثر تشبها بأوربا وبالمغرب من الشعبيين ثم مالت الارادة نحو القوة ، الى القبول بالقوة والى ايديولوجية القوة . وضعف دافع الشفقة والتعاطف الانساني ولم يعد يقود المعركة الثورية . كما لم يعد الموقف من الشعب البروليتاري ناجما عن الرثاء لما يكتنفه من الاضطهاد والتعاسة بل كانت تحكم هذا الموقف فكرة ان الشعب البروليتاري مدعو الى ان ينتصر وانه هو القوة الآخذة في التنامي وانه محرر البشرية . وفي جميع هذه التجسيدات المختلفة ، احتفظت الانتليجنسيا بالاسس الروحية نفسها : البحث عن مملكة العدالة الاجتماعية وعن العدل الطبيعي وروح التضحية وموقف زاهد من المشكلة الثقافية وتصور شامل للحياة يحدده غرض اساسي هو تحقيق الاشتراكية .

كانت الماركسية الروسية منذ البداية ، ظاهرة معقدة تتألف من عناصر متعددة كانت رؤيتنا لها أوضح فيما بعد . فاذا كان قسم من الماركسيين الروس ، يحتفظ بماركسيته الحقة (بأورثوذكسيته) ، وهو القسم الذي ما زال يتمسك ، فوق كل شيء ، بفكرة التكامل ويمتاز بتشدد فعّال ، واذا كانت الماركسية والاشتراكية دينا ، عند هذا الفريق ــ فثمة عناصر اخرى كانت ، على العكس ، تقبل فكرة التفريق بين مختلف مناحي الفكر. كان هذا الفريق يتخلى عن تقديس الكمال ويحرر الروح والخلق والفن من عبوديات الحياة . وكان لا بد لهذه الطائفة من الماركسيين من ان تنادي بحقوق الدين والفلسفة وعلم الجمال ، في معزل عن النفعية الاجتماعية والاخلاقية الاجتماعية، اي بالحقوق الروحية التي انكرتها العدمية الروسية والشعبية الروسية والماركسية الثورية . ولم تعد ، في الواقع ، تنظر الى الماركسية والاشتراكية كدين وكتصور للعالم متجانس يقدم الحلول لجميع مشاكل الحياة كانت تفسح مكانا للبحث الديني وللقدرة الفنية الخلاقة . ومهما بدا في هذا القول من غرابة في الوهلة الاولى ، فان تيارا مثاليا ، في بدايته ، دينيا فيما بعد ،سوف ينطلق من حمى الماركسية ذاتها ــ حمى

الماركسية النقدية اكثر منه حمى الماركسية الصحيحة (الاورثوذكسية) . كان بولغاكوف Baulgakov عندئذ بين من حملهم هذا التيار وهو اليوم قسيس واستاذ اللاهوت العقائدي ، وكاتب هذه الصفحات (١) نفسها .

ثمة ازمة كانت تتكشف في التصور الفلسفي للعالم ؛ كان البعض يكفون عن الاهتمام بالحياة الدنيوية وحدها فكانوا يكتشفون عالما آخر ، عالما فيما وراء هذا العالم . وكانت سيادة المادية والوضعية ، وحدها تبدو انهـا انتهت بالنسبة للانتليجنسيا . ولم يكن في وسع هذه العودة الى امور ما وراء الطبيعة والى الامور الدينية ، ان تفرض نفسها الا في معركة ضارية. وهكذا واجه الاتجاه المثالي الجديد عداء حامي الوطيس ، في المعسكـر الماركسي وفي المعسكر الشعبي الراديكالي القديم على السواء ، وقد فسر هذا الانشقاق في كل مكان على انه خيانة للقضية التحررية . ففي معسكر الماركسيين اتخذت المقاومة في البداية شكل الصراع الداخلي بين شطـر الماركسيين الصحيحيين (الاورثوذكسيين)اي الشموليين وشطر الماركسيين النقديين الذين كانوا يقرون فلسفة لا مادية ومراجعة نقدية لاوجه معينة من الماركسية . الا انه كان لا بد لهذه الحركة المثالية الجديدة من ان تقطع، بسرعة فائقة ، كل صلة لها بأي شكل من اشكال الماركسية وان تلقـي بنفسها في معمعان الكفاح دفاعا عن قيمها الروحية وحدها فيما كان يتعلق بالفن والعلم والحياة الاخلاقية والدينية . وكانت تحاول في ذلك اعطـاء الاشتراكية اساسا مثاليا واخلاقيا وان تنتصر بهذا على تأثير العدميـة والطوباوية والمادية والوضعية . ثم ان الرجال الذين نتكلم عنهم لم يعودوا يبحثون في الثورة عن تلك **النظرة الكاملة** intégralité بـل صاروا يبحثون عنها في الدين . كانت روسيا ، في بداية القرن العشرين مسرحا لنهضة حقيقية : ثقافية ودينية وفلسفية وفنية : وهذه هي الفترة التـي حدثت فيها عودة الى تقاليد الادب العظيم والى الفكر الفلسفي الديني . ورجع الناس من تشيرنشفسكي وبليخانوف الى دوستويفسكي والـى تولستوي والى سولوفيف . وهكذا افترقت الاتجاهات الثقافية والمثالية شيئا فشيئا عن الاشتراكية الثورية وآلت ، شيئا فشيئا ، الى افتقاد كل اساس اجتماعي . وفقدت النخبة المثقفة التي كانت آخذة في التكون ، كل

---

١ ـ كان كتابي الاول الذي ظهر عام ١٩٠٠ ، **الذاتية والفردية في الفلسفة الاجتماعية** ، يمثل محاولة تركيبية للماركسية الثورية مع الفلسفة المثالية ، فلسفة كانت وفيخته .

اثر فعال على جماهير الشعب العريضة وعلى المجتمع في روسيا . فكان هذا انشقاق جديد من تلك الانشقاقات، التي يحفل بها تاريخ الانتليجنسيا في روسيا . وهو انشقاق كان يوقع الوهن في الحركة المثالية فأدى هذا الوهن الى نتائج حتمية هي ايديولوجية الثورة وكفاحها ضد الروح .

لنلق النظر من جديد على هذه النهضة الحقيقية للثقافة والفكر في روسيا التي حدثت في مطلع القرن العشرين. نجد ان ثمة مدرسة فلسفية، تظهر ، متزودة بفكرة دينية اصيلة كل الاصالة ، وان الشعر يزدهر من جديد ، كما نشاهد ، بعد انحطاط في الذوق اتسمت به عدة اجيال ، اقبالا متسارعا على التذوق الجمالي. واستيقظ الاهتمام بالمسائل الروحية جميعها التي اهتزت لها روسيا قبل مائة عام . وربما كنا لاول مرة نصادف في روسيا رجالا يتحلون بثقافة مفرطة في رقتها حتى كأنها تقف على حافة الانحلال : هذا هو عصر الرمزية ، وفلسفة ما وراء الطبيعة والتصوف . فكان تأثير نيتشه عندئذ عظيما ويلتقي بتأثير دوستويفسكي . وتحمس الناس لامثال شيلنغ Schelling وبادر Baader ، من فلاسفة الالمان . ثم اتت موجة طامية من الاهتمام بابسن تلتها موجة اخرى من الاهتمام بالرمزيين الفرنسيين . ولكن الرمزية الروسية لم تقف في هذه الدائرة من علم الجمال ـ الفني ، بل سرعان ما نفذت الى عالمي الصوفية والدين. وهكذا يعاد اكتشاف مفكرين كادوا ان يكونوا منسيين او كانوا يتمتعون بشهرة ضيقة النطاق او انهم لم ينالوا حق التقدير امثال شومياكوف ، فلاديمير سولوفيف ، ليونتيف ، فيدوروف ، روزانوف ، وتعاد اليهم قيمتهم . وعلى عكس ذلك بدا الجانب «المستنير» ، العدمي الشعبي من الفكر الروسي ، انه فقد اي اهتمام . فكان هذا هو عصر المحاورات في مواضيع علم الجمال والتصوف في «برج فنيسلاس ايفانوف» ـ وهو الاسم الذي أطلق على شقة تقع في الدور السادس مقابل قصر توريدا كان يملكها فنيسلاس ايفانوف وهو من ارق الشعراء الرمزيين الروس . وكانت تلك المحاورات تتسم برقة متناهية . وحول هذا البرج ، حول الحلقات التي كانت تعقد فيه ، كانت ثورة ١٩٠٥ تهدر . دليلا على ان الطلاق بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا في الثقافة الروسية كان تاما . حتى ليمكن ان يظن بأن كلا من الطائفتين يعيش على كوكب منفصل عن الآخر . وعلى الجملة يمكن تعريف هذه الحركة بأنها نزعة رومنطقية ، الا انها رومنطقية خاصة بروسيا تتصل بأحد جوانبها المتطرفة بالواقعية الدينية . وفي هذه النهضة الثقافية . لم يكن ثمة أثر للرجعية الاجتماعية ، بل كان بعض من ساهموا

فيها يتعاطفون بصورة محددة مع الثورة الاشتراكيـــة . غير ان الاهتمام الموجه الى المشاكل الاجتماعية كان آخذا بالاضمحلال. لذلك لم يعد لمنشىء حركة الثقافة الروحية هذه اثر على الاختمار الثوري الجاري ، فقد عاشوا معزولين في المجتمع يشكلون نخبة مغلقة على نفسها باحكام . ولقد نشبت في هذه السنوات المنازعات العتيقة بين البولشفيك والمنشفيك التي انتهت الى تنظيم البلشفية في حزب . كان بليخانوف ، زعيم عصبة المنشفيك في الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي ، منظراً حرفياً للماركسية لا قائدا ثوريا . لم يكن في الحزب غير لينين ، زعيما ثوريا ، وهو المؤسس الوحيد للحركة الشيوعية الروسية والعالمية . وقد تم انقسام الحزب الاشتزاكي ـ الديموقراطي بين بولشفيك ومنشفيك في لندن عام ١٩٠٣ اثناء مؤتمـــر الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي . وكان البولشفيك عدديا «اكثريـــة» بينما كان المنشفيك «اقلية» . ومصير كلمة بولشفيك نفسها جدير هنـا بالدراسة . كانت في البداية ، كلمة عادية ، تعني مجرد «عضو فـــي الاكثرية» . ولكنها فيما بعد اتخذت معنى رمزيـــا . واصبحت كلمـــة «بولشفيك» تقترن بمعنى القوة ، ويقترن «المنشفيك» بمعنى الضعف . وعلى حين غرة اخذت الجماهير الهائجة اثناء عاصفـــة ثورة ١٩١٧ ، بال«بلشفية»كما تؤخذ بقوةتمدها اكثر على حين لم يكن بمقدور «المنشفيك» وهم الاضعف ان يعطوا الا الاقل . وهكذا فان الكلمة التي لم تكن فـــي منشئها تعنى الا اشياء طفيفة ، اصبحت تأخذ في الوقت الحاضر قيمـة العلم ، قيمة الرمز . وهي نفسها في الوقت الحاضر ترن بقوة وبصورة مؤثرة . ولكن ما كان يميز كثيرا الانشقاق الذي كان يقسم الثقافة الروسية الى شطرين ، هو ان البولشفيك كالمنشفيك وجميع ممثلي الحركة الثورية، لم يستلهموا مطلقا **الافكار** التي كانت تسود مناطق الثقافة العليا ، فالفلسفة الروسية كانت غريبة عنهم ، ولم يكونوا يهتمون بالمسائل الروحية ، وكانوا يتكشفون عن انهم ماديون ووضعيون . ولم يكن المستوى الثقافي رفيعا ليس فحسب بالنسبة للثوريين المتوسطين بل وبالنسبة لقادة الثورة ، فقد بسطوا نهج تفكيرهم . ولا يبدو ان نفحة الفكر التي هبت على روسيا وعلى اوربا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين قد لامستهم . وعلى عكس ذلك كان مستوى المعدل الفكري اعلى بين العناصر التي شكلت عامي ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ **«الاتحاد من اجل التحرير»** وهو نوع من التكتـــل التحرري ـ الراديكالي ، الف بقصد الكفاح السياســـي ضد الحكـــم

الاستبدادي . وحاولت مجموعات عريضة من الانتليجنسيا اليسارية ان تتحد في هذا التكتل مع التحرريين الذين كانوا ينظمون الادارات المستقلة في المدن والارياف ، وناصرها اكثر الاشتراكيين ـ الديموقراطيين اعتدالا. ولكن هذا الاتحاد الذي لم تعوزه مع ذلك القوى الفكرية لم ينجح في السيطرة على الحركة الثورية لان الحركة التي تستطيع النجاح في روسيا هي وحدها الحركة التي تستلهم ، لا المذهب التحرري بل الاشتراكية ، الحركة التي تصدر من تصور **شامل** للعالم . فما في ايديولوجية ثورة عام ١٩٠٥ من بدائية وخشونة ، تفوح منه رائحة العفونة في العدمية ، كان لا بد له من ان يبعد عنها ممثلي النهضة الثقافية ، وانه يثير بهذا رد فعل روحيا . وفي هذا الوقت اخضعت للمراجعة جميع العناصر التي تؤلف تصور الانتليجنسيا للعالم . ووجد هذا تعبيرا عنه في كتاب Vickhi اي معالم الطريق ، احدث ضجة عظيمة حين ظهوره تعرضت فيه للنقد المر المادية والوضعية والنفعية عند الانتليجنسيا الثورية وعدم اكتراثها بارفع قيم الحياة الروحية . وكانت المعركة من اجل الدفاع عن الروح دون ان يرافقها اي اشعاع اجتماعي ، فقد نظر الى هذه المعركة في سبيل الروح ، وفقا لتقليد الانتليجنسيا الروسية كأنها استجابة ، بل تكاد ان تكون كخيانة للاتجاهات التحررية . كان هذا هو جو الاوساط المثقفة قبيل الثورة . ففي داخل الحركة الثورية نفسها كان الضعف وفقدان التهيئة لدى الاشتراكيين ـ الديموقراطيين المنشفيك ولدى الاشتراكيين الثوريين الذين يواصلون سنّة الشعبيين ، يظهران في وضح النهار . وكانت هذه الفترة التي نتكلم عنها هي فترة دوما الدولة وبداية النظام البرلماني الروسي الذي كان ما يتمتعبه من حقوق لا يزال محدودا وبداية تكوين حزب تحرري كبير بزعامة ميليوكوف Miliaukov . وعلى سطح الحياة الروسية بدا ان الحركة التحررية قد بدأت تلعب دورا جعل الحكومة تحسب لها حسابا. ولكن اعظم مفارقة في المصير الروسي ، في الثورة الروسية ، هي في ان الافكار التحررية ، افكار الحق وبالتالي الافكار الاصلاحية اصبح ينظر اليها في روسيا على انها **طوباوية** : اما البلشفية فقد اظهرت نفسها على العكس اقل خيالية chimérique واكثر واقعية ، واكثر ملاءمة للوضع الذي كانت توجد فيه روسيا عام ١٩١٧ واكثر التزاما بسنتها المأثورة وبالبحث الروسي عن الحقيقة الاجتماعية الشاملة مفهومة بمعناها المادي ،

واخيرا ، بمنهج الحكومات الروسية القائم على قوة الضغط المطلقة (١) . لقد حدد مجرى التاريخ الروسي كله ، مقدما ، نتيجة كهذه . ولكن الافتقار الى القوى الروحية المبدعة قد ساهم في التمهيد لهذه النتيجة وتكشفت الشيوعية عن انها كالقدر المحتوم على روسيا، وكلحظة باطنية من مصيرها.

---

١ ـ في مقال كتب في عام ١٩٠٧ ونشر في كتابي : ازمة الانتليجنسيا الروحية بدقة تامة انه اذا قدر لثورة حقيقية أن تحدث في روسيا ، فلا بد من ان يكون النصر فيهـا حليف البولشفيك .

الفصل السادس

الشيوعية الروسية والثورة

- ١ -

لقد تمت الثورة الروسية ـ العالمية بمبادئها ككل ثورة عظيمة ـ في ظل الطابع الاممي وان كانت قومية في اعماقها : وهي ماضية دائما في التحول القومي في جميع نتائجها . والصعوبة في اصدار حكم على الشيوعية تتأتى من هذه الصفة المزدوجة : الروسية والاممية معا . والثورة الشيوعية ما كان ليمكنها ان تحدث الا في روسيا ، وعلى هذا ظهرت الشيوعية الروسية للغرب كأنها شيوعية آسيوية . ومع تسليمنا بأن مثل هذه الثورة يمكن ان تحدث في مكان آخر فانها سوف تجري على **نحو مختلف تمام الاختلاف**. فللاممية نفسها فيهذه الثورة الشيوعية الروسية، طابعها الاهلي الخاص ـ وطابعها القومي ، فلا شك في ان هذه المشاركة الايجابية التي قام بها اليهود تبرز الى اي مدى تتشابه رسالة الخلاص الروسية messianisme مع رسالة الخلاص العبرانية . وقد حقق لينين نفسه النموذج الروسيالصميم على اكمل وجه: بوجه المعبر الاصيل، وما يبدو عليه بوضوح من ملامح روسية ـ مونغولية .

ينتمي لينين الى الشعب الروسي اكثر مما ينتمي الى الانتليجنسيا : له بساطة هذا الشعب ووحدته وصلابته ونفوره من كل ما فيه من تزويق

وتهويل ، وذكاؤه العملي. وقد برهن في النطاق الاخلاقي عن نوع من الكلبية cynisme يميل الى العدمية . فالنمط الذي يجسده هو ذلك النمـــط الروسي الذي وجد تعبيرا مبدعا عنه في شخص كتولستوي وان كان لينين لم ينطو على تعقيدات تولستوي الداخلية . كان لينين مجبولا من طينة واحدة او كانه قد من صخرة واحدة . وكان دوره برهانا رائعا على دور الشخصية المختارة في الاحداث التاريخية واذا كان قد تمكن من ان يصير زعيم الثورة وان يحقق خطة اعدها منذ زمن طويل ، فذلك بالذات لانه لا يمثل صراحة ، «الانتليجنسيا الروسية» : كان ما فيه من طائفية ، ضيقة الافق كسمات الانتليجنسيا ، يختلط ويتمازج مع ملامح اخرى ، مع ملامح جميع الرجال الروس الذين الفوا الامبراطورية وبنوها . فقد وجد بين نقاط يشترك بها مع تشيرنشفسكي ونتشاييف وتكاتشييف وجليابوف ـ ونقاطا اخرى تجعله شبيها بأمراء موسكو وببطرس الاكبر وبمنشىء الدولة والذين ساسوها على نمط الاستبداد . هذه هي الاصالة في سيماء وجهه . كان لينين ثوريا بولشفيا ورجل دولة . كان يوفق بين وجهة نظر متطرفة في تصور كامل وثوري للعالم ، وبين المرونة والانتهازية في وسائل المعركة ، وبين سياسة عملية . ومثل هذا الطراز من الناس هو وحده الموجه للنصر. وقد اجتمعت في لينين البساطة والاستقامة والزهد العدمي مع الحيلة . بل مع شيء من المكر . ولم يكن في شخصيته اثر للثائر البوهيمي ، بل ما كان ليحتمل مثل هذا الاثر . وهو بهذا التفصيل يبتعد تماما عن خط شخص مثل تروتسكي او مارتوف ، زعيم الجناح اليساري في المنشفيك.

كان لينين في حياته الخاصة يقدر النظام والترتيب ، وكانت له الملكة العائلية ويسرّه العمل في منزله ـ قليل الميل الى احاديث المقهى التي لا تنتهي وهي المناقشات التي كانت الانتليجنسيا تبدي اليها ميلا واضحا . ولم يكن فوضويا بل كان يكره الفوضوية ويعمل دائما على فضحها كبذرة رجعية . وكان بصورة عامة يمقت الرومنطقية واساليب البلاغة الثورية : وبعد ان اصبح رئيسا لمجلس قوميسيريـــة الشعب وزعيما لروسيـــا السوفييتية ، استمر على التنديد بها في الاوساط الشيوعية ، وفي نفس الوقت يلاحق بلا هوادة الإختيال والتهريج . وكان يعتبر ممارسة النقـد الذاتي بصورة مستمرة ، امرا لا غنى عنه . وشن حربا في وجه «مرض الطفولة اليساري» داخل الحزب نفسه . وفي عام ١٩١٨ عندمـا هددت الفوضى والظلمة chaos روسيا بذل لينين جهودا ، بخطاباته ، فـوق طاقة البشر، لتنظيم الشعب الروسي والشيوعيين انفسهم. فقد استحثهم

للقيام بالاغراض الاولية : الى العمل ، والنظام ، وللمسؤولية وللعلم ، والى التعليم والى المنشآت الايجابية لا الى الهدم لمجرد الهـــدم . وحال دون سقوط السلطات في الهوة : وكان عليه هو ان يوقف روسيا على المنحدر الى الظلمة chaos ولكنه استعمل في ذلك وسائل المستبد والطاغية . ومرة اخرى ، لا حاجة بنا الى التاكيد كثيرا على وجه الشبه بينـــه وبين بطرس الاكبر .

لقد حث لينين على اتباع سياسة قاسية : ولكنه شخصيا لم يكن رجلا قاسيا . واذا شكا بعضهم اليه فظاعات التشيكـــا Tcheka (البوليس السياسي) ، كان التأثر يبدو عليه ويقول انه لم يكن مسؤولا عن هـــذه الفظاعات وان الوقائع التي كانت تقدم اليه تلازم كل ثورة . ومن المحتمل انه لم يأنس بنفسه القوة للاشراف على التشيكا . وكان يجمع الى ذلك الميل الى النظام الذي بيناه في حياته الخاصة ، قدرا من الحلم ، يحب الضحك والمداعبة ، وعندما اصيبت حماته بنوبات متتالية من فقدان الوعي apoplescies اعتنى بها عناية مؤثرة . كانت هذه الملامح هيالتي استحوذت على مالابارت (١) فاتخذها مبررا لوصف لينين بالبورجوازي الصغير وهو وصف غير دقيق كل الدقة . كان لينين في شبابه يكن تقديرا عظيمـــا لبليخانوف وكان يستشهد بأقواله باجلال ، وترقب لينين موعـد لقائهما الاول بقلق محموم . وقد ميز لينين في بليخانوف حب الذات والطمـــوح وظلاً من كبرياء الاستخفاف ازاء رفاقه ــ بيد ان ما اصاب لينين من خيبة امل في بليخانوف ظل يؤثر على نظرته الى الناس جميعا . ومع ذلك فان اول صدمة تحددت من خلالها علاقات لينين بالعالم وبالحياة كانت هـــي اعدام اخيه متهما في قضية ارهاب . لقد كان والد اوليانوف موظفا في احد الاقاليم ، ارتقى الى رتبة جنرال واستحق بذلك الانتماء الى طبقـــة النبلاء . وعندما انتشر خبر الحكم على ابنه الكبير بجريمة سياسية تنكر الجوار للاسرة . وهكذا كان على لينين الشاب ان يمنى بخيبة امل لاول مرة من الاحتكاك بأقرانه .

ومنذ ذلك الحين اتخذ لنفسه موقف المستخف باللياقات الاجتماعية واللامبالي في آن واحد . فلم يكن يؤمن بالانسان ، لكنه كان يرغب فـــي

---

١ ــ انظر كتاب C. Malaparte لينين السيد . وهو على جانب كبير من الاهمية .

تنظيم الحياة على نحو تكون فيه افضل من اجل الجميع ، وان لا يكون فيها ابدا مستغِلّون ومستغَلون .

وفيما يتعلق بالفلسفة والفن والثقافة الروحية كان لينين متخلفا ، اذ كانت ميوله ، ميول من عاش في الستينات من القرن الماضي . وهذا نمط من الرجعي الروحي يضاف فيه الى نمط الثوري الاجتماعي . وقد الح لينين على خصوصية الطابع القومي والاصيل في الثورة الروسية . وكان يؤكد دائما على انها لن تكون كما كانت تتصورها مذاهب الماركسية وفي هذا كان يدخل تصحيحات على الماركسية . وما اقامه في هذا المضمار كان التكتيك ونظرية الثورة الروسية التي حققها فيما بعد . وهكذا كان يأخذ على المنشفيك اتباعهم حرفية الماركسية بتصنع ونقلهم مبادئها، نقلا مجردا، الى الارض الروسية . ولم يكن لينين منظرا للماركسية كما كان بليخانوف بل كان منظرا للثورة . فلم يعد برنامجا ابدا ، فقد صرف اهتمامه الى موضوع واحد فقط وهو الاستيلاء على السلطة ووسيلة الحصول على القوى للوصول اليها . ولا شك في انه لهذا السبب انتصر . فقد كيّف تصوره بأكمله للعالم مع تكتيك المعركة الثورية . فهو فيما مضى قبل الثورة بزمن طويل ، عندما كان وحيدا ، قد فكر في شروط الاستيلاء على السلطة وفي وسائل تنظيمها . كان يومذاك امبرياليا وليس فوضويا . كانت الافكار الاستبدادية في اصول تصوراته جميعها ، تتطابق مع ضيق افقه في نظراته العامة وطابعها في التركيز على جانب واحد ، ومع ما يلفت النظر احيانا من املاق زهدوي في فكره ومع بساطة توجيهاته التي كانت تخضع في جوهرها **لمشيئته** . ولم تكن ثقافة لينين على درجة عالية . ثمة اشياء عديدة بقيت بعيدة عن متناوله وخارج حدود معرفته . كان ينفر من الرقة في الفكر وفي الحياة الروحية . لقد قرا كثيرا ودرس كثيرا غير انه لم يكتسب معارف واسعة وثقافة فكرية متينة . فالمعرفة التي كان قد سعى وراءها كان لا بد لها من ان تخدم اهدافا محددة ، تخدم المعركة والعمل ، وما كان ليبقى مجال للتصورات العريضة . ولا شك في ان علمه بالماركسية قد قدم له معارف اقتصادية . ولكنه لم يقم بقراءاته الفلسفية الا لغرض الكفاح ، والا بقصد «تسوية الحساب معهم» ، اي مع هرطقات الماركسية ولكي يفحم ماخ وافيناريوس ، وكان الماركسيان البولشفيان بوغدانوف ولوناتشارسكي يميلان اليهما ، فانه تجشم عناء الالمام بفلسفة ادبية واسعة . ولكنه لم تكن له في هذه المادة ثقافة حقيقية ، حتى اننا نجده دون شخص مثل بليخانوف . فقد كافح طيلة حياته من اجل تصور

واحدي وشامل للعالم ، وكان يرى انه لا غنى عنه للمعركة ، والذي كان لا بد للطاقة الثورية كلها من ان تتكيف وفقا له . ومن هذا البناء الكامل ما كان ليقبل بازالة حجر واحد بل كان يطالب بالموافقة عليه بمجموعه . وكان من وجهة نظره على حق . كان على حق لان تاثير شخص كأفيناريوس او ماخ او نيتشه ، يحدث تصدعا في كتلة الوحدة البولشفية ويضعف تكوينها . ولان ما كان ينادي به من الوحدة وروح المثابرة في العمل ، لم يكن ممكنا لو لم يكن قائما في الاصل على تصور عقائدي قوي وايمان عقائدي ، وماركسية صحيحة (اورثوذكسية) . وكان مطلبه هو تنظيم واع وواضح ، قادر على ان يقف في وجه جميع التيارات الاولية وهذا موضوع اساسي عند لينين . فهو يقر جميع الوسائل التي يترتب عليها الوصول الى الهدف . فالخير في رايه هو ما يخدم الثورة ، والشر هو ما يعارضها . ولهذه «الثورية» التي يتصف بها لينين منبعها الاخلاقي ، فهو لا يستطيع ان يتحمل لا الظلم ولا الإعنات ولا الاستغلال . اما وقد اقام بالعقيدة صرح القدرة غير المحدودة لفكرة الثورة البولشفية فانه قد انتهى الى ان يفقد بالنسبة لما يحدث بعد ذلك حس التفريق بين الخير والشر، وان يفقد ايضا الاتصال المباشر مع الافراد ، والى ان يسلم بالغش والكذب والاكراه والقسوة . وهي نتيجة غريبة من رجل تبيّنا فيه انه غير شرير . كان ذا طبيعة متجردة من المنافع ، كرست تكريسا تاما للافكار ولم يكن له طموح، ولا ميل حقيقي للسلطة ، اذ كان قليلا ما يفكر بنفسه . غير ان انفراد فكرة واحدة بالسيطرة عليه ادى في هذا الشخص الى تضييق فكري والى شيء من الفساد الاخلاقي ، قاده الى القبول ، من اجل المعركة ، باسلحة ، واضح كل الوضوح انها لا اخلاقية . لقد كان لينين رجل القدر ، شخصا قديريا وكان هذا مكمن قوته .

اما انه ثوري من قمة راسه الى اخمص قدميه فقد كان لينين ذلك ، لانه ظل طيلة حياته يدافع عن تصور شامل دون ان يسمح بحدوث اية ثغرة في هذا التصور . وهنا منشأ ما كان ينتابه ، مما لا يمكن تفسيره للوهلة الاولى ، من حماس عارم وغضب لاهب لدى اي اتجاه كان يحكم بانه يخالف الماركسية الصحيحة ، فيهب للوقوف في وجهه . فهو يطالب كل واحد ممن يعتبرهم ماركسيين صرحاء ، حريصين على خدمة قضية الثورة ، رؤية صحيحة كل الصحة فيما يتعلق بالمعرفة والمادة والديالكتيك. الخ . فاذا لم تكن جدليا ماديا ، واذا كنت في الفلسفة تتبنى وجهات نظر شخص مثل ماخ فانك بذلك تخون حزب الثورة ولا ينتظرك الا الطرد .

وهكذا عندما حاول لوناتشارسكي مع انه عضو في البولشفيك ، ان يقيم حوارا حول البحث عن الله وعن «صناعة» الله وقف لينين في وجهه محتدا رغم ما كانت تتسم به تلك المناقشات من طابع الالحاد التام : كان يدخل الاشكال في صفوف الكتلة الماركسية المتحدة وهو ما كان يكفي لتبرير ابعاده . ولا شك في ان المنشفيك كانوا يؤمنون بمثل لينين الاعلى النهائي نفسه ، ونذروا انفسهم مثله لخدمة الطبقة العمالية ، ولكنهم لم يكونوا يمثلون وحدة ، والثورة لم تكن تشكل ، في نظرهم كلاً خالٍ من الخطأ. كانوا يعقدون الامر وهو بالغ التجانس وذلك بأقوال يعرضون فيها ضرورة احداث الثورة البورجوازية اولا في روسيا ـ اذ لا يمكن للاشتراكية ان تتحقق دون اجتياز المرحلة الراسمالية ودون انتظار تطور الوعي العالمي دون ان نحسب حسابا لطابع طبقة الفلاحين الرجعيين .. وهكذا دواليك. ولم يكن المنشفيك يعلقون اهمية رئيسية على التصور **المتكامل** للعالم ، اذ لم تكن المادية الجدلية بالنسبة لهم عقيدة ، بعضهم كان مجرد وضعي بل وكان آخرون ، وهو ما يثير الذهول ، من اتباع الكانتية الجديدة neo - Kantiéns اي انهم مدافعون عن «فلسفة بورجوازية» . هذه الاتجاهات العديدة كانت تهدد باضعاف الارادة الثورية . اما بالنسبة للينين فالماركسية ، هي قبل كل شيء ، عقيدة ديكتاتورية البروليتاريا ، التي رفض المنشفيك الايمان بها في بلاد ذات اقتصاد زراعي . كانوا يريدون الاعتماد على الجماهير ، وان يكونوا ديمقراطيين ، وهي صفة لم يتحل بها لينين ابدا . فهو ، لم يكن يعترف بمبدأ الاكثرية ، بل بمبدأ الاقلية المختارة . وهذا ما دعا الى اعتباره متأثرا ببلانكي Blanqui . فالحقيقة انه وضع خطة الثورة ، واستيلاء الثورة على الحكم دون ان يعتمد بتاتا على هذا الوعي النامي لدى جماهير العمال وعلى عملية اقتصادية موضوعية . فالدكتاتورية كانت بالطبع تنتج عن تصورات لينين ، او انه بالاحرى ، لم يبن تصوره للعالم الا بالتطابق مع الدكتاتورية . فكان يؤكد الدكتاتورية حتى في المجال الفلسفي حيث لم يكن يعترف بأي تأثير على الفكر الا لتنظيم المادية الجدلية . كان هدف لينين الذي لاحقه بمثابرة مذهلة هو خلق حزب قوي يمثل اقلية منظمة تنظيما جيدا ، خاضعة لانضباط حديدي ، مستندة على تصور الماركسيين الثوريين **المتكامل** للعالم . ولا بد من ان يكون للحزب مذهب ليس في وسع اي كان تغييره ، وان يهيء دكتاتورية ، غرضها ممارسة سلطتها على مجموع شؤون الحياة . وكان تنظيم الحزب نفسه بمركزيته المفرطة قد صار منذ ذلك الحين دكتاتوريا على نطاق ضيق ، فكان

كل عضو فيه خاضعا لمركز هذه الدكتاتورية . وقد امكن للحزب البولشفي، الذي قضى لينين في انشائه سنين طويلة ان يصير نموذج التنظيم المقبل لروسيا : بل نظمت روسيا بالفعل وفقا لصورته . هكذا فان روسيا بأكملها ، ان الشعب برمته ، قد اخضع ، لا لدكتاتورية الحزب الشيوعي ، فحسب بل للدكتاتورية التي كان يمارسها الدكتاتور الشيوعي حتى على فكرها وضميرها . لقد كان لينين ينكر الحرية في داخل الحزب ، وكان هذا الانكار للحرية يمتد لينبسط ظله على البلاد بكاملها . وفي الحقيقة انها كانت دكتاتورية نابعة من تصور اعده لينين للعالم وتمكن من تحقيقه . وحده لانه كان يجمع بين سنّتين: سنة الانتليجنسيا الثورية في اتجاهاتها المتطرفة اشد التطرف والسنّة الروسية في الحكم ، في اشد اشكالها الاستبدادية . كان الاشتراكيون الديموقراطيون المنشفيك ، كالاشتراكيين الثوريين يتمسكون بالسنّة الاولى ، غير ان لينين ، اذ جمع فيه عناصر السنّتين اللتين كانتا طيلة القرن التاسع عشر في عداء مستميت ، كان يستطيع ان يرسم خطة تنظيم الدولة الشيوعية وان يحققها . ومهما بدا في هذا القول من مفارقة فان البلشفية كانت ثالث صورة ظهرت فيها السلطة الاستبدادية ، النزعة الامبراطورية الروسية ـ اذ كانت الاولى هي المملكة الموسكوفية والثانية امبراطورية بطرس . والبولشفية تركيب من ايفان الرهيب ومن ماركس. واسوأ ما فيها يتحدر من ايفان الرهيب وليس من ماركس ـ الذي كان ينهل ، على كل حال من ينابيع انسانية . والبولشفية هي حصيلة الاتحاد بين التطلعات الى عدالة اجتماعية والحاجة الى حكومة قوية : وكان هذا الاتجاه الاخير هو الذي تغلب . وقد نفذت الحكومة الجديدة الى الحياة الروسية ، في ثوب قوة نظمت تنظيما عسكريا . ولكن الحكومات الروسية القديمة كانت دائما هي ايضا منظمة تنظيما عسكريا . الا ان مسألة الحكم بقيت موضوعا اساسيا عند لينين وكل ما عداها يخضع لها ، وهذه النقطة هي التي تميز البولشفيك عن سواهم من الثوريين . فقد انشأوا دولة بوليسية ، شبيهة في نمط ادارتها بالحكومات الروسية القديمة . غير انه كان يجب لاخضاع جماهير العمال والفلاحين ، من امتلاك اداة اخرى غير مجرد القوة ومجرد الضغط ـ كان يجب التزود بعقيدة متجانسة ، بنظرة متجانسة للعالم ، فهي رموز اكدت التجربة قيمتها . كان الشعب في مملكة موسكو وفي الامبراطورية متماسكا ، بوحدة المعتقدات الدينية . وهكذا يجب على اي عقيدة وحيدة جديدة موجهة الى الجماهير الشعبية ان تفصح عن نفسها

برموز أولية ، فكانت الماركسية ، تبدو ، بعد ان حوّلت الى الروسية وكأنها تملأ تماما هذه الشروط . يقدم لنا كتاب لينين : **ما العمل ؟** وقد كتب عام ١٩٠٢ ، اي حين لم يكن الانشقاق بين منشفيين وبولشفيين وقد وقع بعد فائدة عظيمة في فهم التمهيدات المتعلقة بدكتاتورية البروليتاريا التي كانت هي دكتاتورية الحزب الشيوعي ، وهو مثل باهر على الجدل الثوري. وفي هذا الكتاب شن لينين حملة على المذهب «الاقتصادي» خاصة وعلى كل ما في الاعداد للثورة من دوافع اولية عفوية . فالمذهب الاقتصادي كان انكارا لتصور متكامل للعالم ، ولعمل ، ثوريين . وقد عارض لينين التيارات الاولية العفوية بوعي اقلية ثورية مطالبة بالسيطرة على العملية العامة . وطالب باجراء التنظيم من فوق لا من اسفل اي ان يكون على النمط المستبد لا على النمط الديموقراطي : وسخر من اولئك الماركسيين الذين اسقطوا من حسابهم امكان تطور عفوي في الوسط الاجتماعي . ولم تكن هذه الدكتاتورية دكتاتورية بروليتاريا فعلية التي اكدها لينين ، فانها كانت ما تزال ضعيفة عدديا في روسيا بعد ، بل كانت دكتاتورية فكرة البروليتاريا التي تؤمن بها اقلية ضئيلة . فالواقع ان لينين الذي كان ضد نظرية التطور منذ زمن طويل كان ضد الديموقراطية ، كان ماديا ولكنه لم يكن يعتقد في النسبية في اية درجة من درجاتها . فهو ينفر من النسبية نفورا شديدا ومن الشك الذي يعتبره من ظاهرات الروح البورجوازية . ولينين من ذوي الحكم المطلق ويعتقد في حقيقة مطلقة . ومن العسير على المادية ان تبني نظرية للمعرفة تقبل بالحقيقة المطلقة ولكن هذا لم يكن ليشغل بال لينين : وسذاجته العجيبة في الفلسفة تدعم هنا تشدد ارادته الثورية . فقد اعترف لا بالمعرفة او بالفكر كحقيقة مطلقة بل بهذه الارادة الثورية الجامحة ، وأراد تكوين الاشخاص على قياسها . فالماركسية المتكاملة ، الماركسية الجدلية ، هي الحقيقة الشاملة . حقيقة يجب ان تستخدم اداة للثورة ولتنظيم الدكتاتورية ومثل هذا المذهب الذي يفيد الحياة برمتها لا السياسة والاقتصاد فحسب بل والفكر والوعي والثقافة المبدعة كلها ايضا ، يجب قبل كل شيء ، ان يكون عقيدة وايمان .

كان تاريخ الانتليجنسيا كله تهيئة للشيوعية . فكثير من الملامح التي كانت معروفة من قبل ، ظهرت فيها بالنتيجة : كالتعطش الى العدالة والمساواة الاجتماعية ، وكراهية الراسمالية والبورجوازية ، والميل الى الاتجاه الوحيد الذي يظهر في تصور عام للعالم بقدر ما يظهر في تصور خاص للحياة ، والتعصب الطائفي ، والموقف الازدرائي والعدائي من

النخبة المثقفة ، ورفض الاعتقاد بالحياة الاخرى وانكار الروح والقيم الروحية ، واخيرا الدفع المتزايد الى المادية ، في طابع يكاد يكون لاهوتيا. هذه الملامح جميعها كانت تنسب الى الانتليجنسيا المتطرفة . واذا كان بعض بقايا الانتليجنسيا ما زالوا متمردين لم يتعرفوا على شبههم في اولئك الذين كانوا يهبون لمقاومتهم فهذا انحراف تاريخ ، فقدان للذاكرة يرجع الى رد فعل انفعالي صرف . فهذه الانتليجنسيا القديمة لم تطرح على نفسها قط ماذا تفعل اذا تسلمت الحكم ، فقد تعودت على النظر الى نفسها نظرة العجز وعلى انها مضطهدة ، اما الاستيلاء على السلطة وممارستها على الآخرين ، فأمر كان يبدو في نظرها فعلا غريبا ، مستهجنا . ومع ذلك كان الذين يمارسونها في الوقت الحاضر ، منبثقين عنها . وهذه مفارقة كانت الانتليجنسيا تستطيع بفضلها البقاء والتحول في الثورة المنتصرة. والحقيقة ان ثمة فئة منها اعتنقت الشيوعية فلاءمت بين حالاتها النفسية والظروف الجديدة اما الآخرون فانهم على العكس لم يقبلوا الثورة الاشتراكية ، متناسين ماضيهم الخاص .

كانت الحرب قد كونت نمطا جديدا ينزع الى نقل المناهج العسكرية الى الحياة وتنسيق هذه الحياة بمقتضاها ويميل الى ممارسة الضغط المنظم — وهو نمط من الناس مغرم في السلطة ، شديد الاحترام للقوة . وهذه ظاهرة عالمية قد تكشفت عنها الشيوعية والفاشستية في نفس الوقت . وقد راينا في روسيا بروز نموذج جديد للانسان الطبيعي Anthropologique وتعبيرا جديدا على الوجوه ، يختلف عن النموذج القديم في الانتليجنسيا: فكان العدميون الاوائل الذين ظهروا في الستينات يختلفون عن النموذج الانساني ، نموذج سابقيهم من مثاليّي الاربعينات ، الاكثر منه رخاصة . ورات انتليجنسيا ما قبل الحرب نفسها ، التي ما زالت مرتبطة من حيث نشأتها بال «واقعيين المفكرين» الذين ظهروا في العصر العدمي، وجها لوجه مع الثوريين تماما في مثل الوضع الذي وجد سابقوها انفسهم فيه من قبل ، وجها لوجه معها هي . ولكنها نتيجة لفقدان الذاكرة بتأثير الهوى ، لم تشأ ان تتذكر بأنها نفسها ، انحدرت من تشيرنشفسكي الذي احتقر هرزن ، بوصفه شخصا ينافس المثاليين المعتدلين في اعتدالهم . كان الشيوعيون يصفون الانتليجنسيا القديمة المتطرفة والثورية ساخرين ، بال«بورجوازية» ، كما كان العدميون والاشتراكيون في الستينات يصفون الجيل الآخر من الانتليجنسيا بال «نبلاء» وال«اعيان» ففي النمط الشيوعي الجديد استبعدت دوافع القوة والسلطة الموضوعات القديمة في الرافة

وحب العدالة . فثمة قوة نشأت ولسوف تأخذ في التدرج الى الفظاظة . كان هذا النمط الجديد من النفسية ، الصالح اشد الصلاحية لتنفيذ خطة لينين والذي يليق مادة لتنظيم الحزب الشيوعي ـ هو الذي سوف يسيطر على هذه البلاد الواسعة . لقد مثل اوساط العمال والفلاحين واجتاز الى ذلك من خلال التنظيم الحزبي والحزب . وهؤلاء الاشخاص الجدد ، الخارجون من الطبقات الدنيا كانوا غرباء عن الثقافة الروسية : كان آباؤهم واجدادهم اميين ، محرومين من كل تعليم ، يعيشون على الايمان وحده. كان هؤلاء الناس يكظمون في نفوسهم غيظا على ذوي الثقافة القديمة . فانقلب ما كانوا يكنونه ابان الانتصار الى شعور بالثأر . وهذا يفسر ، بسيكولوجياً ، اشياء كثيرة . فقد كان الشعب فيما مضى يقاسي من الظلم في مجتمع مؤسس على اذلال العمال واستغلالهم ، ولكنه كان يتحمل عبئه المؤلم برفق وصبر . ثم جاءت الساعة التي كف فيها عن الرغبة في تحمله ، واصاب حالته النفسية فيها تحول كامل . وهذه عملية جد نموذجية . حيث تستطيع الرقة والصبر ان تتحولا الى شراسة والى غضب ضار . وما كان لينين ليستطيع تحقيق خطته في الثورة والاستيلاء على الحكم دون تغيير كامل للاتجاهات النفسية في الشعب . وكان هذا التغيير شاملا حتى ان الشعب الذي كان يعيش على معتقدات لا عقلانية ـ خاضعا لقدر لاعقلاني ، تحمس فجأة لاخضاع الحياة بأكملها الى عقلانية ، فاعتقد بالآلة بدلا من اعتقاده بالله . وهكذا انتقل الشعب الروسي من عصر خضع فيه للارض حيث كان يعيش في ظل قوتها الصوفية الى عصر التقنّي ، الى عصر التكنيك حيث اعتقد بقوة الآلة غير المحدودة ، واعتبرها ، انسياقا منه مع فطرته القديمة ، كأنها طوطم . ومن الممكن ان يتصور الانسان مثل هذه التحولات في نفسية الشعوب .

كان لينين ماركسيا ، يؤمن في رسالة البروليتاريا المطلقة . وكان يؤمن بأن العالم يدخل في عصر الثورات البروليتارية . ولكنه كان روسياً وينفخ في سعير الثورة في روسيا ، في بلاد لها طابعها الفريد . وبفضل حس حاد بالاوضاع التاريخية شعر بأن ساعة هذه الثورة قد آذنت بفضل الحرب التي عجلت بتفسخ البناء القديم . وكان لا بد لاول ثورة بروليتارية من ان تجري في بلاد زراعية . وكان يشعر بأنه متحرر من كل ذلك النظام الذي كان يحاصره به الماركسيون ـ المنشفيك وهكذا كان يعلنها ثورة للعمال والفلاحين وجمهورية لهم . وعزم على استخدام طبقة الفلاحين من اجل الثورة البروليتارية ، ونجح في ذلك رغما عن المتمذهبين الماركسيين.

كانت هذه الثورة التي حققها ثورة زراعية اذاً ، قبل كل شيء ، استخدم فيها كثيرا من العناصر التي استقدمها الاشتراكيون الشعبيون Socialists - Populistes فدخلت بذور الاشتراكية الشعبية وآثار الانتفاضات الشعبية القديمة، بصورة متجددة في اللينينية، ولكن الاشتراكيين الثوريين ، الذين كانوا يمثلون التقاليد القديمة ، سرعان ما ظهروا انهم لا يفيدون في شيء وانهم فاسدون : كان لينين يفعل أفضل مما يفعلون ويعطي اكثر مما يعطون . وكل هذا كانت تصاحبه مناداة باخلاق ثورية جديدة ، متطابقة مع نموذج نفسي متجدد ومع احوال جديدة ، في آن واحد ، وهذه الاخلاق لم تكن اخلاق الانتليجنسيا القديمة ؛ وبوصفها اقل انسانية فانها لم تكن تتردد في ارتكاب ضروب القسوة . ذلك ان لينين كان معاد للنزعة الانسانية كما كان معاد للنزعة الديموقراطية ، فكان بهذا رجل عصر جديد ، عصر الثورات ، لا الثورة الشيوعية فحسب بل الفاشستية. اذ سوف يقلد موسوليني وهتلر فيه هذه الصفة ، وبعده سوف يحقق ستالين النمط الكامل للزعيم الدكتاتور . واذا كانت اللينينية بعيدة عن ان تكون فاشستية فان الستالينية قد بدت تقترب قليلا من هذه الصيغة .

في عام ١٩١٧ اي بعد خمسة عشر عاما من صدور كتيّب **ما العمل** ، اصدر لينين كتابه الدولة والثورة ، وهو كتاب ربما كان ، من أهم ما خطت يراعه . عرض فيه لينين الخطة التي اعدها منذ زمن طويل لتنظيم الثورة والسلطة في الدولة . وليس المدهش هو انه وضع الخطوط الكبرى في الخطة وانما المدهش هو انه حققها وانه تنبأ بوضوح في اي السبل سوف يتم كل شيء . وفي هذا الكتاب وضع لينين نظرية دور الدولة الذي يجب ان تقوم به في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية وهي مرحلة قد تطول وقد تقصر . وعبثا نبحث عن مثل هذه النظرية في ماركس لانه لم يتوقع بصورة محسوسة تحقيق الماركسية ولم ينظر في الاشكال التي كان لا بد لدكتاتورية البروليتاريا من ان تتخذها . الا اننا رأينا بأن الماركسية في نظر لينين ، كانت لا تصلح ، قبل كل شيء ، الا كنظرية لدكتاتورية البروليتاريا هذه وكمنهج للوصول اليها . وكان يمكن استخلاص نتائج اخرى من ماركس ، وعلى وجه الخصوص نتائج فوضوية. ولكن لينين لا يقر هذه النتائج ، بل اعتبرها ضارة بتنظيم السلطة الثورية، على النحو الذي يفهمه . ولا شك في ان معنى الدولة يجب ان يتلاشى في المستقبل ، ولكن دور الدولة في المرحلة الانتقالية يجب ان يتزايد . اذ ان دكتاتورية البروليتاريا ، اي دكتاتورية الحزب الشيوعي ، تقتضي حكومة

اشد قوة واكثر من الحكومات البورجوازية . وطبقا للنظرية الماركسية كانت الدول تمثل دائما سيطرة طبقة من الطبقات وبغي الحكام على المستذلن والمستغلين . ومصير هذه الدول الى الزوال اذا ، حالما تلغى هذه الفروق الاجتماعية بفضل ظهور المجتمع المنظم . فالدولة موجودة ما دامت **الطبقات** موجودة . ولا يمكن ان يكون زوالها زوالا كاملا نتيجة مباشرة لانتصار البروليتاريا الثورية . ولم يعتقد لينين قط ، ان المجتمع الشيوعي ، بعد ثورة اكتوبر كان قد اقيم نهائيا في روسيا . كان الامر ما زال يحتاج بعد ، في المستقبل الى عملية تمهيدية طويلة والى معركة ضارية فالحكومة المالكة لسلطة مركزية لا غنى عنها في هذه المرحلة التمهيدية ، التي ما يزال المجتمع فيها منقسما الى طبقات لكي تؤمن دكتاتورية البروليتاريا على الطبقات البورجوازية ولكي تقهرها وتكتم انفاسها . ويعلن لينين ان الدولة «البورجوازية» يجب ان تفنى بالعنف الثوري ، ولكن الحكومة البروليتارية التي تشكل على انقاضها ، مصيرها هي نفسها الى الاضمحلال كلما يتحقق المجتمع الشيوعي ، المجتمع الخالي من الطبقات . فالماضي شهد اخطاء البروليتاريا من قبل البورجوازية، والمرحلة الانتقالية، مرحلة الدولة البروليتارية التي تحكم دكتاتوريا ، يجب ان تشهد اضطهاد البورجوازية من قبل البروليتاريا : ولسوف ينفذ الموظفون اوامر العمال. وفي هذا الكتاب يعتمد لينين على انجلز ويستشهد به باستمرار ، كتب انجلز الى بيبل Bebel يقول : عام ١٨٧٥ : «ان البروليتاريا ، في المدة التي لا تبرح فيها بحاجة الى الحكومة ، لا تحتاج اليها لمصلحة الحرية بل لمصلحة سحق خصومها». وهذه الجملة تجعل من انجلز بكل وضوح ممهدا للينين . ففي راي لينين ان الديموقراطية ، ليست ضرورية للبروليتاريا ولتحقيق الشيوعية ، فليست هي الطريق الذي يقود الثورة البروليتارية. ولا يمكن للديموقراطية البورجوازية ان تتطور الى الشيوعية ، بل على العكس لا يمكن للشيوعية ان تنهض الا على حطامها. واذا كانت الديموقراطية تبدو نافعة وخطرة بعد انتصار الثورة البروليتارية فذلك تماما لانها تكون معارضة للدكتاتورية . فالحريات الديموقراطية تشكل عقبة في وجه تحقيق الشيوعية . ولا يعتقد لينين بأن لها وجودا خاصا ولكنه يرى فيها قناعا يستر مصالح البورجوازية وقادتها . اذ ان هناك دكتاتوريات موجودة ايضا في صميم الديموقراطيات البورجوازية ، دكتاتورية رأس المال ، ودكتاتورية المال . ولا شك في ان هذا الجانب كله من وجهات نظر لينين ينطوي على جزء من الحقيقة . ثم يضيف بأن كل ديموقراطية يجب ان

تموت بالاشتراكية . ولكن المراحل الاولى من ظهور الشيوعية سوف لا تعطي الحرية والمساواة : هذا ما يقوله لينين صراحة . وسوف تتكشف دكتاتورية البروليتاريا من هذا الواقع نفسه عن انها ظلم وانها ضغط قاسي . وعلى الرغم من صراحة الماركسية الا ان لينين اكد أولوية العامل السياسي على الاقتصادي . ومسالة السلطة القوية هي شيء اساسي في نظره . وخلافا لراي فقهاء المنشفيك . كان يرى في تاخر روسيا السياسي والاقتصادي فرصه لنجاح الثورة الاجتماعية . اذ ان تحقيق دكتاتورية البروليتاريا في بلاد اوتوقراطية . تجهل الحقوق والحريات المدنية . اسهل بكثير ، من تحقيقها في الديموقراطيات الغربية . وهي حجة على جانب من القوة ايضا . فان غريزة الخضوع المزمنة تلعب دورها عندئذ لصالح الدولة البروليتارية كما توقع ذلك من قبل كونستانتين ليونتيف Constantin Leontiev والدولة المتخلفة صناعيا ، حيث يملك راس المال مجالا قليل الاتساع ، يكون تكيفها وفقا للخطة الشيوعية اسهل كثيرا من دولة اخرى . ونجد لينين يقف في صف التابعين لتراث الاشتراكية الشعبية عندما اكد بان الثورة في روسيا يجب ان تحدث بصورة اصيلة . وليس وفقا للنمط الغربي ، بل ليس . نهائيا . وفقا لراي ماركس او على الاقل ، وفقا للفهم المذهبي لماركس .

ولكن كيف ولماذا ينتهي الضغط والعبودية وغياب اية حرية مما يميز مرحلة المسيرة نحو الشيوعية ــ مرحلة دكتاتورية البروليتاريا ؟ وجواب لينين على هذا بسيط وبسيط للغاية . يجب المرور اولا وقبل كل شيء بهذا النظام وهذا الضغط اللذين تفرضهما من فوق دكتاتورية حديدية . وسوف لا يمارس الضغط على بقايا البورجوازية القديمة فحسب بل يجب توخيها على جماهير العمال والفلاحين وعلى البروليتاريا نفسها التي نعترف بها دكتاتوريا .

ثم يستمر لينين قائلا انه سوف يأتي اليوم الذي تعتاد الجماهير فيه المحافظة على الاحوال الاولية للجماعية Collectivité الاجتماعية والذي ستتكيف فيه مع الظروف الجديدة : وعندئذ لن يظل اي اثر للضغط الذي استبقي اضطراريا ، ويمكن للدولة ان تختفي من الوجود وان تنتهي مرحلة الدكتاتورية . وهنا نلتقي بظاهرة من اطرف الظواهر : لم يكن لينين يؤمن بالانسان ولم يكن يعترف فيه بأي مبدأ داخلي ولم يكن يعتقد لا بالروح ولا بالحرية الروحية . ولكنه كان يعتقد اعتقادا لا حدود له بالنظام الاجتماعي للفرد وكان يعتقد ان تنظيما اجتماعيا مستبدا يستطيع ان يخلق رجلا

جديداً ، هو الانسان الاجتماعي الكامل ، يكون جديرا بعدئذ بالاستغناء عن تلك السلطة . وكان يحسب كماركس ان الانسان الجديد سوف «يصنع في المصانع» . وها هنا تظهر طوباوية لينين ــ وهي طوباوية يمكن ان تتحقق وقد تحققت . بيد ان بصيرته ، كانت في نقطة ما ، مخالفة لما حدث : انه لم يتبين من قبل ان استغلال الطبقات يمكن ان يأخذ اشكالا جديدة كل الجدة ، تختلف عن اشكال الاستغلال الرأسمالية . اذ بتعزيزها للسلطة الحكومية ، تعمل دكتاتورية البروليتاريا على تطوير بيروقراطية فائقة الضخامة ، تجثم كالكابوس ، وكنسيج العنكبوت تغطي البلاد كلها . بيروقراطية سوفييتية اقوى من البيروقراطية القديمة القيصرية . طبقة مميزة جديدة تستطيع بدورها استغلال الجماهير الشعبية بقسوة . وهذا عين ما حصل . فالعامل العادي يتقاضى وسطيا ٧٥ روبلا في الشهر ولكن موظفا سوفييتيا «مختصا» يتقاضى ١٥٠٠ روبلا . وهذا التفاوت الهائل يسمح به في دولة شيوعية . الا ان روسيا السوفييتية بلد تسود فيه رأسمالية الدولة ــ وهذه الراسمالية لا تقل قدرة في الاستغلال عن الراسمالية الخاصة . صحيح انها مرحلة انتقالية ولكن هذه المرحلة الانتقالية يمكنها ان تطول الى ما لا نهاية . لان الذين يتربعون فيها على كرسي الحكم سوف يكتسبون عادة في سلطتهم غير المحدودة ، فلا يرغبون في اجراء تلك التغييرات التي لا مناص منها من اجل التحقيق النهائي للشيوعية . وسوف يصبح الحكم غاية بذاته . ويكافح الناس في سبيل الاحتفاظ به ناظرين اليه على انه غاية لا وسيلة . وقد غابت هذه النتائج عن تقديرات لينين فبدا في هذا المجال طوباويا ــ وساذجا . لقد سلكت الحكومة السوفييتية ككل حكومة استبدادية ، فاستخدمت وسائل الكذب والضغط نفسها ، واستعانت قبل كل شيء بجهازها البوليسي، وبجيشها. اما ما يتعلق بسياستها الخارجية فانها تشبه شبها دقيقا ديبلوماسية الدول البورجوازية . كانت الثورة الشيوعية ثورة روسية صميمية تعبر عن الحقيقة الروسية ، ولكن معجزة الحياة الجديدة لم تحدث ، فما زال آدم القديم باقيا ، وما برح يتصرف الا انه قد اصطنع مظهرا خارجيا آخر فحسب . وقد نمت الثورة الروسية تحت راية الماركسية ــ اللينينية لا تحت راية الاشتراكية الشعبية حافظة التقاليد القديمة ، ذلك انه في لحظة حدوث الثورة فقدت الاشتراكية الشعبية تكاملها وطاقتها الثوريتين . وكان يمكنها بعد ان تشتتت قواها وبددت، ان تلعب دورا في الثورة البورجوازية، لانها كانت تدعو الى مبادىء الديموقراطية اكثر من دعوتها الى المبادىء

الاشتراكية ، ولكنها كانت عاجزة عن ان تلعب دورا في ثورة اكتوبر، الثورة التي كانت ثمارها الاشتراكية والشعبية بكاملها قد نضجت وحان قطافها. لقد قنعت الماركسية اللينينية بأخذ جميع العناصر التي كانت تستطيع ان تخدمها في الاشتراكية الشعبية ولكنها نبذت منها نزعتها الانسانية الكبيرة ورهافتها الاخلاقية بوصفهما عقبتين في الطريق الى السلطة . فالسادة الجدد ، هم اقرب في النطاق الاخلاقي ، الى الحكم الاستبدادي القديم .

- ٢ -

كل حكم على الثورة الروسية يقود بالضرورة الى الحكم على الثورة بصورة عامة باعتبارها ظاهرة اساسية ، وبالتالي ، روحية ، في مصير الشعوب . والحكم عليها من وجهة نظر اخلاقية وعقلانية يكون عقيما تمام العقم . كما يكون من العقم ان نحكم بهذه الطريقة على الحرب التي تشبهها من وجوه عديدة . فالثورة هي لاعقلانية ، وتكشف عن تفوق القوى اللاعقلانية في التاريخ . ولا شك في ان صانعي الثورة يستطيعون المجاهرة عن تبصر ، بنظريات عقلانية ، والقيام بالثورة باسم هذه النظريات ، الا ان الثورة تظهر دائما عرضا لانطلاق القوى اللاعقلانية من عقالها . فهي تعني، من جهة ، انه لم يعد لوجود النظام القديم اي سبب يبرره ، وان الثورة نفسها ، من جهة أخرى ، تتحقق بفضل خلق تيار شعبي لاعقلاني . ويعني المنظمون الثوريون دائما بترشيد هذا التيار اللاعقلاني للثورة وجعله عقلانيا في حين يكونون ، في الحقيقة ، مقادين به . كان لينين عقلانيا واثقا من نفسه يؤمن في امكانية ترشيد الحياة الاجتماعية وجعلها عقلانية بصورة نهائية . ولكنه كان رجل القدر ، رجل القضاء ، اي رجل اللاعقلانية في التاريخ . ان الثورة هي قضاء وقدر .

ومن الممكن النظر الى كل ثورة من ثلاث زوايا مختلفة :

١ ــ من وجهة النظر الثورية المضادة للثورة ، التي يتبناها من يشارك فيها مباشرة .

٢ ــ من وجهة النظر الموضوعية ، التاريخية العلمية ، وهي وجهة نظر الشهود الذين رأوها بصورة واعية ، ولكنهم لم ينخرطوا فيها مباشرة .

٣ ــ واخيرا من وجهة نظر دينية ، متأثرة بجزع الرؤيا Apocalyptique وبفلسفة التاريخ،وهي وجهة نظر من يحملون الثورة في داخلهم ويعيشونها

بألم ، ويحضون انفسهم كل يوم على مكافحتها .

ان الثوريين والمعارضين للثورة هم اقل الفئات الثلاث فهما للثـــورة ونفاذا الى صميم معناها . ولا شك في ان الثوريين لا يفهمون عادة هـــذا المعنى العميق ، الذي لا تكفي العقلانية للكشف عنه ولكنهم ما داموا يتجهون الى المستقبل ، يمكنهم ان يكونوا اداة لتحقيق هذا المعنى المستتر ، وان يكونوا اداة لتحقيق عدالة اسمى . اما اعداء الثورة فما داموا غارقين في الماضي بصورة واهنة ومجدبة فانهم اناس محكوم عليهم بعدم القابلية للاصلاح وبالمكابرة في الخطأ . عاجزين عن فهم أي شيء .

يستطيع المؤرخون الموضوعيون تفسير كثير من الوقائع بنقد المصادر، وباكتشاف الاسباب التاريخية الثانوية ولكنهم لا يستهدفون مجرد التعمق الى جوهر الثورات . قائلين إن هذا من شان الفلاسفة . مكتفين . من جانبهم ، بالتأكيد على أن الثورة كانت حتمية ومحددة بالحوادث السابقة عليها . ولكن فلسفة التاريخ نفسها لا تستطيع معالجة هذه المسألة الا اذا كانت دينية في مرتكزاتها . اذ ان فلسفة التاريخ بمعنى من معانيها ، هي علم لاهوت التاريخ . لها دائما ، بوعي او بغير وعي ، هذا الاساس الديني: وهو اساس ديني ، يتخذ منحى الرؤى الانجيلية . أي الجزع من نهاية العالم ، لان الفكرة الثورية في نظر فلسفة ـ التاريخ الدينية ، في نظر فلسفة ـ التاريخ المسيحية تنطبق على رؤيا القديس يوحنا ، أي على ابوكاليبس داخلية في التاريخ . ورؤيا يوحنا أي l'Apocalypse ليست مجرد وحي عن نهاية العالم وعن يوم الحساب الاخير ولكنها وحي كذلك عن قرب نهاية مقبلة في اطار الازمنة التاريخية ، وعن قرب حكم على التاريخ في داخل التاريخ نفسه وعن بدهية اخفاقه . فكيف يمكننا ان نتصور تقدما متصلا في عالمنا الاثم ، الفاسد حيث يتراكم قدر عظيم من الشرور ومن السموم ، في عالمنا الذي ينطوي على علة التفسخ ؟ اذ غالبا ما يحدث ان تتلاشى القوى الخلاقة داخل المجتمعات : وهذا هو مصدر الحكم الذي لا يهدأ بادانتها . ثم تظهر اشارة الثورة المحتومة في السموات ، وتنفتح الهوة في الزمن ، وتتوقف الديمومة ، ونشاهد عندئذ هجوم القوى التي تبدو في الظاهر لاعقلانية ولكنها اذا نظر اليها من وجهة نظر عليا ، تنبىء بحكم ما له حس سليم على ما لم يبق له حس سليم ، وبانتصار العقل على الظلام . وهذا المعنى للثورة هو الذي تبينه جوزيف ميستر

Joseph de Maistre (١) الرجعي ، الذي لم يكن رجعيا عريقا . فالثورة لها معنى وجودي ontologie . وهي في جوهرهـا تشاؤميـة لا نفاؤلية وهي موجهة ضد الذين يعللون النفس بأن المجتمـع يمـكن أن ينعم بهدوء دائم على حين ان السم يتراكم فيه وان الشر والظلم يسودانه تحت اقنعة سطحية من اشكال الماضي وصوره المثالية . فكيف نستطيع أن نفهم عقلية هؤلاء المسيحيين الذين يعتبرون الثورة امرا منكرا بسبب طغيانها وما تريقه من دماء ، ولكنهم في نفس الوقت يقرون الحرب ويبررونها اخلاقيا ؟ ومع ذلك فالحرب اشد وطأة ايضا واشد قوة واكثر اراقة للدمـاء . واذا كانت الثورة خطيئة ، فالحرب خطيئة اسوا مائة مرة . افليس التاريـخ بأكمله ، في حدود معينة مجرد استبداد ودماء مهراقة ؟ وهـو من هـذه الناحية الرئيسية يصعب قبوله على ضمير مسيحي مخلص . ان المفارقـة الاساسية تكمن هنا : فالمسيحية هي تاريخية ، وهي ثورة اللـه ليس في الطبيعة وانما في التاريخ الذي تعترف بمعناه . وفي نفس الوقت يستحيل عليها أن تستقر في التاريخ ، وان لا تحكم على سلطته المطلقة وان تلقي عليه نظرة متفائلة . ولان التاريخ لم يحقق قط عدالة المسيح اليس مطالبـا بأن ينتهي وبأن يمثل امام محكمة الله التي لا بد من ان يكشف هو نفسه عنها؟ والثورة هنا هي رؤيـا يوحنـا في نهايـة العالم l'Apocalypse ولكنها رؤيا ناقصة . فهي تلك المحكمة التي تعقد داخـل التاريـخ لتحصى عليه اخطاءه . شبيهة بالموت ، او بالاحرى هي مرور عبر الموت ، نتيجـة حتمية للخطيئة . فاذا كانت نهاية التاريخ يجب أن تدهمنا بغتة ، واذا كان العالم فيما وراء الموت يجب أن يصير الى البعث ، كذلك في داخل التاريخ، في داخل حياة الانسان الفردية ، يجب ان يظهر ، بصورة دورية ، مخـرج أو اجل ، يولد الانسان بعده مرة ثانية في حيـاة جديـدة . هـكذا يفسر الاشمئزاز من الثورة ، وما تحدثه من قلـق شديـد ، ووجههـا المميت ، الدامي . وهي كالحرب تكون الخطيئة والشاهد على الخطيئة والحكم عـلى الخطيئة في آن واحد ، وهي قدر التاريخ ومصيره الذي لا مفـر منـه . والثورة تأتي بقرار يحكم بالموت على القوى السيئة التي تسبب الظلم منـذ زمن طويل ، ولكن القوة المنصفة ، التي تصدر الحكم ، سوف تخلق بدورها الشر : فالخير ، وهو ليس في الثورة أكثر منه في التاريخ ـ غير قادر على

---

١ ـ نظرات في تاريخ فرنسا .

تحقيق الخير .

لقد نشبت الثورة في التاريخ المسيحي كحكم موجه الى المسيحية التاريخية ، الى المسيحيين ، الى انكارهم للتعاليم الاولى والى الصورة الهزلية caricature التي آلت اليها المسيحية على يدهم . لذلك يجب ان يكون للثورة معناها بالنسبة للمسيحيين بالذات ، ويجب عليهم ، هم أن يفهموها قبل اي كان ، فهي بالنسبة لهم دعوة . وتذكير بتلك العدالة التي لم يعرفوا الى تحقيقها سبيلا . فتمثل التاريخ هو في نفس الوقت كذلك ، تمثل للثورة وتمثل مغزاها الذي يشكل تمزقا كارثيا في مصائر هذا العالم المذنب . كذلك فان الامتناع عن اعطاء اي معنى للثورة هو امتناع عن اعطاء معنى للتاريخ . ولا شك في ان الثورة شاقة ، شنيعة ، وحشية ومتعسفة ، بمقدار ما هي آلام الأم وحشية ومضنية وعلى قدر ما يكون المخاض نفسه ، في حد ذاته ، وحشيا . ربما تحمل الثورة في طياتها هذا الانعكاس من سفر الرؤيا أكثر من اي شيء آخر . وعلى هذا فان الانتقادات التي وجهت اليها من وجهة النظر المعيارية normatif ومن وجهة النظر الدينية والاخلاق المعيارية ، هي انتقادات مضحكة ويرثى لها . فان كان وسواس الحقد هذا الذي يحرك في الواقع ، الاشخاص الفعالين في الثورة ، لا يمكن الا أن يوحى بالاشمئزاز ، فمن الحماقة أن يحكم عليهم من وجهة نظر الاخلاق الفردية . حقيقة ان الثورة الروسية تنطوي على الملامح النوعية لكل ثورة . الا انها في الوقت نفسه ثورة فريدة ، ناشئة عن عملية تاريخية روسية خاصة وعن طابع الانتليجنسيا ، الذي لا نظير له . فلم يسبق أن حدثت ثورة كهذه ابدا . فالشيوعية في الغرب ظاهرة من طراز آخر مختلف تمام الاختلاف . ففي السنوات الاولى من تاريخ النظام الجديد انتشرت اسطورة بين الجماهير كانت ترمي الى فصل البلشفية عن الشيوعية في نظر الشعب. فالبولشفية كانت هي ثورة الشعب الروسي الحقيقية ، فهي فيضان تياراته العميقة ، بينما الشيوعية كانت ستصير واردا اجنبيا ، غربيا ، وكانت ستأتي لتضع على الحركة القومية بصمة تنظيم استبدادي: كانت تتكلم بلغة بارعة وتحاول الترشيد : اخضاع اللاعقلاني الى عقلاني . وهذه الاسطورة مميزة جدا تكشف عن طبيعة الشعب الروسي الانثوية المستعدة دائما لنبذ مبدأ اللقاح الذكوري الذي يحمله اليها الاجنبي . الم يكن رد فعل هذا الشعب على هذا النحو بازاء بطرس ؟ ففي الثورة الروسية ، كما في كل ثورة بوجه عام، يجد الانسان ، قوى متضاربة ، متعددة مختلطة ينضم بعضها الى بعض

وتلتحم معا . فالجمهور الشعبي الذي تذهله الثورة يطرح عنه جميع قيوده. وعندئذ يوشك صعوده الى السلطة بأن يكون اشارة الفوضى chaos الظلمة على أن الجماهير الشعبية كانت « اقليات » مدربة ومنظمة . في الثورة الروسية بفضل ما قننّي لها بالفكرة الشيوعية ولوح لها بالراية الشيوعية . وهذه هي الخدمة التي لا يمكن انكارها التي اسدتها الشيوعية للدولة الروسية . فالفوضى التامة التي كانت تتربص بها ، قد اوقفت لصالح الدكتاتورية الشيوعية . فهذه الدكتاتورية هي التي اوجدت الشعارات التي قبل بها الشعب للاذعان . ذلك ان تفسخ الامبراطورية كان قد بدأ منذ زمن طويل . وكان النظام القديم الذي تعفن بأكمله سائرا نحو التفتت في الزمن الذي اندلعت فيه نيران الثورة . ثم جاءت الحرب تكمل عملية التفسخ . حتى اننا لا نستطيع القول بان ثورة فبراير (شباط) قد طردت الملكية من روسيا ، كانت الملكية قد سقطت من نفسها ، فلم يدافع عنها أحد ، ولم يعد لها اتباع . معتقدات الشعب الدينية، التي كانت تعضد العرش ، كانت هي ايضا آخذت بالتلاشي ، ربما بتأثير تلك العدمية التي اجتاحت الانتليجنسيا خلال الستينات والتي ، اخذت تتسرب شيئا فشيئا الى الجماهير منذ ذلك الحين . وكانت تلك الطبقة الشبيهة بالانتليجنسيا Semi - intelligentzia التي انبثقت من أوساط الشعب ، ملحدة الحادا عنيدا ومادية . وهكذا انتصر الجانب القاسي على الجانب السمح . وكان هذا هو الذي توقفت فيه الكنيسة عن القيام بدور رئيسي في الحياة الشعبية. ذلك ان وظيفتها كتابعة للسلطة الملكية وانحطاط الروح المسكونية ومستوى رجال الدين الثقافي المنحط ، ان هذه العوامل جميعها كانت لها اهمية حاسمة . فلم يعد ثمة قوى روحية منظمة . كانت المسيحية تجتاز ازمة عميقة، وظهور راسبوتين شاهد على هذه الازمة. ويبدو أن شخصيته كانت قدرية على مصائر روسيا . لقد نشأ راسبوتين من الشعب وكان ينتمي في الظاهر الى طائفة تعرف باسم الـ «chlysty» ويمتلك سلطة صوفية عجيبة. وقيل عنه أن لديه تلك الملكات التي تجعل الانسان ستاريت Staret وقديسا ولكنه لم يستغلها الا من أجل الشر . والحقيقة ان ظلمة الجهالة المرعبة التي كانت تخيم على الحياة الروسية تظهر هنا بصورة واضحة . وهذه ظاهرة غريبة اكثر تعقيدا مما اعتدنا النظر اليها ، واكثر من علاقاته مع القيصر هذا القيصر الاخير ، الذي كان مقدرا على مصيره المفجع ان يدفع بقسوة ثمن الشر الذي طفح كيله ، الشر الذي اقترفته اسرته بكاملها . كان نيقولا الثاني يؤمن بما لسلطته الامبراطورية من معنى

صوفي. كذلك فان الهوة التي كانت تفصله عن شعبه والعزلة المتزايدة التي وجد نفسه سجينها ، بالنسبة اليه . امتحانا اليما . كان يود الاتحاد بشعبه . ولكنه لم يكن يملك اي نقطة مشتركة بينه وبين هذا الشعب ، لوجود بيروقراطية ذات قدرة غير محدودة . كانت تفصله عنه . ومع ذلك فانه كان يعتبر نفسه « بصورة صوفية » القيصر الشعبي . واذا به يلتقي لاول مرة بهذا الشعب وكان هذا اللقاء هو لقاؤه مع راسبوتين . اذ كان راسبوتين اول من ينتمي للشعب ينال خطوة مباشرة في البلاط . واعتقد القيصر فيه وبخاصة القيصرة صاحبة النفوذ الهائل ، كما كان يمكن ان يعتقدا بتلك الجماهير المجهولة ، التي كان يشكل في نظرهما رمزا لها ويجسد حميتها الدينية . وكان القيصر وهو غارق وراء احداث حكمه المفجعة يبحث عن دعامة دينية ، ويتمنى تعضيد الكنيسة . ولكن طبقة الاكليروس العليا ، التي كانت ترتبط به بذله ومسكنه . كانت عاجزة عن تقديم هذا الدعم الذي يريده . غير ان راسبوتين وحده مثل في نظره تلك الاورثوذكسية الشعبية التي، كانت ، بوصفها غير خاضعة مباشرة للقيصر، تستطيع أن توفر له هذا الدعم . وكذا فان الامبراطور والامبراطورة الام ، اذ عقدا معه حلفا متينا ، كما لو كانا يتحالفان مع الاورثوذكسية ، قد وضعا الكنيسة تحت نفوذ راسبوتين عضو الـ « كليست chlyst » (١) القديم . فأخذ يعين الاساقفة . فكان ذلك اذلالا مميتا ، موجها للكنيسة وكان بالنسبة للملكية تخليا عن حقها بلا مقابل . وانتهى الامر براسبوتين الموجيك الذي اعمته اتصالاته بالبلاط ، فضل الطريق تماما ، الى تأليب العناصر المحافظة ضد البلاط بل اشدها رجعية . واثناء الحرب ولدى اقتراب ثورة ١٩١٧ كانت جميع الاوساط ، اللهم الا نفر قليل الاهمية من كبار البيروقراطية، وبعض اعضاء البلاط . قد انضموا الى صفوف الاعداء، ان لم يكن لاعداء الملكية بصفة عامة ، فعلى الاقل ، لاعداء القيصر والقيصرة بصفة خاصة . كانت نهاية السلالة الملكية قد حانت . ولا شك في انها ، في الماضي ، اسدت خدمات لروسيا وانها لعبت دورا ايجابيا في تاريخها . ولكن دورها قد استنفد اغراضه ومنذ زمن طويل . فبالضغط الذي اثقلت وطأته كاهل الكنيسة والحياة الروحية وبفكرة القيصر ـ البابا المنافية

---

١ ـ كان الكليست chlyst يشكلون طائفة شعبية مذهبية قائمة على الافراط في الاكل والعربدة مضطهدة من الحكومة وقد اخرجت راسبوتين من صفوفها بسبب حياته الخاصة .

للمسيحية وبالرباط الزائف الذي كان يربط الملكية بالكنيسة وبالعداء الصريح لقضية الثقافة، بهذا كله كان الاساس الديني الذي دعمت القيصرية وجودها به قد تزعزع ، كانت تجعل جميع الاحكام الانسانية والالهية تقف ضدها بالاجماع . وهو حكم بالاضافة الى الملكية ، اصاب الكنيسة من الناحية التاريخية . وسنعود الى معالجة هذه المشكلة في الفصل المقبل .

- ٣ -

لم تكن الثورة الروسية ممكنة الا من حيث انها ثورة زراعية agrire مستندة على استياء الفلاحين وعلى الحقد المزمن الذي يحملونه في صدورهم للنبيل مالك الارض ، للبيروقراطي .

ولم تكن ذكريات فظائع العبودية وامتهانها للكرامة الانسانية قد تلاشت بعد نهائيا من اوساط الفلاحين . كان الفلاحون على استعداد للاخذ بثأر العار الذي لحق بآبائهم واجدادهم . وكان المجتمع صاحب الامتياز الذي كانت تشكله حينئذ الطبقات ذات الشأن في البلاد وخاصة طبقة النبلاء بثقافته وطباعه ووجهه الخارجي ، بل وبلغته نفسها ، كان لا يزال غريبا كل الغربة عن شعب الفلاحين الذين كانوا يشعرون بأنهم ينتمون الى عالم مختلف . فثورة فلاحين ، وحدها ، لا ثورة اقتصادية واجتماعية فحسب بل الثورة التي كانت تمثل قبل كل شيء ثورة اخلاق ، هي التي كانت تستطيع أن تجعل دكتاتورية البروليتاريا أمرا ممكنا في روسيا ، أو بمعنى ادق ، فكرة دكتاتورية البروليتاريا: اذ ليس في وسعنا الكلام عن دكتاتورية طبقة من الطبقات . وهذه الدكتاتورية التي تدعى دكتاتورية البروليتاريا كان لا بد لها من أن تكون ثقيلة الوطأة على الفلاحين انفسهم سواء باشتراكية وسائل الانتاج الموجهة collectivisme أم بانشاء الكولخوزات Kolkhoses ولكن هذا الضغط الجديد كان يأتيهم من رجال ، منهم ، خارجين من الطبقات الشعبية الدنيا ، ولم يعد من يذيقهم عذاب هذا الضغط من السادة الاعيان ، اصحاب الامتياز ، القادمين اليهم من البرج العاجي . ولم يعد الفلاح يخاطب بلغة المفرد ، لغة التحقير ، او اذا تجاسر الانسان على ذلك فان من حق هذا الفلاح ان يرد بدوره بلغة المفرد . فقد وضعت الثورة الزراعية نهاية لحضارة قائمة على سيطرة النبلاء ، نهاية لعصر ارستقراطي . ومنذ زمن طويل لم تعد طبقة النبلاء تحتل المكانة

الرئيسية التي كانت وقفا عليها خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر، عندما قدمت للبلاد ليس فقط اعاظم كتابها بل وثورييها كذلك . وغـــداة التحرير وجدت نفسها وقد ضلت طريقها ، تزعجها البورجوازية الناشئة . فالشطر الاكبر من الارض رد الى الفلاحـين : غـير أن حالهم لم تتحسن بسبب انخفاض مستوى التقني الزراعي الكبير وفقدان التنظيم الاجتماعي، واستمر الاستياء يدوي في صفوفهم ، الى جانب ما يراودهم من احـــلام بتوزيع افضل لثروات المجتمع . وكان « السيد » ما يزال يمارس اولويـة معنوية ، ان لم تكن اقتصادية ، وكان لا بد لآثار النظـام الاقطاعـي مـــن الاستمرار في الواقع حتى ثورة ١٩١٧ . وبقي ما يشكل دعامـة النظـام القديمة كما هو وكان بقاء ضياع واسعة Latifundia في ايدي نفر قليل من الاعيان Magnats يثير غضب الفلاحين ، ولاسيما ان المالك الروسي الكبير barine لم يكن معتادا على ادارة املاكه بنفسه . وكان النزاع نفسيا ومعنويا اكثر منه اقتصاديا صرفا . ولقد سبق أن رأينا بأن معنى الحق الروماني للملكية لم يكن له وجود قط في ذهـن الفـــلاح الروسي . فالارض ، في نظره لله اي ليست ملكا لاحد بالمعنى الانساني . كذلك بدا له احتكارها لصالح الملاكين النبلاء ظلما كحق الرق سواء بسواء. كان الفلاح الروسي اذا قد اصبح مهيئا منذ زمن طويل لملكيـة جماعيـــة للارض، وخاصة فلاح روسيا الكبرى القديمة حيث كانت الوحدة الجماعية Communauté قائمة دائما بين الفلاحين . ومنذ تاريـخ طويـــل والفلاحون يحلمون بالـ «اقتسام الاسود» اي باعادة توزيع المناطق المنزرعة بينهم . حتى لقد اعتقدوا فيما مضى بأن تقسيما كهذا سوف يكون مهمـة القيصر. وقد اتخذ التنظيم الشعبي الثوري في السبعينات اسم «الاقتسام الاسود »بالذات لانه كان يجسد تطلعات الفلاحـين واحلامهم . ثم جـاءت الثورة الشيوعية تحقق التقسيم فانتزعت مجموع الارض من النبلاء ومـن الملاكين الخاصين . ولكل ثورة عظيمة كانت تحدث حركـــة تنقـــلات في الطبقات الحاكمة ، الموجهة لكي ترفع الطبقات الشعبيـة التـي كانت حتى ذلك الحين مذلة ومهانة وكانت تحفر عميقا في الارض فتكاد بذلك تنجـز ثورة جيولوجية . خاصة انها كانت تحرر ، في سبيل عمل تاريخي ، تلـك القوى العمالية والفلاحية ، المتراكمة منذ زمن طويل فاذا بها تصبـح قادرة اخيرا على الانطلاق في وضح النهار . وهذا مصدر ديناميكية الشيوعيـة واخبارها الساخنة . غـير أن المستـوى الثقافي كان يسير الى التدني ، بتوافق طبيعي من الظروف وتمشيا مع هذا المقدار من الحمـاس لان أيـة

ثقافة رفيعة لا يمكن لها الحفاظ على مستواها الا بواسطة نخبة كيفية وفي دائرة محدودة نسبيا . اما في الثورة الروسية فقد وصل البولشفيك الى السلطة بصورة وحشية وبوجه وحركات وحشية . لكن لكل ثـــورة في الحقيقة وجهها الذي يشبه وجه الوحش . والذين يحرصون على اخلاصهم للجمال لا يستطيعون أن يصبحوا فيها عمالا فعالين . زيادة على أن جمهور البولشفيك اتى معه باسلوب محدد تمام التحديد ، هو في جوهره اسلوب المعركة وهذا العامل العدائي من اهم العوامل لفهم الثورة الشيوعية فكان من مميزاتها ان الانسان لا يجد فيها بلاغة خطابية ولا مواقف مسرحية من تلك المواقف التي تكثر في ثورات اخرى ، خاصة في الثورة الفرنسيـــة . وهذا هو مصدر طابعها الاشد خشونة الا انه قد يكون اكثر فعالية .

تدين الثورة الشيوعية الروسية في تحديدها بالكثير للحرب . وكان لينين وماركس وانجلز ، قبله ، يعلقون اهمية قصوى على الحرب ، ويرون فيها اللحظة المناسبة لانفجار الثورة الشيوعية . ومن هـذه الناحيـــة ، يستطيع الانسان أن يتحقق من وجود ثنائية مفضوحة في وجهات نظـــر الشيوعيين، يمكن ان تفسر على انها مكر ونفاق او على انها كلبية cynisme وان كانوا هم انفسهم يعتبرونها موقفا جدليا Dialectique ازاء الواقع. فمن كان أشد سخطا على الحرب الامبريالية واكثر احتجاجا عليهـا مـــن الشيوعيين ؟ انهم هم ــ الذين لم يكونوا حينئذ يحملـون اسم الشيوعيين ويمثلون الجناح اليساري في الاشتراكي ــ الديموقراطي الدولي ــ الذين كانوا يريدون ايقافها او على الاقل كانوا يزعمون انهم يريدون ذلك . ومـع ذلك فان الشيوعيين ، في روسيا ، هم الذين انتفعوا من الحرب ، وجلبت الحرب اليهم النصر . كان لا بد للشيوعيين أو الثوريين الدوليين مـن أن يتبينوا بوضوح ، وهم يحتجون على الحرب العالمية ، أن هذه الحرب كانت مناسبة لثورتهم ولن تكون الا كذلك . ولا اعتقد أن أحـدا يستطيـــع ان يتهمهم على هذا التوافق بالزيف أو عدم الاخلاص . فاذا كان ثمة من كذب فهو كذب الجدل (الديالكتيك) . فالماركسية تعتقد ، بصورة عامـة ، أن الخير يتحقق من خلال الشر والظلام . وهذا هو الموقف الذي تتبناه مـن الرأسمالية ، فهي اذ ترى أنها تكون الشر الاساسي تعتبرهـا في الـوقت نفسه مرحلة ضرورية للوصول بالاشتراكية الى النصر . ففـي مصانـــع الرأسمالية تتكون وتتهيأ انسانية المستقبل القوية . وما اراده الشيوعيون ان يستقر في أذهان الجماهير هو أن الحرب بين الدول الرأسماليـة شر مريع ، وان هذه الحرب تجعل التمرد ضرورة لا بـــد منهـــا : فاذا كان

الشيوعيون ارادوا الحرب ويريدونها الان فلم يريدوها حربا بين القوميات بل حرب الطبقات. ولا شك في ان الثورة كانت لا بد من ان تقع في روسيا، ولكننا اذا سلمنا بأن الاحداث كانت غير هذه الاحداث فان الثورة كانت تتخذ فيها مجرى مختلفا . وهكذا خلقت الحرب التعيسة انسب الظروف لانتصار البولشفيك فقد راينا ان الروس يجنحون بطبيعتهم الى التطرف ، لذلك كان طابع الثورة المتطرف يمكن ان يصبح مقبولا . كانت الخصومات والانشقاقات قد خلقت فيما بينهم منذ زمن طويل جوا من التوتر الشديد . ولكن الحرب وحدها استطاعت ان تصوغ وتحقق النموذج البولشفيكي المنتصر والفاتح . وربما اوجدته من خبرات ومناهج جددت نمط انسان الانتليجنسيا القديم . وانتشرت في البلاد الحنكات التي ولدتها الحرب . وظهر الشاب العسكري المدرب : وكان هذا النمط . على عكس من تقدمه من اعضاء الانتليجنسيا ، واضح العناية بحلاقته ، شديد التأنق بلباسه ، يمشي مشية قوية وثابتة ، يدل مظهره كله على مظهر الفاتح الذي لا يحفل بالوسائل التي يستخدمها ، وهو دائما على استعداد لاستعمال القوة ، تدعمه ارادة من السلطة ومن القوة لا بد وان تقوده الى الصفوف الاولى . وهو لا يريد ان يكون هداما فحسب بل بناء ومنظما . ولم تكن الثورة الشيوعية لتستطيع ان تحدث الا بهذا الفتى الفلاح ، العامل او الشبيه بالانتليجنسي Semi - intelligentzistes لا بمثقف ، الايام الخوالي ، الحالم ، الشفوق ، الذي كان دوما مستعدا للتعاطف الانساني . لذلك من المهم جدا ان نتذكر بأن الثورة الشيوعية الروسية قد ولدت في الشقاء ومن الشقاء ، لا من وفرة خلاقة للقوى . وفضلا عن ذلك الا توجب الثورة دائما الشقاء وازدياد الحلكة في ظلام الماضي ؟ وليس أشد هولا ، في الحقيقة من هذه الحرب التي تنتهي الى التفسخ ومن هذا التفسخ ، داخل هذا الجيش الضخم ، الغني بملايين الرجال . وبعملية مرعبة من التفكك كانت روسيا تجد نفسها وقد وضعت وجها لوجه امام الظلمة والفوضى . ولم يعد ثمة احد يؤمن بالحكم بل لم يكن ثمة احد يعتقد في وطنية الحكومة فكان يشك فيها بأنها تتعاطف مع الالمان سرا وتأمل في سلام منفرد الا أن الحكومة التحررية الديموقراطية الجديدة ، التي جاءت بها ثورة فبراير (شباط) الى الحكم ، اعلنت مباديء انسانية مجردة وعناصر مجردة من القانون تفتقر الى اية قوة منظمة وخاصة الى الطاقة التي تلهب الجماهير . واستندت الحكومة الموقتة الى الجمعية التأسيسية التي كانت ترتبط بوجودها مذهبيا ــ وفي هذا الجو من التفسخ ومن الظلمة ومن الفوضى ،

ارادت الجمعية التاسيسية بدافع من شعور جدير بالثناء ، أن تتابع الحرب للوصول بها الى نهاية ظافرة ـ ولكنها ارادت ذلك في الوقت نفسه الذي كان الجنود فيه مستعدين للهرب من الجبهة وتحويل الحرب القومية الى حرب اجتماعية . وكان وضع الحكومة المؤقتة باعثا على اليأس الى درجة يصعب فيها ان يحكم على عملها او ان يدينه بقسوة شديدة . حقا لقد كان كيرنسكي رجل الثورة في مرحلتها الاولى ، او في المرحلة التي تسبق الثورة . لكننا لم نر ابدا في مد ثورة بلغت نضجها وخاصة اذا كانت الثورة نتيجة لحرب ، رجالا من ذوي المباديء المعتدلة ، تحرريين وانسانيين ، ينتصرون . فالمباديء الديموقراطية تطبق زمن السلم . اما في المرحلة الثورية فان الرجال الذين يملكون مزاجا متطرفا هم الذين يتغلبون . رجال ينزعون الى الدكتاتورية وجبلوا من اجلها . وكانت الدكتاتورية وحدها هي التي تقدر على ايقاف عملية التفكك النهائي وتحول دون انتصار الظلمة والفوضى . وكان لا بد من أن يقدم للجماهير المتمردة الشعار الذي كانت تقبل باسمه الانصياع للنظام ، وكان الموقف يتطلب شعارات تكون لها قوة للعدوى . وفي هذه اللحظة الحاسمة كانت الحركة البلشفية وحدها التي اعدها لينين منذ زمن طويل تمثل القوة القادرة على تصفية النظام القديم من جهة ، وعلى تنظيم العهد الجديد من جهة أخرى . وكانت البلشفية وحدها تبدو جديرة بالسيطرة على الموقف . وكانت هي وحدها توافق غرائز الجماهير وتسلسل الوقائع الحقيقي في آن واحد . وقد عرفت ديماغوجيا ، أن تستخدم جميع العناصر وعرفت استخدامها لغايات انتصارها ، والاستفادة من ضعف الحكم التحرري والديموقراطية ومن عدم كفاية شعاراته : استفادت من الاستحالة البديهية لمواصلة الحرب ، هذه الحرب التي لم تكن تثير اي صدى في اي مكان ، فأعلنت السلم . وافادت من انعدام التنظيم الاقتصادي ومن استياء الفلاحين فاعادت اليهم الارض، وبهذا ازالت ما بقي من آثار الاقطاع وامتياز طبقة النبلاء. وافادت في اقامة حكومة استبدادية من التقاليد الروسية فأسست في مكان الديموقراطية التي لم تكن بعد قد تمكنت من الطباع دكتاتورية اكثر شبها بالقيصرية القديمة . وافادت من خصائص النفس الروسية التي تتعارض في كل شيء مع المجتمع البورجوازي المعاصر : تدين هذه النفس وديناميكيتها وتشددها ، وبحثها عن العدالة الاجتماعية وعن مملكة الله على الارض ، وميلها للتضحية ، وجلدها الخارق في تحمل الالام وكذلك استعدادها لسلوك مسلك الفظاظة والقسوة . واستغلت اعتقاد الشعب

الذي لا يزال باقيا ، وان كان لاشعوريا ، والايمان بمصائر روسيا الخاصة. واستغلت الشقاق التاريخي بين الشعب والدوائر المثقفة ، وحذر الجماهير الشعبية من الانتليجنسيا ثم سحقت هذه الانتليجنسيا ، التي لم تكن تخضع لها ، دون اكتراث . وعملت البولشفية على ادماج الشعبية والطوائف الاخرى في صفوفها ، ساعية الى تحويلها وفقا لمتطلبات عصر جديد. فهي تناسب بصورةمدهشة تلكالنزعة الى الجماعية collectivisme ذات الاصول الدينية والتي بقيت دائما مستندة في هذا الشعب الذي ظل المعنى الروماني للملكية والحق البورجوازي حرفين ميتين بالنسبة له . وافادت اخيرا من انهيار فكرة الابوة ومن اهتزاز العقائد القديمة . وقد حاولت بالقوة ، من اعلى ، ان تشيد اسس ثورة جديدة كما فعل بطرس في ايامه من قبل . فاي شيء اسهل من نكران حرية فردية ، ما زالت بعد غير معروفة لدى الجمهرة ، ولم تكن الا امتيازا مقصورا على بعض الاوساط العليا ، والتي لم يكن الشعب يقبل ابدا بأن يقاتل من اجلها ؟ وفي سبيل اية مقاصد ؟ من اجل المناداة بضرورة تصور شامل ، كامل للعالم ، وتصور عقيدة لا حدود لقوتها كانت ترضى عاداته وحاجته الى الاعتقاد في رموز تحكم الحياة . فالنفس الروسية لا تميل الى النزعة الشكوكية ، والمذهب التحرري النقدي يلائمها اقل مما يلائمها اي مذهب آخر . ولكننا نجدها تنتقل ، بدون جهد ، من عقيدة كاملة الى عقيدة اخرى ، كاملة هي الثانية ومن عقيدة صحيحة (اورثوذكسية) الى عقيدة صحيحة . لذلك انسلت روسيا من العصر الوسيط القديم الى العصر الوسيط الجديد ، متحاشية المرور بالازمنة الحديثة ، وبمجالاتها الثقافية ، المنفصلة تمام الانفصال ، المتنوعة وتحرريتها وفرديتها وبانتصار البورجوازية والاقتصاد الراسمالي. وهكذا فان الروسيا المقدسة القديمة قد اخلت المكان بسقوطها ، لملكة مقدسة ايضا ، ليتوقراطية Théocratie تتجه الى الخلف . وعلى الرغم من أن الماركسية لم تكن ذات اصل روسي ولا طابع روسي الا انها سوف تقتبس هذا الاسلوب القديم فتتقرب من النزعة القومية slavaphilisme . ولسوف تكون الشيوعية الحمراء هي تحقيق حلم اصحاب النزعة القومية القديم فتنتقل العاصمة من بترسبورج الى موسكو ، الى داخل الكرملين . ولسوف تكون هي التي تتبنى من جديد جملة اصحاب النزعة القومية ودوستويفسكي : النور يشع من الشرق Ex oriente lux فمن موسكو ، من الكرملين ينبعث النور الذي

يجب أن يضيء ظلمات البورجوازية في الغرب . وفي نفس الوقت انشأت الشيوعية دولة استبدادية وبيروقراطية ، تعنى بالحكم لا على الاجسام فحسب بل وعلى النفوس ايضا ، طبقا لتقاليد ايفان الرهيب واتوقراطية القياصرة . ذلك ان الماركسية بعد ان نقحها الروس واعادوا سبكها اخذت تعلن سيادة العنصر السياسي على الاقتصادي وما للحكومة من قوة في تغيير حياة البلاد الاقتصادية بالطريقة التي تشاء . وحققت الشيوعية بمشاريعها الضخمة ، قابلية الروس ، التي كانت خيالية ولم تتوفر لها ابدا ، من قبل اية فرصة لتطبيقها عمليا . فقد اراد لينين أن يقهر الكسل الروسي ، الذي شجع طويلا جدا من قبل الارستقراطية والعبودية ، وأن يقهر امثال اوبلوموف ورودين ، من الناس « الذين يعيشون عالة على المجتمع». ويبدو انه قد اوصل هذا العمل الايجابي الى غايته من النجاح. فثمة عملية تحول كامل قد حدثت: هي تامرك الروس americanisationes de Russes اعداد نمط جديد للانسان العملي الذي توجه احلامه وخواطره الجامحة الى العمل فتعكف على البناء وعلى التقنية وفي بيروقراطية من نوع جديد. الا ان هذا التحول حافظ على كافة الخصائص والسمات التي تميز الروس كانما هي الاصل وان المعتقدات الشعبية لا تبدو الا مشتقة عن هذا الاصل. وهكذا يتجه الفلاحون الروس الى الانحناء امام الآلة وتمجيدها كانهم امام طوطم . والتكنيك الذي يتداولونه لن يكون بين ايديهم ، كما هو بالنسبة للناس في الغرب ، شيئا عاديا مبتذلا ، بل يتحول في نظرهم الى شيء صوفي يرتبط بمشروع يشبه الانقلاب الكوني . فالشيوعية الروسية في نظري ، ظاهرة قابلة للتفسير تماما ــ ولكن تفسيرا ، وليس تبريرا . فمثل هذا الطغيان الذي لم يسمع به من قبل ــ اذا ما اريد توضيح بواعثه ــ يتعلق بمحكمة اخلاقية . ومن المخجل والمخزي حقا ان يكون اكمل تنظيم واول تجربة لتحقيق الشيوعية هي الغيبيو (G.P.U.) Guepeou اي جهاز البوليس السياسي السري في الدولة ، اشد طغيانا بما لا يقاس من هيئة البوليس السري في النظام القديم التشيكا Tcheka وانه قد انشب اظفاره حتى في الامور الدينية. ولكن طغيان الحكم الشيوعي وفظاظته ليس ثمة ما يربطهما بالضرورة بنظام الشيوعية الاقتصادي ــ الاجتماعي ، اذ يمكن أن يتصور الانسان الشيوعية ، وهي تتعايش في **الحياة الاقتصادية** مع الشخصية والحرية الا ان هذه الفرضية تقتضي روحا مختلفة وايديولوجية اخرى .

ان الدولة الشيوعية الروسية هي المثل الوحيد ، في الوقت الحاضر ، للدولة الـ «شمولية» ، القائمة على دكتاتورية في تصور العالم وعلى مذهب صحيح (اورثوذكسي) تفرض على الشعب باكمله . فقد اتخذت الشيوعية في روسيا شكلا مفرطا من اشكال تمجيد الدولة. وجرى هذا، مع الاسف، متوافقا مع التقاليد الروسية القديمة في الحكم . كانت السلطة الملكية ممتدة الجذور في معتقدات الشعب الدينية ، فتعرف وجودها وتبرره بوصفها حكما تيوقراطيا Theocratie والحكومة الحالية . تشبه تلك باستبدادها ولها مثلها جذورها الضاربة في المعتقدات الشعبية وهكذا تبدو كما لو كانت تيوقراطية عكسية اي متجهة الى الوراء . وكانت الملكية الروسية تستند الى التصور الاورثوذكسي ، ولا تقبل أن تحيد عنه ... والدولة الجديدة استندت ، بدورها ، الى تصور كامل للعالم ، وتوجب هي ايضا تأييدا بلا حدود . ان مملكة مقدسة لا يمكن ان تكون شيئا آخر سوى دكتاتورية مستندة على الاورثوذكسية وعاملة على نبذ الهراطقة . والشمولية totalitarisme وضرورة العقيدة الكاملة كأساسين تقوم عليهما المملكة ، يلبيان الحاجات العميقة لغرائز الشعب الروسي الدينية والاجتماعية . وتبدي المملكة السوفييتية بتكوينها الروحي تماثلا كبيرا مع مملكة امراء موسكو الـ Pravaslave : حيث يعاني الانسان الشعور بالاختناق نفسه . الا أن القرن التاسع عشر وحده في روسيا ينجو من هذا الجو الذي لا يتميز بفوارق واضحة ، لقد كان بانقسامه على نفسه وتشتته عصر البحث والثورة . ثم ، خلقت الثورة مملكة الشيوعية الكاملة فاختنقت فيها الروح الحرة واختفت الابحاث الحرة. وبذلت الجهود لاخضاع الشعب بأكمله لانجيل الدولة catéchisme فقد كانت نزعة تمجيد الدولة étatisme في روسيا دائما الوجه المعاكس للفوضوية الروسية . والحقيقة أن الثورة الشيوعية قد استغلت الغرائز الفوضوية للوصول الى نقطة متطرفة مع الشيوعية هي النقطة التي تسحق فيها بذور الفوضوية جميعها .

لم يحقق الشعب الروسي فكرته المتعلقة برسالة الخلاص المنوطة بموسكو بوصفها روما الثالثة . فقد اثبت الانشقاق Raskol الديني في القرن السابع عشر ان المملكة الموسكوفية لم تكن روما الثالثة وكانت امبراطورية بطرسبرج اقل منها تحقيقا لفكرة روما الثالث بكل

تاكيد . ولكن الافكار المتعلقة برسالة الخلاص idées messiamique
كانت تتخذ تارة، شكلا رؤياويا، شكل الجزع من نهاية العالم apocalyptique
واخرى شكلا ثوريا . وهكذا دواليك الى ان وقع اذاً حدث عجيب . وهو
عجيب بالنسبة لاقدار الشعب الروسي : اذ ، بدلا ، من أن تحقق روسيا
روما الثالثة حققت الدولية الثالثة فاقتبست هذه كثيرا من ملامح تلك. الا
ان افهام الناس في الغرب بأن الدولية الثالثة ليست دولية بل هي فكرة
قومية روسية ، امر بالغ الصعوبة . والحقيقة انها صورة متحولة من فكرة
الخلاص الروسية messianisme وهكذا فالشيوعيون الذين
انضووا تحت لواء الدولية الثالثة ، في الغرب يلعبون دورا مخزيا . فهم لا
يدركون ان الانتماء الى الاممية الثالثة يعني الانتماء الى الشعب الروسي
وتحقيق دعوته المسيانية (رسالة الخلاص) . فقد سمعت ، في اجتماع
ضم بعض الشيوعيين الفرنسيين ، احد الخطباء يقول :« قال ماركس ليس
للعمال وطن ــ لقد كان هذا القول حقيقة ــ ولكنه لم يعد الآن ينطبق على
الحقيقة . فالعمال لهم وطنهم في الوقت الحاضر ــ روسيا ، موسكو ؛
وعليهم ان يدافعوا عنها!» هذه الكلمات صحيحة ويجب أن يعرفها الجميع.
ولكن ما لم يستطع ماركس والماركسيون في الغرب أن يتنبأوا بوقوعه قد
وقع فعلا : واعني به التطابق بين رسالتين : رسالة البروليتاريا ورسالة
الشعب الروسي . ذلك ان الشعب العامل والفلاح في روسيا يؤلف هذه
البروليتاريا ، والبروليتاريا العالمية من فرنسا الى الصين تنضم اليه ،
فتشكل معه بروليتاريا واحدة . ويسلك هذا الوعي برسالة الطبقة العاملة
والبروليتاريا ، ازاء الغرب ، مسلك اصحاب النزعة القومية (السلافوفيل)
فيكاد الغرب بالنسبة له يختلط بالبورجوازية والرأسمالية . ومنبع هذا
التأميم للشيوعية الروسية ، الذي يشهد عليه كل واحد منا ، من هذه
الحقبة وهي أن الشيوعية قد تحققت بصفة اساسية في بلد واحد هي
روسيا وان هذه المملكة الشيوعية تحيط بها الدول البورجوازية
والراسمالية . وقيام الثورة الشيوعية في بلد واحد يقود بالضرورة الى
القومية والى سياسة خارجية قومية . لذلك نرى ، مثلا ان الحكومة
السوفييتية تزداد اهتماما بصلاتها الطيبة مع الحكومة الافرنسية اكثر من
اهتمامها بالشيوعيين الافرنسيين . وتروتسكي وحده هو الذي بقي امميا،
واستمر يؤكد بأن الشيوعية في بلد واحد لا معنى لها ، غير فعالة ، ويطالب
بالثورة العالمية . ولهذا السبب نفى من روسيا : لقد صار يعتبر رجلا
لا فعالية له ، لم يعد يتلاءم مع عصر الثورة البناء والقومي . فهم يتحدثون

دائما في روسيا السوفييتية عن الوطن الاشتراكي ، كل واحد مستعد للدفاع عنه ولتقديم حياته فداء له . ولكن الوطن الاشتراكي ، هو روسيا نفسها ، وربما كانت هذه الوطنية الشعبية تنشأ لاول مرة في روسيا . والوطنية حادث ايجابي على حين أن القومية يمكن احيانا ان تكون سلبية : وجاءت الاخطار التي ما زالت تهدد روسيا من قبل اليابان والمانيا . تعزز هذه الوطنية . وتصبح هزيمة روسيا السوفييتية هزيمة للشيوعية ايضا وهزيمة للفكرة العالمية التي نصب الشعب الروسي نفسه مبشرا بها .

ان الخطة الخمسية التي اقلقت الغربيين كثيرا ، في الواقع ، غاية في البساطة وعادية . فروسيا دولة متخلفة صناعيا . فكان لا بد اذا من العمل على تطويرها من هذه الناحية ، على اية حال . ولقد جرت عملية تطوير الغرب في كنف الرأسمالية : وكان لا بد ــ في راي ماركس ــ من ان يجري الامر على هذا النحو في روسيا . الا انه في روسيا صار لا بد للتصنيع من ان يتم في كنف الشيوعية . وكانت مهمة النظام الشيوعي ان ظل ينجزه في جو من الحماس فيحول النثر الى شعر ، ويجعل من الواقع الجاد تصوفا ، ويخلق اسطورة مشروع السنوات الخمس . حقيقة ان هذا كله لم ينفذ بالحماس والشعر والتصوف فحسب بل وبطريق الارهاب ايضا وطريق البوليس السياسي السري (G.P.U.) فقد كان الشعب في حالة من الاستعباد للحكومة . وكان البناء الشيوعي في هذه المرحلة الانتقالية بنيان ترسيخ معنوي. ورغما عن وجهة نظر ماركس والسياسةالبورجوازية، فاني اعتقد من جانبيان التنمية الصناعية ممكنة بالشيوعية . ذلك ان الانتاج الراسمالي في ظل النظام القديم كان قد صار خاضعا لرقابة الحكومة الشديدة . واخترع الاقتصاد البورجوازي **ضرورة** قوانينه الاقتصادية الخاصة ، ولكن القوانين الحتمية لا وجود لها ؛ فالماركسية زعزعت كيان هذه القوانين دون ان تهدمها تماما . ولكي يقوم النظام الشيوعي بتصنيع روسيا كان لا بد له بالضبط من « تعليل » جديد للعمل ومن بناء نفسي جديد ، حتى يتمكن الانسان **الجماعي** من الظهور ، فقد قامت الشيوعية الروسية بجهد هائل لكي تصل الى هذه البنية النفسية والى هذا الانسان الجديد . وكان الفوز بهذا الانسان الجديد نفسيا أهم من استمالته اقتصاديا . وهكذا ظهر جيل جديد من الشباب مندفع بكلية وبحماس الى تحقيق مشروع السنوات الخمس ومستعد للتخلي عن اية فائدة شخصية لينخرط في الخدمة الاجتماعية . وكان الوصول الى مثل هذه النتيجة في روسيا اسهل منه في أي بلد غربي آخر ، حيث تمكنت

البسيكولوجية البورجوازية والحضارة الرأسمالية من أن تضربا بجذورهما الى اغوار عميقة . اما في روسيا فليس ثمة شيء من هذا : فحتى التاجر في موسكو . الذي عاش في ظل النظام القديم . كان يميل ، وهو يقتني بوسائل تكاد تكون شريفة فيجمع الملايين ، الى اعتبار نفسه مخطئا . وفي لحظات الاشراق التي كانت تكتنف حياته . كان يحلم في تغيير نمط حياته او بالحج أو في الدخول الى سلك الكهنوت . ومثل هذا التاجر كان عنصرا سيئا لتكوين بورجوازية من نمط البورجوازية الغربية الاوروبية . وهي بورجوازية قد لا تظهر في روسيا الا بعد الثورة الشيوعية . فلم يسبق للشعب الروسي ان صار بورجوازيا قط ، ولم يكن لديه اراء مسبقة عن البورجوازية ولم يكن يحترم الفضائل البورجوازية ومعاييرها . الا أن خطر التحول الى البورجوازية هو اشد ما يكون الآن في روسيا السوفييتية . ذلك أن طاقات الشعب الروسي الدينية قد اطلقت لنفسها العنان في حماس الشبيبة من اجل البناء السوفييتي . فاذا نضبت هذه الطاقة الدينية ، فالحماس سوف ينضب هو ايضا ، وعندئذ تظهر الانانية قابلة للتوافق مع الشيوعية .

لم يحقق مشروع السنوات الخمس الاشتراكية ، بل حقق رأسمالية الدولة . اذ أن الاهمية العظمى لم تعلق على مصالح العمال أو على القيمة الفردية أو على الجهد الانساني بل على الدولة نفسها وعلى قوتها الاقتصادية . ويمكن تعريف شيوعية عصر ستالين على انها استمرار لعمل بطرس الاكبر. فليست الحكومة السوفييتية حكومة الحزب الشيوعي الذي يرمي الى تحقيق العدالة الاجتماعية ، فحسب بل هي كذلك الدولة ، ولها الطبيعة الموضوعية لكل دولة ، اي انها تعنى بالدفاع عن قوتها نفسها وعن تطورها الاقتصادي الذي تكون كل دولة بدونه معرضة للزوال . فان غريزة المحافظة على الذات ملازمة للسلطة . لكن ستالين يمثل رجل الدولة الشرقي ، من النمط الاسيوي ، وهكذا فالستالينية اي الشيوعية في مرحلة البناء ، تتبدل بتأثيره شيئا فشيئا ، دون أن يشعر ، الى نوع من الفاستية على الطريقة الروسية . اذ ها هي سمات الفاشستية الاساسية تتجمع ، رأسمالية الدولة ، التي تستخدم اساسا للدولة الشاملة ، والقومية ، والروح القيصرية التي تبعث على ايجاد شبيبة عسكرية . ومرة اخرى ، لئن كان لينين لم يصبح دكتاتورا بالمعنى الحالي للكلمة ، فان ستالين غدا دكتاتورا على اكمل وجه . ويمكننا ، موضوعيا ، ان نعتبر ان العملية التي تجري هي عملية تكامل ، وعملية تجميع للشعب الروسي تحت

الراية الشيوعية .

ان موقفي من السلطة السوفيتية، من الناحية الايديولوجية والاخلاقية هو موقف المعارض . فانني اعتبر انه يتسم بالقسوة واللانسانية ؛ وانه ملطخ بالدم وانه يحصر الشعب باكمله بين فكي كماشة . ولكن السوفييت هم في الساعة الراهنة القوة الوحيدة التي تؤمن بأية وسيلة كانت ، الدفاع عن روسيا ضد الاخطار التي تتهددها . فان سقوطا مفاجئا للحكومة السوفييتية يقع في غياب من أية قوة منظمة قادرة على تسنم السلطة ؛ لا من اجل ان تخدم الثورة ـ المضادة في روسيا ولكن من اجل ان تشيد فيها نظاما خلاقا، منبثق عن مكاسب الثورة الاجتماعية ـ ان سقوطا كهذا سوف يمثل بالنسبة لروسيا خطرا ماحقا ويتركها عرضة للفوضى . وهذه الحجة تنطبق على الحكم الاستبدادي السوفييتي كما يمكن ان ينطبق على حكم الملكية الاستبدادي . فالوطنية التي نمت وتطورت في روسيا ليست وطنية شيوعية فحسب بل ولا وطنية سوفييتية ، انما هي ، بحصر المعنى، وطنية روسية . ولكن الوطنية في شعب عظيم يجب ان تكون الايمان برسالة هذا الشعب السامية والعالمية . والا كانت لا تعدو وطنية اقليمية ، محدودة ، وخاصة في تطلعاتها . الا ان رسالة الشعب الروسي هي تحقيق العدالة الاجتماعية في داخل المجتمع الانساني ؛ ليس في روسيا فحسب بل والعالم كله . وهذا الدور يتفق مع تقاليدها جميعها . غير ان سوء الطالع شاء ان تكون محاولة تحقيق العدالة الاجتماعية هذه مقترنة بالضغط وبالجريمة وبالقسوة وبالكذب الشنيع . وتبدو محاكمة موسكو ، في هذا المجال ، ضد الشيوعيين القدماء ، انها تجاوزت كل حد .

— ٥ —

تلك كانت طبيعة الثورة الروسية ، فقد جرت في ظروف خصوصية ، ممعنة في خصوصيتها ، بحيث لا يمكننا ، من الناحية الايديولوجية ، ان نعثر فيها ، على غير ماركسية قد تحولت تحولا عميقا، فأصبحت ماركسية غير حتمية . كانت الماركسية تبرهن على استحالة حدوث ثورة اشتراكية بروليتارية في روسيا . فاذا كان الاقتصاد ، هو الذي يحدد في الواقع العملية الاجتماعية كلها فقد كان يتوجب اذا على روسيا ، المتخلفة من الناحية الاقتصادية النمو الراسمالي لصناعتها . وكانت تستطيع ان تأمل

فى ثورة بورجوازية لا في ثورة بروليتارية . وكانت هذه هي حتمية علم الاجتماع الماركسي . ولكن الثورة الروسية اتخذت سبلا لم تكن ، كما هو واضح للعيان مرسومة من قبله . وهذا ما جعلها تتمخض عن فلسفة جديدة هي : الماركسية ـ اللينينية . وهي فلسفة ماركسية في عصر بروليتاري . كان ماركس ما يزال يعيش في صميم المجتمع الراسمالي البورجوازي الذي يحكم فيه الاقتصاد كل شيء والذي لم يكن قد اكتشف بعد الحرية . وكان هو وانجلز يبينان انه يجب الانتقال بوثبة من عالم الضرورة الى عالم الحرية ، حيث يبدا التاريخ الحقيقي : التاريخ الذي لا ينبغي للانسان فيه، الانسان الاجتماعي بالطبع ، ان يكون محددا بالنظام الاقتصادي بل الانسان نفسه هو الذي يحدده. وهكذا حان الزمن الذي كان الشيوعيون ينتظرونه. فقد شعروا انهم بلغوا عالم الحرية هذا ، وهم خارج العالم الراسمالي . بل وهم منغمسون في تيار الثورة البروليتارية الذي لم يعرفه ماركس . وبعد ان نجوا من ان يكونوا محددين بالعنصر الاقتصادي فها هم يحددونه : هم انفسهم ، على هواهم . وبفعاليتهم الثورية التي تهيمن على العوامل الاخرى يحسون بانفسهم القدرة على تبديل العالم كله . وهكذا اخذت الفلسفة السوفييتية الفتية ، وهي اذ تحاول جاهدة تقديم تفسير جديد للمادية التاريخية، تطرح موضوع المقولة الاساسية للحركة automouvement (١) .

ان منبع الحركة يكون داخليا، فهو لا يكون مستمدا من دوافع خارجية، من الوسط الخارجي كما تعتقد ذلك المادية الميكانيكية . فالحرية الحقيقية هي التي تكتسبها المادة اذ فيها يكمن مركز الفاعلية التي تغير الوسط . وهكذا تنقل خواص الفكر الى المادة ـ من حرية ونشاط activité وعقل ، اي اننا نمارس هنا ، في الحقيقة ، ضربا من إسباغ **خواص الروح على المادة** Spiritualisation كما تطرح الفلسفة السوفييتية بلا كلل : شان ادب علم الاجتماع كله ، كبديهية ، ان «قوى الانتاج» : اي النمو الاقتصادي ، اقل اهمية من «العلاقات بين المنتجين» التي يمكننا من خلالها فهم صراع الطبقات والفاعلية الثورية التي هي حركة ذاتية لا تتعلق بالوسط ، ولكنها تملك القدرة على تعديله. والمقصود هو بناء فلسفة للعمل،

---

١ ـ انظر كتاب المادية التاريخية ، تاليف جماعة من الكتاب في معهد اساتذة الفلسفة ، نشر تحت اشراف salezevitek عام ١٩٣١ .

تكون المادية بالنسبة لها قليلة الملاءمة ، ميكانيكيـــة كانت ام اقتصادية . والفلسفة البروميثية promethéeune العملاقة ، تكون دائما ، كما هـي عند فيخته فلسفة الروح . ولكن الفلسفة السوفييتية ، اذ تحرم علـى نفسها الكلام عن الروح ، وتعتبر المادية رمزا مقدسا ، تحاول بالعمل ، على اخضاع المنطق والمصطلحات الفلسفية لها ، ان تسلب الـروح سماتها ، كمحرك ، لتسبغها على المادة ، وهكذا تحولت المادية دون ان تظهر في هذه الفلسفة ، الى مثالية والى روحية خاصتين . وقد قدم ماركس نفسـه نقطة انطلاق لمثل هذا التزييف ، فيما كتبه في شبابه وخاصة في القسم الذي يدين فيه من مذهبه شر الراسمالية الذي يبدل الناس الى اشيـاء وينسب الى هذه الاشياء واقعا وهميا . بل ان تعبير المادية الديالكتيكية نفسه ــ وقد راينا هذا من قبل ــ يتضمن تناقضا . فالمادة ، التي تتالف من تصادم من الذرات لا يمكن ان تكون مكانا للديالكتيك الذي يفترض وجود اللوغس logos والعقل : فالمادية الديالكتيكية تفترض اذا وجـود اللوغوس في المادة ، الفكرة المختبئة ، داخل قوى الانتاج المادية ، العقل في داخل عملية لاعقلية . وتعمل الفلسفة السوفييتية ، بوصفها فلسفـة الدولة الصحيحة (الاورثوذكسية) على شجب الهرطقات والغائها : فتاكيد المادية الجدلية هو الخط العام للفلسفة وليس ثمة من فلسفة صحيحـة (اورثوذكسية) خارج حدود هذا التاكيد. وهكذا سوف يدان بالهرطقة كل من يؤكد المادة ويستبعد الديالكتيك او كل من يؤكد الديالكتيك ويعمل على محو اثر المادة . وكان اول شكل من اشكال الهرطقة هو المادية الميكانيكية التي تمثلت في كتابات بوخارين وبعـــض الدهريين Naturalistes وتمثل الشكل الثاني في ديبورين Deborine وهو يميل الى المثالية .

وقصارى القول يجب ان نقر بالاعتقاد بالديالكتيك ، الذي يكـــوّن الفلسفة الثورية الحالية مع الاستمرار على الاعتقاد بالمادية ، واذا كان مثل هذا الاتحاد لا يمكن من الوجهة المنطقية فهو يفرض نفسه من الوجهـــة النفسية . وقد اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قرارا بمذهب المادية الديالكتيكية الصحيح الذي يعترف بامكانية الحركة العفوية وبحرية البروليتاريا الثورية . واطلق ستالين ، وهو الذي يفتقر لاية ثقافة فلسفية وفهمه للفلسفة اقل من فهم الفلاسفة الشبان من السوفييت ، الذين نجد منهم بعض المتضلعين ــ من فوق ، حكما ساميا فيما يجب ان تكونـــه الفلسفة الحقة . كانت هذه هي الطريقة نفسها التي نصب من نفسه بها هتلر ، حكما في تقدير الحقيقة المطلقة . لقد كانت هذه هي الملامح التي

ميزت دكتاتورية تصور ايديولوجي للعالم ، وهي دكتاتورية فريق صغير من الناس قلدتهم امر سلطتها . فالفلسفة السوفييتية هي اذاً فلسفة « العملاقية » titauisme الاجتماعية . الا ان العملاق فيها ليس الفرد بل هو الجماعة collectivité . وقوانين الطبيعة التي يشير العلم والفلسفة البورجوازية الى عدم تجاوزها بانعدام الكرامة ، تتحول الى الدرجة الثانية . فاعلنت الفلسفة الماركسية التي انتهجها امثال بليخانوف وكاوتسكي والمنشفيك فلسفة بورجوازية «مستنيرة» . وعارضت الفلسفة السوفييتية مادية القرن الثامن عشر المستنيرة . وكانت حدة الفكر ونور العقل اقل اهمية في نظرها من تمجيد الارادة ومن تمجيد ارادة ثورية عملاقة . اذ لا ينبغي للفلسفة ان تكتفي بالعمل على سبر غور العالم بل يجب عليها صهره وخلق عالم جديد منه . اذ ان نشر الفكر النظري في نطاق ضيق وخلق طوائف متميزة من العلماء والاكاديميين ، يرجع الى مطامح دنيا بورجوازية. فقد اصبح من الواجب بعد الآن ان يتحالف العقل العملي والعمل الفلسفي مع البناء الاجتماعي . وهكذا انخرطت الفلسفة السوفيتية في خدمة مشروع السنوات الخمس . ذلك ان الحقيقة ــ وهي تعني هنا الحقيقة المطلقة ــ تظهر في العمل وحده ، في الصراع ، في الجهد . فان تمجيد الارادة الثورية ، تمجيدا عملاقا يقتضي وجود عالم واقعي يتم عليه الفعل ويتبدل به . هذه هي المصادرة pastulat الواقعية الضرورية التي سميت بالمصادرة المادية . والوعي يتحدد بالموجود ويحدث في الموجود : ولكن الموجود هنا يرى انه مادي ، مع ان المادة نفسها تكاد تفهم بطريقة روحية .

هذه المنازعات الفلسفية جميعها التي كانت ، قبل ان تخرج الى وضح النهار ، تمتد فيها المناقشات منذ سنوات طويلة في روسيا السوفييتية، تعرض اذن بطريقة خاصة : يبدو فيها التفريق بين الحق والباطل اقل الحاحا من التفريق بين الصحيح (الاورثوذكسي) والهرطقة ، فهي منازعات لاهوتية اكثر منها فلسفية يظهر فيها للعيان فهم جديد للحرية . وسواء أكانت نزعة «عملاقية» ام ماركسية ــ لينينية ام مادية ديالكتيكية في عصر الثورات البروليتارية ، فان هذه المذاهب تتناسب في الحقيقة ، مع تعريف للحرية شديد الاختلاف عما هو معروف عادة . لهذا السبب يكون الشيوعيون مخلصين . ومن اجل ذلك فان الشيوعيين في انفعالهم عندما يقال لهم ان الحرية ليست موجودة في روسيا السوفييتية وفي هذا الموضوع تروى الحكاية التالية : ذهب شاب سوفييتي الى فرنسا لقضاء عدة شهور يعود بعدها الى بلاده . وحين اشرفت اقامته على نهايتها سئل

عن الانطباع الذي تركته فرنسا في نفسه فاجاب : «انها بلاد لا حرية فيها» وكان رد سائله عليه بدهشة : «ماذا تقول ؟ ان فرنسا هي ارض الحرية . كل انسان حر في ان يفكر كما يشاء وان يفعل ما يحلو له . فالحرية لا وجود لها عندكم» . وعندئذ مضى الشاب في عرض معناه عن الحرية . فالحرية لا وجود لها في فرنسا ، ذلك ان الشاب الروسي يتنفس فيها بصعوبة لانه ليس من الممكن تغيير الحياة فيها ، وان كل شيء يبقى على حاله ، وكل يوم يمر يشبه اليوم السابق وانه يمكن قلب حكومة كل اسبوع ، دون ان يتبدل من اجل ذلك اي شيء في البلاد . وبالنتيجة يبدو كل شيء مملا لهذا الشاب القادم من روسيا والذي يعتبر ان الحقيقة هي الحرية الموجودة في روسيا الشيوعية . فهي الامكانية في ان يرى الانسان كل يوم حياة اخرى ، حياة جديدة تنهض في روسيا وفي العالم باكمله . ويمكن الا يكون اليوم الذي يأتي شبيها باليوم الذي فات . ويشعر كل شاب انه يشارك في بناء العالم ، هذا العالم الذي اصبح طيّعا يمكن ان تصاغ فيه اشكال لم تعرف من قبل . هذا هو ما يفتن لبّ الشباب اكثر من اي شيء آخر. فكل شخص يشعر بانه يشارك في المهمة المشتركة، ذات الدلالة الشاملة للعالم . والحياة تنصرف باكملها لا في معركة من اجل الوجود بل من اجل اعادة بناء العالم . ولا تفهم الحرية هنا على انها حرية الاختيار ، حرية الاستدارة الى اليمين او الى الشمال ، بل على انها ، تغيير فعال لكل شيء ، وعلى انها فعل لا ينجزه الفرد ، وانما ينجزه الانسان الاجتماعي، وبعد ان يكون الاختيار قد تم. وحرية الاختيار تقسم الطاقة وتضعفها . اما الحرية الحقيقية المبدعة فلا تتدخل الا بعد ان يتم الاختيار عندما يتحرك الانسان في اتجاه محدد . وهكذا فان هذا النوع من الحرية، حرية التشييد الجماعي للحياة في اتجاه الحزب الشيوعي العام هو وحده المعترف به في روسيا السوفييتية وهذه الحرية بالذات هي الحرية الراهنة والثورية . اما الحرية الافرنسية فحرية محافظة ، تضع العراقيل في وجه اعادة البناء الاجتماعي ، وادت الى ان يريد كل انسان من الآخرين ان يدعوه وشأنه في سلام . فيجب ان تفهم الحرية من حيث انها طاقة خلاقة ومن حيث انها عامل تغيير للعالم . ولكن الحرية اذا فهمت على هذا النحو وحده كفعل ولم تشأ النظر الى ما يسبق في الداخل هذا الفعل ويسبق هذا التحقيق للطاقة الخلاقة ، فهذا يكون انكارا لحرية الضمير ولحرية الفكر. وفي الواقع ان هذه وتلك لا وجود لهما في الامبراطورية الشيوعية الروسية. فالحرية لا تفهم فيها الا بمعناها الجماعي لا الشخصي. ولا تملك الشخصية

اي استقلال ذاتي في نظر الجماعة الاجتماعية . فلا توجد حرية ولا شعور شخصي . ولا يكون الشخص الانساني حرا الا بمقدار ما ينخرط في المجموعة . ولكنه اذا ما انخرط فيها وانصهر ينال بالاقتسام معها حرية هائلة تضعه على صلة مع العالم بأكمله . وحرية الاعتقاد وخاصة الحرية الدينية تفترض في الشخصية عنصرا روحيا مستقلا عن المجتمع : لا تقبل الشيوعية الاعتراف بها . فان مملكة قيصر ومملكة الله تتطابقان وتتماثلان في نظرها كما سنرى في الفصل القادم . فهي تجعل اذا تحطيم الشخصية امرا لا بد منه بانطلاقها من المادية . وتتكشف الاخلاق الثورية الشيوعية عن انها لا رحمة فيها تجاه الانسان العيني ، الحي وتجاه الجار . وما الفرد الا لبنة لا غنى عنها لبناء المجتمع الشيوعي ، وما هو الا وسيلة . والحقيقة ان الشيوعية تحتوي في ذاتها في تصورها للحياة على عنصر عادل وسليم يتفق مع التصور المسيحي ، وهو العنصر الذي يريد من كل انسان ان يخدم في حياته هدفا اعلى من فائدته الخاصة . الا ان هذه الفكرة الجميلة بحد ذاتها ، شوهت بهذا الرفض ، الذي تثبتنا منه ، لاعطاء الشخص الانساني كرامة وقيمة مستقلتين ، نفحة روحية . وثمة معنى آخر صحيح وخصب وهو : ان مآل الانسان هو ان يتحد مع اشخاص آخرين لكي يضبط وينظم الحياة الاجتماعية والكونية . وهي الفكرة التي عبر عنها على اكمل وجه في مؤلفاته المفكر المسيحي ن. فيدروف (١) N. Federov ولكنها داخل الشيوعية ترتدي اشكالا مهووسة فتحول الانسان الى آلة والى وسيلة . ومع ذلك فان هذه التشويهات جميعها لا ترجع الى النسق الاجتماعي نفسه بمقدار ما ترجع الى روح الزيف التي نفذت اليها . اذ ان حرية الروح لا يمكن انكارها بالاقتصاد ، فهو عاجز في هذا المجال ــ ولكنها تنكر بالروح نفسها اذا نصبت نفسها عدوا للحرية . فالكفاح المناضل ضد الروح الذي تقوده الشيوعية باسم المادية هو نفسه مظهر من مظاهر الروح لا من مظاهر المادة ، فهو طريق خاطىء للروح . كان الاقتصاد الشيوعي يستطيع البقاء محايدا في هذا النزاع . ولكن الدين الشيوعي هو الذي يتدخل هنا ، وهو الذي يعادي المسيحية والروح والحرية . واذا كان الكذب والحقيقة يتداخلان الى هذا الحد في الشيوعية فذلك لان الشيوعية ليست ظاهرة روحية فحسب . فالفكرة القائلة بوجود مجتمع بلا طبقات،

---

١ ــ انظر كتاب ن. فيدوروف : فلسفة القضية المشتركة .

قائم على العمل ، كل واحد فيه يعمل من اجل الآخرين ومن اجل الجميع ومن اجل هدف يعلو على الامور الشخصية ، هذه الفكرة لا تتضمن انكار الله ، بل سوف تكون هذه الفكرة ، على العكس ، اكثر اتفاقا مع المسيحية من تلك الفكرة التي يقوم عليها المجتمع الراسمالي البورجوازي . ولكن الرغبة في ربطها بتصور خاطىء للعالم وبانكار الروح والحرية . كانت سببا في الوصول الى نتيجة مدمرة. ذلك ان الطابع الديني في الشيوعية. هو نفسه ، بل **دينها** نفسه هو الذي جعلها ضد ـالدينـ وضد المسيحية. ان المجتمع والدولة الشيوعيتين ترميان الى الكمال . ولكن مملكة الله هي التي يمكنها وحدها ان تكون كاملة . اما مملكة قيصر فسوف تبقى دائما جزئية . الا ان الشيوعية قد شيدت مملكة قيصر في مملكة الهية كما فعل ـالوطنيـ الاشتراكي الالماني ، بصورة اكثر اتساقا واكمل وهو غموض جعل المعركة الروحية امرا لا مفر منه . بيد ان الخطيئة الحاسمة التي ارتكبها خصوم الشيوعية كانت في اسباغهم على صراعهم طابع المعركة الاجتماعية ، حيث ظهروا كانهم مدافعون عن الانظمة القديمة ، او عن التصورات البالية للراسمالية والبورجوازية في المجتمع . وكان هذا يعني الحكم على انفسهم بالهزيمة . لان العالم باكمله يسعى الى تصفية المجتمعات الراسمالية القديمة والروح التي انبثقت منها . والحركة باتجاه الاشتراكية بأوسع معانيها ، ظاهرة عالمية . وهذه الكوة التي تنفتح باتجاه مجتمع جديد ، ما زالت صورته لم تحدد معالمها بعد ، تتم على مراحل : احداها هي ما ندعوه بالراسمالية الموجهة ، المراقبة ، اي راسمالية الدولة . وهي مرحلة قاسية جدا لانها تقتضي ممارسة السلطة المطلقة وهي ما افادت تقاليد الحكم الاستبدادي القديمة في جعلها اكثر سهولة للقبول في روسيا. ولعب فيها ما يمكن ان نسميه بالعنصر «الاولي» دورا عظيما. وكان المقصود تمدين جمهور العمال والفلاحين بصورة اولية في مرحلة الخروج من الامية. وليس في هذا شيء من خصوصية الشيوعية . ولكن هذه العملية التمدنية تتم باحلال الرموز الماركسية ـ الشيوعية مكان الرموز الدينية المسيحية . ومع ذلك اليس من الامور الشاذة والوحشية ان يقترن اقبال الجماهير على التمدن في روسيا بتحطيم الانتليجنسيا وان تدق هذه الثورة التي كانت الانتليجنسيا دائما تحلم بها ، اجراس نعيها ؟ وهذا ما كان يريده مع ذلك ، وهو يتفق في نفس الوقت مع الغوغائية المصممة التي قادت الشيوعيين الى النصر ، الانشقاق القديم في التاريخ الروسي ، الانفصال المزمن بين الانتليجنسيا والشعب . فنتج عنه نقص في القدرة

الثقافية . على ان فكرة الثقافة البروليتارية نفسها ، متناقضة خاطئة من وجهة نظر المثل الاعلى الشيوعي الذي يسعى الى ازالة وجود البروليتاريا نفسها كطبقة ، ولا بد له من ان يتجه الى ثقافة انسانية عالمية . وهكذا تبدو الشيوعية اذا ما درسناها بعمق على ضوء قدر الروسيا تشويهها للفكرة الروسية ، لفكرة الرسالة الروسية messia nisme وللعالمية الروسية وللبحث الروسي عن مملكة العدالة : هذه هي دائما الافكار الروسية نفسها ، الا انها تفهم في جو الحرب وفي ظل ابشع اشكال التفسخ . وهكذا فالشيوعية الروسية قد ارتبطت . اوثق مما اعتدنا التفكير فيه ، بمجمل تقاليد روسيا .

ظل ك.ب. بوبيدونوتسيف Pobiedonotsev وكيل المجلس الاعلى للكنائس الروسية الشهير يوجه الكنيسة الروسية والامبراطورية من الناحية الايديولوجية زهاء خمسة وعشرين عاما . كان الزعيم الروحي لروسيا الملكية القديمة في عصر الانحطاط . ثم صار لينين الزعيم الروحي لروسيا الجديدة الشيوعية . وظل قائدا يهيمن على الحركة التي كانت تمهد للثورة سنوات طويلة وبعد الثورة ، حكم روسيا بكاملها . ويجسد بوبيدونوتسيف ولينين افكارا على طرفي نقيض . الا انهما حقيقة متشابهان في بنيتيهما الروحيتين بحيث يمكن القول ، في نقاط كثيرة ، بأنهما ينتميان الى نمط واحد . كان بوبيدونوتسيف اعظم واعقد واطرف مما اعتاد الانسان على اعتقاده اذا تمسكنا بالنظر في سياسته الرجعية وحدها . فقد عرفت ذات مرة نظرة بوبيدونوتسيف الى العالم بانها «عدمية على الصعيد الديني» . كان عدميا في نظرته الى الانسان والى العالم ، فلم يكن يؤمن بالانسان ويعتبر الطبيعة الانسانية حمقاء ، عديمة القيمة . وكانت الحياة الانسانية، الحياة العالمية ، لا تثير فيه غير الاحتقار وهذا الاحتقار كان يبسطه على الاساقفة الذين كان يتعامل معهم باعتباره وكيلا للمجلس الاعلى للكنائس الروسية المقدس Saint Synade كان يعتقد انهم يجب ان يكونوا خاضعين لاشراف ممثل السلطة الحكومية ، رافضا ان يرى فيهم اية فضيلة روحية . وهكذا اخضع الكنيسة للدولة ، وهو في مركزه السامي الذي كان يحتله ، لانه لم يكن يعتقد بالفضائل الانسانية ، لا في فضائل الكهنة ولا في فضائل العلمانيين . فالانسان شرير الى حد لا يرجى فيه أمل قط والامل الوحيد في انقاذه هو في ان يحكم حكما صارما . وليس بالامكان اعطاؤه الحرية . كما لا يمكن ان يحكم العالم الا تحت نير الملكيات المطلقة الحديدي . وقد دفع بوبيدونوتسيف عدم ايمانه بالانسان وموقفه

العدمي من العالم ، الى ابعد مدى من التطرف في الرجعية . كان يؤمن بالله ولكنه لم يكن ينقل هذا الحب لله الى مخلوقاته ، الى العالم ، ومع ذلك كانهذا الرجل الذي اكتسبشهرة المفتشالكبير grand inguisiteur وديعا في حياته الخاصة . كان يحب الاطفال ، ويخشى علـــى ما قيل ، زوجته ولا يبدي اية قسوة في علاقاته مع جاره. أما من لم يكن يحبه ، فقد كان «الانسان البعيد» ، الانسانية والنزعة الانسانية والتقدم والحرية وما الى ذلك . أليس في هذه الملامح بعض الشبه مع ملامح لينين ؟ ولم يكن لينين هو ايضا يعتقد في الانسان. وكان له ، هو ايضا من العالم موقف عدمي كان ينطوي على ازدراء كلبي cynique نحو الناس ، معتبرا هـــو ايضا بان الوسيلة الوحيدة لانقاذهم هي ابقاؤهم تحت الوصاية . وهـــو كبيوبييد وتوتسييف يعتقد انه ليس في مقدورنا تنظيم حياة الاشخاص الا بالاكراه والقوة . وكما كان بيوبييدونوتسيف يزدري المراتب الكهنوتية الخاضعة لاوامره كان لينين يزدري المراتب الثورية ، يسخر من الشيوعيين ويشك في صفاتهم الانسانية. واخيرا كانلينين وبوبييدونوتسيف يعتقدان في النظام وفي التنظيم الاجباري . فالمجتمع لا يمكن ان يؤسس علـــى الصفات المفردية ، بل يجب ان ينظم وينسحق بحيث تخضع تلـــك المادة الانسانية التي تبعث على الرثاء لتنظيم يقوّمها ويضعها في خدمة ظـروف الحياة الاجتماعية . وفي نظر لينين ايضا ان الخطيئة متفشية في العالم وفي الانسان : وهذه الخطيئة في نظره هي استغلال الانسان للانسان اي خطيئة عدم المساواة بين الطبقات . وهو يرفض الاعتقاد في الطبيعـــة الانسانية وفي وجود مبدأ سام كامن في اعماق الانسان ــ ولكنه هو لا يعتقد بالله الذي كان يعتقد به بوبييدونوتسييف ، فهو يعتقد فقط فـــي حياة قادمة ليس فيما وراء هذا العالم ، وانما في حياة مقبلة متحققة في هذا العالم . فالمجتمع الشيوعي الجديد الذي يؤمن به يحل بالنسبة لـه محل فكرة الله ، فهو ينتظر انتصار البروليتاريا ، التي تمثل اسرائيـــلا جديدة . والمجتمع الشيوعي الواقع لم يتشكل بفضل الصفات الفردية ، بل بالتدريب والتنظيم . وهكذا كانت دولة لينين الشيوعية لا تقل تسلطا واستبدادا عن امبراطورية القياصرة التي دعمها بوبييدونوتسييف فعدم الايمان بالانسان والنظرة العدمية للعالم اللذين رايناهما لدى زعيم المجلس الكنائسي الروسي المقدس قادوا لينين الى اغراض متعارضة مع اغراضه، فقد قاداه الى التطرف في الثورة . فقد امكن استخلاص التطرف فـــي الثورة والتطرف في الرجعية من صيغ متشابهة . غير ان حياة العالـــم

فارغة وشريرة في نظر كل منهما على السواء .

كم يكون مهما ، من اجل مصير روسيا ، ان نلاحظ بان الرجل الذي حكمها قبل الثورة والذي حكمها بعدها ، لم يعتقد ، احدهما كالآخر ، في الشخصية الانسانية وان كليهما قد نظر الى العالم نظرة عدمية . وهذا شيء رمزي من طراز عال ، ويوحي بأشياء كثيرة . فالحكم في روسيا لا يستطيع ان يظهر بمظهر انساني . وهي هنا حقيقة كانت الحركة الفوضوية الروسية ، تمثل اذا جاز لنا القول ، وجهها الآخر . فقد سبق لنا ان تبينا من قبل في هذه العدمية ، التي تنكر الانسان والعالم ، وجها مموها للاورثوذكسية القديمة الزاهدة . وها نحن نصل الى معالجة المشكلة القادمة اعني بها المشكلة الدينية والعلاقات بين الشيوعية والاورثوذكسية .

الفصل السابع

الشيوعية والمسيحية[1]

- ١ -

تتطلب مسالة علاقات الشيوعية بالدين بصفة عامة والمسيحية بصفة خاصة بحثا خاصا . فان اظهرت الشيوعية عداء لا هوادة فيه ، لكل دين، فلا يمكن ان يكون هذا مظهرا من مظاهر الصدفة . انها واقعة ترجع الى جوهر تصورها للعالم ، فالبناء الشيوعي قائم على تمجيد الدولة تمجيدا فائق الحد ، حيث تتطلب السلطة الشاملة ، المطلقة فيه التوحيد الاجباري للفكر . وقد قرر الشيوعيون اضطهاد الكنائس جميعها وخاصة الكنيسة

---

١ ــ ان عملية التحول تجري في روسيا السوفييتية ، سريعة الى حد ان ما يكتب الآن لا يلبث ان يفقد قيمته بعد قليل . وقد تعدل الوضع الديني بصورة محسوسة في الايام الاخيرة . اذ ضعفت النزعة الى الالحاد المتاصل وتضاءلت الاضطهادات الموجهة ضد الدين بصورة هائلة ويفسر هذا قبل كل شيء بنقص الاهتمام الموجه الى المسالة الدينية، بوصفها تظهر تصورا ايديولوجيا للعالم ، وبعد ذلك باكتساح مسائل السياسة الدولية والقضايا العسكرية والتنمية الاقتصادية واخيرا بضرورة اعتبار الجاهات الجماهير الشعبية .

الاورثوذكسية بسبب الدور الذي قامت به في التاريخ . وكملحدين مناضلين اخذوا على عاتقهم القيام بدعاية فعالة ضد الدين . غير ان الشيوعية اذا كانت في الواقع تقف في وجه اي دين فان موقفها هذا يكون باسم النظام الاجتماعي الذي تجسده اقل منه لانها هي نفسها تمثل دينا . فهي تريد ان تكون دينا جديرا بأن يحل محل المسيحية، وتزعم انها تلبي تطلعات النفس الانسانية الدينية، وانها تعطي معنى للحياة. فالشيوعيةتريد من نفسها ان تكون عالمية ، وتريد ان تكون لها السلطة على الوجود كله وليس على بعض شؤونه ولحظاته فحسب .

لهذا السبب كان النزاع حتميا. وكان لا بد لها من ان تخاصم المذاهب الدينية جميعها . افليس الدين هو منبع عدم التسامح والتعصب دائما ؟ فنادرا ما نجد مذهبا علميا او فكريا محضا ، يحرص على اثارة هذا او ذاك فيهما . الا الشيوعية فهي تنبذ ما عداها لانها عقيدة . ويلعب مزاج الروس الديني هنا وبسيكولوجيتهم الانشقاقية والطائفية ، دورا كبيرا . بيد ان مذهب ماركس يتضمن موقفا عدائيا صريحا ، منعلنا في وجه كل دين ، فهو الذي كتب في مدخل الى **«نقد فلسفة الحق عند هيجل»** ان الدين «افيون الشعوب» ــ وهي جملة لقيت معناها الكامل في روسيا اليوم . كان ماركس يرى انه للوصول الى تحرير الطبقة العاملة اولا وتحرير الانسانية فيما بعد ، يجب ان ننتزع كل عاطفة دينية من قلب الانسان . وكان يقول ما نريد : «ليست حرية الاعتقاد بل تحرير الاعتقاد من الوهم الديني» فالمعتقدات الدينية هي المرآة التي تنعكس عليها العبودية الانسانية، عبودية الانسانية لقوى المادة الاولية ، للقوى اللاعقلانية في المجتمع ، وهي تدل على ان الانسان ــ الانسان الاجتماعي ــ ما زال في عصر ــ حتى الآن ــ لم يتغلب فيه نهائيا على القوى الابتدائية واللاعقلانية التي تحيطه باسرارها . كان ماركس ، وهو تلميذ فكرة فيورباخ الدينية يطور عقيدة استاذه ويبسطها حتى على المجال الاجتماعي . ولا شك في ان فورباخ كان اعظم عبقرية بين الفلاسفة الملحدين في القرن التاسع عشر . كان يتمتع بذهن ثاقب جدا تجذبه مشكلة الانسان ويريد ان يحول اللاهوت الى علم الانسان الطبيعي authro Pologie فالانسان بحسب رايه لم يخلق على صورة الله ومثاله ، ولكن الله هو الذي جعل الصورة الانسانية والمثال الانساني . وما الدين الا التعبير عن طبيعة سامية في الانسان ، وهذه الطبيعة تنفصل ، وتصبح غريبة عنه لكي تنتقل الى ما وراء منطقة مفارقة. وقد جرد الدين الانسان وافقره . وهكذا اصبح للانسان الفقير اله غني.

اذ نقل خصب الانسان كله الى الله واشرك فيه . فالايمان بالله يعبر عن الضعف ، عن الفقر ، عن عبودية الانسان . ذلك انه لو كان قويا ، غنيا وحرا لما صار بحاجة الى الله، فهو يمتلك لنفسه اسمى المواهب وقد استخلص ماركس من هذه المقدمات النتيجة التالية : ان الايمان بالله يبقي البروليتاريا في البؤس والامتهان . ذلك ان المعتقدات الدينية تنقل النفع النهائي الى صعيد غير واقعي . اذ توزع على الناس عزاء وهميا ومصطنعا، وبهذا تضع العراقيل في وجه الانجازات المباشرة التي سوف تشكل الانعتاق الحقيقي . ويجب على البروليتاريا الظافرة ان تسقط العزاء الوهمي المعلق على العالم الآخر . وان تضع على الارض انتصارها . ومن الواضح اذن ان هذا المذهب القائم على وهم الشعور والوهم الديني والايديولوجي الذي يعكس عبودية الانسان وتبعيته وضعفه وهوانه ، قد اخذه ماركس عن فورباخ . الا انه اضفى عليه طابعا اجتماعيا اشد حدة فحسب . اذ ان كان ما يتطلبه الحاد كارل ماركس النضالي تحولا في الوعي بالدرجة الاولى . وهكذا فان المعتقدات الدينية يجب الا تزال بالسجن والاضطهاد بل باحداث «تحول ثوري» في الوعي ، نتيجة معركة ثورية بين الطبقات تقودها البروليتاريا . وهذا الكفاح ضد المعتقدات الدينية قد بداه ماركس وهو في سن الشباب . وكان يعتبره حينئذ وهو في الجناح الهيجلي اليساري ، كفاحا فكريا قبل كل شيء ، متوافقا في هذا مع موقف برونو باور Bruno Baur ، الا ان الفائدة التي كان يعلقها على هذه المسائل التي ترتبط ، في رايه ، بما كان يعده من تصور للعالم ، قد ضعفت فيما بعد لصالح المسائل الاقتصادية التي كان لا بد له من الانصراف اليها بكامل جهده . لكنه ظل ملحدا مناضلا ، برزت عدائيته للدين اقل تطرفا منها عند شخص مثل باكونين في روسيا او مثل دهرنج في المانيا ، فمنذ البداية اعلن دهرنج وهو نمط يمثل الاشتراكية المعادية للماركسية ذات الميول الفوضوية اشد تمثيل، ان الدين سوف يكون ممنوعا في المجتمع الشيوعي. فعارضه انجلز في هذا الموضوع وقد وضع كتابه الرئيسي في صور نقد لآراء دهرنج الفلسفية والاجتماعية . بيد ان ثمة جهد عظيم بُذل بقصد نشر التعليم ، وقد واكب هذا الجهد الخاص في تربية الفكر التي ميزت اواخر القرن الثامن عشر ، والتي ندعوها بعصر «الاستنارة» جهد آخر في نشر الالحاد . فالعقل الذي يعي ذاته ويتخلص من التقاليد التي تعيقه ، يهب لمعارضة الايمان بالله . ولا يدوم هذا غالبا الا مرحلة موقتة يعترف هذا العقل بعدها ، اذ يصبح اكثر تحررا ايضا بحدوده فيعدل علاقاته بالايمان .

وما زال العقل «الراشد» ، «المستنير» عند الروس ، اي عقل الثامن عشر في هذه المرحلة الموقتة التي تسيطر عليها العواطف والانفعال . وهذا ما نراه في لينين .

كان لينين ملحدا متحمسا لالحاده وعن اقتناع فيه ويكره الدين . اقول «ملحدا» على الرغم من انني لا اعتقد بوجود «ملحدين» خالصين . فالانسان حيوان ديني وحين ينكر الله الحقيقي فانما ينكره ليخلق لنفسه آلهة ، اصناما ، وتمائم ينحني لها . وقد بسط لينين افكار ماركس الدينية وبالغ فيها كما بسطت اللينينية افكار لينين نفسه وبالغت فيها . حتى ليمكننا القول بأن لينين كان يملك عبقرية جعل كل شيء قاسيا وصارما ، كما يشهد على ذلك اسلوبه في الكتابة . فالمسالة الدينية التي كانتعند ماركس مسالة التغيير التام للوعي ، قبل كل شيء وهو تغيير مرتبط بالطبع بالمعركة الاجتماعية ، تكاد لا تتخطى عند لينين مسالة المعركة الثورية ولا يجب ان تطرح الا من اجل احتياجات المعركة . حقيقة ان لينين كان يهيب بالناس الى «الهجوم على السماء» الا ان هذا الكفاح ضد الله الذي خاضه لينين كانت تنقصه البواعث العميقة التي نجدها عند شخص كفورباخ او نيتشه، والمأساة الداخلية التي تتكشف عند دوستويفسكي . ومن افكار لينين في الدين ، وهي افكار مبعثرة في مؤلفاته جمعت ونشر بعضها (١) هذه العبارة: «ان اية الوهية هي مكان للزنا بجيفة» وتعريفه للدين اقرب الى الديماغوجية منه الى العلم : «الدين وجه من وجوه الاضطهاد الروحي الذي يثقل كاهل الجماهير الشعبية التي يسحقها الكدح الابدي من اجل الآخرين وذلك بالضغط وبالعزلة» . ثم هذا التعريف ايضا : «فالدين نوع قوي من النبيذ يسكر الروح ، يغرق فيه عبيد الراسمالية شكل انسانيتهم وتطلعهم الى اي شكل من اشكال الحياة اكثر كرامة» . ويرجع تاريخ هذا التعريف الى عام ١٩٠٥ . وكان لينين يكره محاولات الخلط بين المسيحية والاشتراكية، على وجه الخصوص والنزعة الاصلاحية في الكنيسة اشد خطرا في رايه، من نظريات «**المائة يوم السود** Cent nairs » ان ان مسيحية تقدمية متجددة اسوأ الف مرة من مسيحية متخلفة ، متفسخة . فقد كتب يقول : « ان الكاهن الكاثوليكي الذي يغرر بالبنات يخيف اقل من الكاهن الذي يرتدي رداء الكهنوت دون غلاظة الدين، ومن الكاهن الذي يحمل افكارا ديموقراطية

---

١ ـ انظر لينين : في الدين .

ويعفل بانشاء المعابد وانتشارها . فالكاهن الاول يمكن فضحه وادانته وطرده ، اما الثاني فلا يمكن التخلص منه بهذا اليسر ، والنيل منه اصعب الف مرة » وقد لعبت حجة «الكاهن بلا مسوح» دورا هائلا في الدعاية ضد الدين . وقد وجد الذين تصيبهم هذه الحجة انفسهم يشكلون عددا وافرا اذ ضمت صفوفهم كل من لم يكن ماديا ، وكل من كان يعترف بمبدا روحي ، مهما كانت درجته ضعيفة ، وبصورة عامة فلاسفة الاتجاه الروحي والمثالي جميعهم . بل ان اينشتين نفسه لقب بال«كاهن المقنع» كان يعترف بوجود عاطفة كونية يمكن وصفها بانها عاطفة دينية . وكان لينين يكره كلمة الدين نفسها وعارض بعنف اعتبار الاشتراكية كدين كما يبدو ان لوناتشارسكي اراد ذلك . اذ كان لوناتشارسكي نفسه «كاهنا بلا مسوح»، ويدعو الى «بناء اله» على الرغم من ان نظريته كانت صورة عدائية من صور الالحاد .

ولكن على الرغم من ان الكراهية التي كانت تعتلج في صدر لينين للدين فانه كان يعارض دائما طرح المسالة الدينية في مقدمة المشاكل ، والنظر فيها كمسالة مستقلة بذاتها خارج المعركة الثورية بين الطبقات . كما عارض المساس بالعاطفة الدينية الشعبية مع انه ، هو ، سخر من هذه العاطفة بجلافة . الا انه اوصى بقراءة الفلاسفة الفرنسيين الملحدين في القرن الثامن عشر وهو ما يبين الى اي حد ارتبطت نزعة الالحاد الماركسية اللينينية بعصر «الاستنارة» البورجوازي .

ولكن مهما دامت روح القرن الثامن عشر المادية المستنيرة قوية في الشيوعية فان الشيوعيين الروس ، المتخصصين في الدعاية ضد الدين ، قد فرقوا بين الكفاح الذي تقوده البورجوازية المتقدمة ضد الدين ، وبين معركة الطبقات ، البروليتارية ، الثورية ضد الدين . وفي الادب السوفييتي المناهض للدين ، على ضخامته ، لفزارة ما حظيت به فيه الدعاية ضد الدين ، تكشف عن هجمات موجهة الى بليخانوف لانه حارب الدين من وجهة نظر «المستنيرين» ، ولان موقفه من الدين كان موقف اللامبالاة والسخرية . كان بليخانوف يعتقد بان نمو التعليم سوف يؤدي بطبيعة الحال ، الى انقراض المعتقدات الدينية . ويختفي الدين من تلقاء نفسه ، نتيجة «تيار ذاتي» دون صراع محموم ينطوي على العنف . كان المقصود ، بالنسبة لبليخانوف تغيير شكل المعاني المجردة concepts اي ان المسالة هي قبل كل شيء مسالة علمية وفلسفية . الا ان اللينينيين اعلنوا في وجه هذا الراي المعركة الثورية بين الطبقات، التي تحولت بصورة

حتمية الى اضطهاد . وقد الحوا على حقيقة ان الكفاح ضد الدين ليس كفاحا علميا كما هو بالنسبة لد«مستنيرين» بل هو كفاح طبقات. وقد ادين بعض المتضلعين في الماركسية الغربية مثل كاوتسكي Kaustky وكونوف Kaunoff باعتبارهم من الرجال المستنيرين Aufklarers ورثة القرن الثامن عشر ، لم يفهموا هذه النظرية الطبقية . فهم عقلانيون ووضعيون . وليسوا بالتالي ماديين جدليين ـ مصابين اذاً بالراديكالية البورجوازية . ومع ذلك كان لكتاب كاوتسكي : **«اصول المسيحية»** تاثير كبير في الاوساط الماركسية ، واستغلته روسيا السوفييتية ، في السنين الاولى لاغراض دعايتها ضد الدين . كما يمكن ان يقال الكلام نفسه في كتاب كونوف : **اصول الايمان بالله** . ولكن كتابي كاوتسكي وكونوف لم يعودا يفيان بمتطلبات الاورثوذكسية في الماركسية ـ اللينينية ، منذ اللحظة التي انحازت فيها الفلسفة الى «الاتجاه العام» ومن هنا كان رفضهما . فقد ربط كاوتسكي المسيحية بحركات البروليتاريا الرومانية : وهي وجهة نظر ضارة بمعنى انها تستطيع ان تبعث شعورا من التعاطف مع المسيح لدى العمال والفلاحين . بالاضافة الى ان كاوتسكي ينظر الى المسيحية ليس انطلاقا من صراع الطبقات فحسب بل يدرس فيها نتيجة فعل الوسط الاجتماعي اعني انه يميل الى التفسيرات «الميكانيكية» لا الى «الديالكتيكية» وهذه هرطقة جديدة . اما كونوف ، فقد اتهم بانه استخدم نظريات العلماء البورجوازيين ومن بينها نظرية تيلور في حيوية المادة ، فهو وضعي لا ديالكتيكي . وهكذا كانت اهداف الدعاية تقضي بمعالجة مسالة الدين بوصفه مجرد اداة لاضطهاد طبقة وما عدا هذه النظرة يكون ، صراحة ، بورجوازيا . اذ ليس ثمة ما يزودنا بالفهم الحقيقي ، الصحيح ، لما يمكن ان يكون عليه جوهر الاديان الا المادية الجدلية الصحيحة (الاورثوذكسية). وثمة فيلسوف سوفييتي شاب كتب كتابا في اصل الدين . وفي احدى المناقشات التي اثارتها دراسته هذه ووُجِهَ المؤلف بما يشبه الاتهام بانه اغفل ذكر آراء لينين في الطوطمية والسحر . فاذا بالفيلسوف يرفع يديه عندئذ ملتاعا ، يائسا ، ويقول ان لينين في جميع كتاباته لم يذكر كلمة واحدة عن هذين الموضوعين . ومعنى هذه الحادثة واضح : وهو ان مؤلفات لينين تمثل نصا مقدسا وان النص المقدس يجب ان يحتوي جوابا على جميع المسائل .

اذا كانت الناحية البسيكولوجية هي الجانب الضعيف في الماركسية ، فانها في اللينينية نظرا لديماغوجيتها المتزايدة ، تبدو اكثر بدائية واشد

ضعفا . فحتى بسيكولوجية الطبقة وبسيكولوجية الطوائف الاجتماعية ، كان حظها من الاعداد اقل وحلت مكانها احكام اخلاقية . وظهر اللينينيون انهم عاجزون عن وضع موازين فكرية ، اذ بقيت موازينهم انفعالية محضة. وظل عالم في مثل حساسية البسيكولوجيا الدينية مستعصيا عليهم . وبقي الفرع الموجه للدعاية ضد الدين، بين فروع الادب السوفييتي جميعها، في ادنى مستوى ويكاد ان يكون غير محتمل من وجهة النظر الجمالية . بل ان الصور الهزلية caricatures المخصصة للفرض نفسه ، خالية من الذوق كذلك وهي على رغم بدائيتها ، تكاد لا تفهم من الجماهير . وقد وضعت مناهج للبحث methodologie بقصد الكفاح ضد الدين . وهي دعاية فرضت على كامل الفلسفة السوفييتية ، التي تعتبر صحيفة(اورثوذكسية) والتي تعكس توجيهات الاتجاه العام . بل ان الصراع ضد الاديان جميعها يدخل مشروع السنوات الخمس، اذ ليس مشروعا اقتصاديا فحسب ولكنه اعادة شاملة لبناء الحياة .

يعترف واضعوا المشروع كم هي حية المعتقدات الدينية في صدور الشعب، وانها اكثر حياة من اية عقيدة مستوحاة من السياسة او الاقتصاد. ذلك ان الشيوعيين في الحقيقة قد سجلوا اهم هزائمهم المؤثرة ، في الناحية الدينية . لقد راوا انفسهم مضطرين الى ان يراعوا ما كانوا يسمونه اوهاما او احكاما قبلية والى تعديل مناهجهم بدافع اهتمامهم بالعامل الديني . فهل يمكن ان يكون الانسان شيوعيا ، عضوا في الحزب وفي نفس الوقت مسيحيا مؤمنا ؟ وهل تمكنه المشاركة في برنامج الشيوعية الاجتماعي دون ان يتبنى نظرة الشيوعية للعالم ؟ ودون ان يكون ماديا جدليا وملحدا ؟ هذه هي المسالة الاساسية .

- ٢ -

ان الشيوعيين ، خلافا للاشتراكيين الديموقراطيين ، لا يقرون ان يكون الدين قضية خاصة بين الانسان وضميره : يريدون على العكس ، ان يجعلوا منه امرا اجتماعيا . فواقع النظر الى الدين بوصفه مسالة شخصية محضة ، والى حق كل ضمير في الحرية الذاتية ، يشكل فقرة الزامية في كل برنامج ليبيرالي وديموقراطي . ولكن كارل ماركس ، الذي يحكم على الدين على انه «افيون الشعوب» ، وعلى انه اكبر عقبة على طريق تحرير

الطبقة العاملة وتحرير الانسانية ، ما كان ليستطيع ان يجعل منه «قضية خاصة» . كان لا بد له من ان يصبح موضوع معركة اجتماعية .

لقد مضت الشيوعية براي ماركس هذا الى اشد نتائجه تطرفا . الا ان الاشتراكيين الديموقراطيين الذين كانوا ما يزالون ينطون على بعض المبادىء الليبرالية ، لم يقبلوا الاخذ براي ماركس . وقد اعتاد الشيوعيون جميعا على تسمية الاشتراكيين الديموقراطيين . «الاشتراكيين الخونة» وكان اتهامهم خاصة في مادة الدين . غير ان الاشتراكيين الديموقراطيين استمروا يعدون انفسهم ماركسيين وكانوا يقبلون اعضاء في صفوف حزبهم مسيحيين مؤمنين الى حد القبول بالاساقفة والاساتذة في علم اللاهوت. وهو ما يثبت كما سبق ان ذكرنا في مناسبات عديدة ، بأن النظرية الاشتراكية الديموقراطية لا ترى انها تمثل «تصورا شاملا للعالم» وانها لا ترغب في شيء سوى ان تكون حزبا سياسيا ونظاما للاصلاح الاجتماعي: ولست اتكلم عن الاشتراكية الانكليزية ، التي تنتمي الى المسيحية اكثر منها الى الماركسية . اما الشيوعية ، فعلى العكس تريد ان تكون قبل كل شيء «تصورا للعالم» . فهي تعلن عن نفسها انها «شمولية» ، ولهذا تعلق اهمية هائلة على الواقعة الدينية . وقد اقامت الشيوعية الروسية ـ والشيوعية ، بل الشيوعية على وجه العموم، هي خلق روسي ـ برنامجها كله انطلاقا من هذا التصور . وينص دستور الحزب ـ ليس الحزب الشيوعي الروسي فحسب بل والدولية كذلك على ان كل من يقبل عضوا يجب ان يكون ملحدا وان يقوم بالدعاية المناهضة للدين ، ويطلب منه ان يقطع كل صلة له ، ايا كانت ، با لكنيسة . فان لينين نفسه قد حدد بدقة جميع هذه المبادىء . فالدين لا يكون شانا خاصا الا داخل دولة بورجوازية حيث يكون «دور الانسان الشيوعي نفسه عندئذ هو دعم قضية حرية الاعتقاد وفصل الكنيسة عن الدولة وقضية الدين «الخاص» ولكن الامر يصبح مختلفا تمام الاختلاف ، جدليا ؛ في اللحظة التي تطرح فيها المسالة داخل الحزب الشيوعي وداخل دولة ومجتمع شيوعيين . اذ يكف الدين عن ان يكون امرا خاصا ليصبح مسالة اجتماعية من اهم المسائل ويجب ان تدار المعركة ضده بلا هوادة . فالشيوعي الحقيقي الكامل لا يمكن ان يكون معتقدا دينيا ، وهو لا يمكن ان يكون مسيحيا . وثمة تصور للعالم محدد سلفا يفرض عليه ، اذ يجب ان يكون ماديا وملحدا ، ملحدا مناضلا. ولا يكفي ان يشارك الشخص في البرنامج الاجتماعي الشيوعي ليصبح عضوا في الحزب . يجب القبول بهذه العقيدة ، المعارضة للعقيدة المسيحية ،

التي تقوم عليها الشيوعية بصورة اساسية . والآداب السوفييتية بأكملها تؤكد ، صراحة ، هذه المصادرة Pastulat ، ويطلق الشيوعيون على انفسهم لقب خصوم الاخلاق الانجيلية والمسيحية وخصوم المحبة والشفقة والرحمة . وهذا هو الجانب المخيف فيهم .

ولاسباب انتهازية ، تعرضت هذه الاجراءات الصارمة التي تحدثنا عنها للخروج عليها من جانب طبقة العمال التي لا تزال «الاحكام القبلية» الدينية ، حتى الآن تجد حظوة في صفوفها .

لقد قبلت مشاركة العمال في البرنامج الاجتماعي الشيوعي دون التحقق من معتقداتهم . وهو استثناء لم يكن في الوسع قبوله بالنسبة لمثلي الانتليجنسيا . تدل عليه قصة الشيوعي السويدي شيشلوند chechlund كانت القضية التي عبر عنها تقول ان الشيوعي يمكن ان يكون ايضا مسيحيا يمارس شعائره الدينية . ولكنه هوجم هجوما عنيفا واستقبل بقسوة ، خاصة من قبل الشيوعي ياروسلافسكي Iaraslavski (١) احد كبار المختصين بالدعاية ضد الدين وكذب تكذيبا عنيفا . فالحزب الشيوعي يمثل ببنيته وبحالة اعضائه النفسية ، نوعا من المذهب الالحادي ، مذهب متدين ملحد يمسك بزمام السلطة . وسوف يكون من الخطأ الاعتقاد بان الاضطهادات الدينية في روسيا السوفييتية كانت موجهة ضد الكنيسة الاورثوذكسية وحدها ، باعتبارها الكنيسة المهيمنة ، المرتبطة في الماضي بالملكية والرجعية . فقد اتضح ان بعض الطوائف كالمعمدانيين مثلا ما زالت تعتبر اشد خطرا ، وان محاربتهم ، في نفس الوقت ، ما زالت اكثر صعوبة لانهم هم انفسهم ، كانوا حتى ذلك الحين مضطهدين فلم يكن بالامكان الخلط بينهم وبين اية قوة من قوى النظام القديم . فالمسيحيون المستعدون للاعتراف بالحقيقة الشيوعية في المجال الاجتماعي يعتبرون اشد ضررا واكثر خطرا ، من الذين يمكن وصفهم بمعادين للثورة او بانهم محرضون على الترميم . وافضل من هؤلاء المسيحيين المتعاطفين مع الشيوعية ، البورجوازية ذات التفكير الحر الملحدة والمادية ، اذ عند الضرورة يمكن الاستفادة منها من اجل اعادة البناء الاشتراكي وهي سوف لا تكترث بـ«تصور العالم» هذا التصور للعالم الذي تتصدع وحدته بوجود المسيحيين الشيوعيين ، اعضاء في الحزب ولينين

---

١ ـ انظر كتاب ياروسلافسكي حول الجبهة المعادية للدين وضد الدين والكنيسة .

نفسه هو الذي صاغ هذه التوجيهات .

لا نجد في الادب الرسمي المخصص للدعاية ضد الدين . ما يحث على الاضطهاد . ويقول ياروسلافسكي المختص في هذه النواحي انه لا فائدة من خلق الشهداء . لكنهم ، في الواقع يصنعون الشهداء . فقد ارغم القساوسة على العيش في ظروف بائسة ، لقد غدوا بعد ان عروا من كل شيء وحرموا من ابسط الحقوق الانسانية ، منبوذي الدولة السوفييتية ومن الواضح انه اريد لهم ان يحشروا في وضع بحيث لا يتمكنون فيه من البقاء . لقد اعيدوا من مركز خدمتهم للشعائر الدينية حيث لم يكن بمقدور احد توجيه الاتهام ضدهم ، فحصروا في وضع مادي واخلاقي غير محتمل . وبلغ الامر ببعضهم انهم فضلوا السجن اذ كان القساوسة يعتقلون باستمرار ويلقى ببعضهم في السجن ويقتلون رميا بالرصاص . والشيوعيون الذين يترددون الى الكنائس يطردون من الحزب ويفصل الموظفون السوفييت من وظائفهم ولا يستطيع الانسان مشاهدة قداس الا بصرية عظيمة ، في حي بعيد عن حيه ، في ضاحية من الضواحي ، غالبا . لذلك فان ممارسة العقيدة الدينية جهارا تتطلب في روسيا السوفييتية بطولة من الانسان ، وتؤدي احيانا الى الاستشهاد . فالكاهن يستطيع فيما عدا وظيفته ان يتكلم عن الله في الكنيسة ، وحدها فحسب . فحرية الاعتقاد في مادة الدين لا وجود لها اذن . وهكذا فالدستور السوفييتي الذي يعلن فصل الكنيسة عن الدولة وحرية الاعتقاد ، لن يكون له اي معنى . ما دام ان الاكراه لا يوجد في الوقائع فحسب ، ولكنه داخل في التصور الشيوعي بكامله ، في الايديولوجية الشيوعية بكاملها . واذا حدّث احدهم ممثلي السلطة السوفييتية عن الاضطهادات الدينية كانوا يجيبون عادة ان الاضطهادات الدينية لا وجود لها وان الذين يلاحقون هم فقط اعداء الثورة وبين هؤلاء اساقفة وقساوسة ومؤمنون علمانيون وانه لا يصار الى اقلاق راحة الكنيسة الا في النطاق الذي تمثل فيه ملاذا للرجعية والقيصرية . ويعلنون ان هذه المعركة التي يديرونها معركة ايديولوجية وانها تدار وفقا لما كان يراه ماركس .

بيد ان هذا تفسير ديبلوماسي ، ويظل نظريا محضا ، فالشيوعيون بوصفهم اسياد الحكم ، يمارسون دكتاتورية لاسياسية او اقتصادية فحسب ولكنها دكتاتورية فكرية لا تنجو منها لا الارواح ولا الضمائر ، مما يجعل الوسائل جميعها مباحة لهم وانهم يستعملون الوسائل جميعها . وما حققوه بالفعل ، هو «حكم الفكر idéacratie » ، يشبه شكلا مجددا

للطوباوية الافلاطونية . فاصبح انكار حرية الاعتقاد والفكر وعدم التسامح الديني ، من النتائج التي لا مفر منها في مثل هذا النظام .

وهكذا فان جميع الخصومات النظرية ، في روسيا السوفييتية والايديولوجية والفلسفية من جهة وجميع المنازعات العملية والساسية والاقتصادية من جهة اخرى تحكمها مفولتا الاتجاه الحق : الاورثوذكسية والهرطقة . واي اتجاه يميل نحو «الشمال» او نحو «اليمين» في السياسة او في الفلسفة يعتبر جنوحا الى الهرطقة . والاتهام بالهرطقة يشكل تهديدا ابديا والخط الذي يحدد الاورثوذكسية خط ديني ولاهوتي . لا سياسي . فعندما تنقاد السياسة على هذا النحو لشعارات النزعة الصحيحة (الاورثوذكسية) ، فان الدولة تصبح كنيسة . تلك كانت التيوقراطية المسيحية في العصور الوسطى وهذه هي «التيوقراطية» السوفييتية ولسوف يكون هذا حال اية حكومة تنزع الى تطبيق «البث totalirarisme وقد انشأ ايفان الرهيب الذي سميناه من قبل ، اشهر منظر للحكم الاستبدادي مفهوم المملكة الاورثوذكسية الذي يتولى القيصر وفقا له السهر على خلاص ارواح رعاياه . وهكذا كانت الدولة تقوم بدور الكنيسة . كذلك فان الحكم الشيوعي يعنى ايضا بارواح الذين يتولى حكمهم، اذ يريد ان يربيهم على الحقيقة الوحيدة التي يكون فيها خلاصهم وهو يعرف اين تكون هذه الحقيقة : انها حقيقة المادية الجدلية . وتمده كراهيته للمسيحية بالقوة المحركة حيث يرى فيها وحدها اصل الظلم والعبودية والجهل . ويبدو ان الشيوعيين الذين يجهلون المسائل الدينية جهلا تاما ، لا يتحركون في هذا المجال بدافع العقل وحججه بل بدافع ايمانهم الديني الخاص . وكان في وسع الحكومة الشيوعية ان تظهر مترددة احيانا في السياسة وان تبرهن عن انتهازية في الحياة الدولية وان تقبل منح بعض الحرية في مجال الفن والادب ، وان تتغير وتتطور وتتامم وتتحسن ، وتتبرجز طباعها (ولا شك في ان هذا التبرجز يمثل اعظم الاخطار ليس بالنسبة للشيوعية فحسب بل وبالنسبة للفكرة الروسية في العالم) . غير ان ثمة ميدانا لا يمكن مس الشيوعية فيه باي تعديل ، وهي فيه لا ترحم ولا تتسامح ولا تقر فيه باي امتياز وهذا الميدان هو «تصورها للعالم» اي ميدان الفلسفة وبالتالي الدين . لذلك نجد الادب السوفييتي الدعائي المناهض للدين ، ادبا متصلبا باكمله ، وان دغماتيته Dogmatisme تتجاوز كل ما تجلى من دغماتية اللاهوتيين المسيحيين . وقد يسهل على الحكم السوفييتي ان يصل الى احياء الراسمالية في الحياة الاقتصادية . اكثر

من ان يتساهل في حرية الاعتقاد الدينية وفي حرية انشاء ثقافة روحية. هذه الكراهية للدين وللمسيحية تضرب جذورها عميقة في الماضي المسيحي كله .

- ٣ -

هذه الكراهية تنطوي على تناقض لا يستطيع ملاحظته من تطمس العقيدة الرسمية قدرتهم على المحاكمة . فنمط الانسان الشيوعي الامثل، واعني به الشخص الذي ينخرط بكل قواه في خدمة الفكرة . القادر على التضحيات الجسام وعلى الحماس المجرد عن الهوى هو ، في الحقيقة ، سليل التربية المسيحية . ووليد عصور جبلت فيها المسيحية طبيعة الانسان بروحه . وهو تاثير ، غالبا ما يظل خفيا ، باطنيا ، حتى في ضمير الذين ينكرون المسيحية بل وحين يصبحون اعداءها . واذا توقعنا ان نستأصل الدعاية المناهضة للدين ، في النهاية ، كل اثر للمسيحية ، وان تزيل كل شعور ديني ، فلا بد لنا من الاقرار انه سيتضح حينئذ بأن تحقيق الشيوعية نفسها يصبح مستحيلا . اذ اننا لن نجد ، في هذه الحالة من يقبل على الاستشهاد ، ولن نجد من يقبل بالتضحية بحياته في سبيل اهداف عليا : حينئذ تصبح الغلبة للنمط الاناني الذي يهتم بمصالحه الخاصة وحدها . وهو نمط قد غدا منتشرا ، في الوقت الحالي ، انتشارا واسعا وهو الاصل في عملية التحول الى البورجوازية . لقد ارادت الشيوعية ، في جوهرها ، لا تحقيق العدالة وحدها في العلاقات الانسانية، بل والاخوة والاتحاد في الايمان بين الاشخاص ويا لها من حماقة تعترض امكان تحقيق اخوة بين الاشخاص بضغط تدريب اجتماعي خارجي ، بطريق العادة كما كان يقول لينين . فلبلوغ هذا الهدف لا بد من اطلاق قوى روحية عميقة . اما الشيوعية المادية الصرفة والملحدة فستفضي اما الى الاخفاق او الى مصيبة عظيمة او الى خلق مجتمع آلي لا يمكن ان يميز فيه شكل الانسان نفسه . ولكن الشيوعيين يكرهون المسيحية لتطبيقها على موضوع غير موضوع الدين . ولا بد من أن تكون هناك اسباب جدية وعميقة لمثل هذه الكراهية قد لا تعزى مباشرة الى نظرية مجردة . فلم يكن من الضروري ان يلقى المسيحيون وهم يدينون كفر الشيوعيين ودعايتهم الدنسة ، الخطأ كله على الذين يكيلون لهم الاتهام ، فقد كانوا هم ايضا

ملامين ، في الحقيقة . كان عليهم وهم لا يملكون حق الاتهام او المحاكمة ، ان يظهروا بمظهر النادمين التائبين وان يتساءلوا عما فعلوه . انفسهم . من اجل تحقيق العدالة في الحياة الاجتماعية وماذا حاولوه لتشييد صرح الاخاء خارج نظام الكراهية والضغط الذي يدينونه . كانت معايبهم . وكانت معايب الكنيسة التاريخية عظيمة فقادت الى هذا العقاب العادل . وكان لا بد من ان يسفر تحريف كلام المسيح واستخدام الكنيسة المسيحية اداة لدعم الطبقات الحاكمة في المجتمع ، عن نتيجة وهي ان يكف الذين قاسوا من جراء انتهاك حرمة العقيدة المسيحية عن التعلق بها . افلا يجد الانسان في الانبياء وفي الاناجيل وعند مشاهير معلمي الكنيسة . تنديدا بالثراء وبالملكية وتأكيدا على مساواة جميع الناس امام الله ؟ كما يجد في القديس باسيل العظيم وفي القديس جان كريزوستوم على السواء نقدا مرا للظلم الاجتماعي الناشىء عن سوء توزيع الثروات ، يبدو برودون او كارل ماركس باهتا امام قسوته . كان معلموا الكنيسة يعلنون بأن الملكية هي السرقة . وكان القديس جان كريزوستوم شيوعيا حقيقيا وان كان من عصر لم يكن راسماليا ولا صناعيا . وهكذا يمكن التاكيد بكثير من الصحة على ان للشيوعية اصولا مسيحية او يهودية ـ مسيحية (١) ولكن سرعان ما جاء وقت كان لا بد فيه للمسيحية من ان تتحول عن اصلها وتنصب نفسها اداة لخدمة القيصر . وهكذا اكتشفت فيها اداة للخدمة الاجتماعية. وطفق المسيحيون ، من بطاركة واساقفة وكهنة يدافعون عن الطبقات الحاكمة ، وعن غنى الاغنياء وعن سلطة المالكين . ومن عقيدة الخطيئة الشاملة استخلصت نتائج زائفة كانت تبرر وجود الشر والظلم واذا بالالم والاضطهاد يصبحان ضروريين لفداء الروح ، شريطة ان يقتصر تطبيقهما على الذين كانوا وقفا للعذاب ، في جميع الازمان ولا يجري تطبيقهما على الذين كانوا يدعون الحق في انزال الآلام بالآخرين . وكان الاذعان المسيحي، الذي اسيء تفسيره يؤول الى انكار الكرامة الانسانية طالما انه كان يقوم على قبول الاستبداد الاجتماعي كله . واستخدمت المسيحية اخيرا لاذلال الانسان وللدفاع عن الذين يضطهدونه . ولا غنى لنا هنا ، عن التذكر بأن للكنيسة معنيين واضحين متميزين: والخلط بينهما او انكار احدهما لصالح الآخر امر يقود الى عواقب قاتلة . فالكنيسة هي جسد المسيح الصوفي

---

١ ـ جيراد والتر ، اصول الشيوعية .

وهي حقيقته الروحية . وهي في التاريخ . تعمل على استمرار حيـــاة المسيح : ومصدرها المعترف به هو الوحي وهو تأثير فعل الله على الانسان وعلى العالم . ولكن الكنيسة ظاهرة اجتماعية، في الوقت نفسه، ومؤسسة اجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالوسط : توجد على صعيد مواز لصعيد الدولة . مستقل عنه . وهي كالدولة لها حقها ولها اقتصادها ولها مقدماتها الاجتماعية . لذلك فالكنيسة قد ائمنت بوصفها مؤسسة اجتماعيـــة وبوصفها جزءا من التاريخ . فقد مسخت حقيقة المسيح واحلت العنصر الانساني والزماني محل الالهي والابدي .

تواصل الكنيسة وجودها في التاريخ لا كفيض من الله فحسب بل وفقا لعملية الهية ـ انسانية . والجانب الانساني من هذه العملية هو الذي يقع في الخطأ هنا . ولكن الحقيقة الازلية لكنيسة المسيح تنخفض سرا حتى لا تغدو سوى مؤسسة . اي انها تصبح شيئا نسبيا ، وموضع شبهة . ووجها اجتماعيا لم ير اللينينيون فيها سواه . فلم ينظروا اليها الا من السطح كجماعة ذات ابعاد ، لا عمق لها في حياتها الروحية : وكان هذا هو عقابها . وهكذا كانت الشيوعية لوما موجها الى العالم المسيحي . حكما على عدم وجودها في دائرة انمام واجباتها الاساسية . والشيوعيون انفسهم لم يدركوا ولا يستطيعون ان يعوا الدور الذي يؤدونه حقيقة . فضلا عن انهم يفضحون تصرفات المسيحيين السيئة والمنبذة فانهم يمارسون عادات تماثل عاداتهم . ولكن مسؤوليتهم هنا قد تكون اخف لانهم ليسوا مسيحيين .

يقدم لنا كتابا الكاتب الامريكي هيكر Hecker (١) وليفة هامة ، تكاد تترك فينا انطباعا مضطربا . فلو ان هذا الكاتب كان يدافع عن الشيوعية ونظراتها الى العالم فحسب ، لبدا امره واضحا . ولكن موقفه من المسيحية يختلف عن موقف الشيوعيين الكاملين : ويبدو انه يريد الحفاظ على تعاطفه مع المسيحية الحقيقية ، بدافع من مانسيه لا هنك . ولكي ينجح في غرضه يبذل جهده في ان يعارض بها المسيحية الكنائسية Ecclérinast ique ولم يكن موقفه يختلف كثيرا عن موقف بعض الطوائف التي تتميز بفوارق عقلانية واخلاقية . وتدل اقواله في الدين المسيحي على انه لم يدرك وجهه الصوفي بتاتا . فالكنيسة في نظره ، مجرد مظهر اجتماعي يحدده الوسط ،

---

١ ـ انظر J. Hecker, religion et communis et Moscow dialoque

مصابة بالامراض والعلل جميعها التي تعلق بالطبقات الحاكمة عبر التاريخ. ولم يميز فيها تفكيرها الروحي . ورأى ان في اساس كل دين من الاديان شعورا من **الخوف** اخذ يتسامى شيئا فشيئا . وتفسيره الدين على هذا النحو هو تفسير سوسيولوجي بحت . وقد طرح هيكر كبديهية انحدار الانسان من القرد ، اي انه من فصيلة حيوانية . ورغبة منه في التمشي مع اتجاه الفلسفة السوفيتية فقد انضم الى المنحى الجدلي رغما عن ان الهيجلية لم تترك فيه اثرا بينا. ولكنه طبق جدله على الكنيسة الاورثوذكسية كأنها لم تكن موجودةالا في مظهرها الخارجي، ومن حيث شعائرها الدينية، دون ان يدرك وراءها اي سر من خلال روابطها الماثلة للعيان باشكال الماضي الصارمة .

قاد انكار هيكر للعالم الآخر الى اغفال ذكر موضوع الخلاص والحياة الابدية . فقيمة المسيحية تقوم، في نظره ، على الاخلاق وعلى تنظيم الحياة الاجتماعية وحدها ، والاورثوذكسية ، في رايه هي شكل بعينه من اشكال المسيحية لم يستطع ان ينشيء حكمة خلقية ethigue ولا أن يمارس تاثيرا يهدف الى تحسين المجتمع . فالمشكلة الدينية هي اذن هنا متعلقة في النهاية بالمنفعة الخارجية : ليس ثمة مكان فيها للبحث عن الحقيقة . وتلوح للانسان هنا النزعة البراغماتية الانجلو ـ ساكسونية التي تتعارض في اساسها مع التصور الشيوعي للعالم وهو تصور يتطلع الى معرفة الحقيقة المطلقة. على أن هيكر ينتسب من نفسه مدافعا عن الشيوعية الروسية في الغرب ولكن تخيريته Eelectisme التي توجه نظراته حالت بينه وبين ان يكون شيوعيا كاملا . كان معجبا بتولستوي ومن الواضح انه مال الى فهم المسيحية كما فهمها تولستوي اي بوصفها **اخلاقا**. واني لاعتقد شخصيا ، أن تولستوي قد ايقظ ضميرا في جسم مسيحي متصلب وان نقده للمسيحية التاريخية كان على جانب كبير من العدل . الا انني قد كشفت فيه من قبل بعض عناصر العدمية الروسية تجعل منه ممهدا للشيوعية الحالية ، وثمة مجال واسع المدى ، بين التأكيد على أن الشيوعية تحقق افكار تولستوي ، كما يفعل هيكر ، وبين حقيقة هذه الافكار ، ذلك أن الايديولوجية الشيوعية ، وخاصة تطبيقها ، تتعارضان على خط مستقيم مع العقيدة التولستوية التي تجد في الحقيقة لا مقاومة العنف وانكارا فوضويا للدولة وللحضارة التكنيكية وايمانا بالاخاء الانساني الطبيعي ، والارتباط بالارض وتأكيد الشعور الديني . اي جميع الامور التي يمثل المذهب الشيوعي وجهها المضاد .

كانت هجمات هيكر التي شنها على دور الكنيسة الاورثوذكسية في الماضي صحيحة في الغالب. فليس اسهل من البرهان كما بينا في مناسبات عدة . على تواطؤ الكنيسة التاريخي على المظالم الزمانية جميعها والرجس كله . فقد استسلمت منذ عهد قسطنطين الى مملكة القياصرة . وكان لا بد للمؤثرات الاجتماعية من أن تجري بتزايد على حساب القيم الروحية . ولم يكن ثمة حاجة لانتظار عهد بطرس لكي نشاهد الكنيسة وقد اصبحت تابعة . ذليلة للدولة . فمثل هذه المذلة كانت واضحة من قبل في عصر امراء موسكو العظام ثم جاء الانشقاق في القرن السابع عشر فحطم نفوذ الاكليروس الروحي . واصبح مستوى منصب الاسقف اضعف ما يكون . وسرعان ما تحول الاساقفة الذين كانوا في ظل حكم التتر، وفي مطلع العصر الموسكوفي ، يلعبون دورا رئيسيا ، الى موظفين وحكام اقاليم يرصعون صدورهم بالنجوم والاشرطة . يتنقلون في عربات فخمة . بينما كانت طائفة الستاريتس هي التي تقوم بدور الاساقفة الحقيقي ، وتمثل ظاهرة من ابرز ما يميز الحياة الدينية المستقلة . وهذه الحقائق نفسها تنطبق ، في المقابل على الكنيسة الكاثوليكية . وهكذا كان لا بد من أن يدفع ثمن الاخطاء المتراكمة من جانب الكنيسة الاورثوذكسية prava-slave في الثورة. الا أن هذا الاعتبار لا يمكن أن يقودنا الى تبرير اعمال الجلادين . فالاعتراض على عبودية الاكليروس في مملكة قيصر لا يعني تجنيد عبودية جديدة ، في ظل قيصرية جديدة ، وان حملت اسم الشيوعية .

وعلى الرغم من الحقيقة كلها التي يذكرها هيكر عن الاورثوذكسية والتي يمكن أن نبينها ايضا في الكاثوليكية والبروتستينية فان نظراته العامة خاطئة وبرهانه كله باطل في هذا الموضوع . ونعزو هذا الى ان الروح لا وجود لها وكذلك الحياة الروحية بالنسبة لهيكر العقلاني . ومع ذلك فان هذه الحياة الدينية الخفية في الاورثوذكسية هي التي كونت النفس الروسية ، وهي التي اثرت ، على الاكليروس الرسمي . ومن العبث أن يقلل هيكر من قيمة هذه الحياة ويحصرها في شكلية الطقوس الظاهرية ، ويحولها الى ضرب من السحر ومن العبث ايضا ان ينكر ما فيها من عمق وما يحمل انعكاسا للحياة العلوية. فاذا كانت عقيدة شومياكوف Chomikoff في الكنيسة ، وفي شمولية مجمع المطارنة وفي الحرية قد انزلت من قبل هيكر منزلة العقيدة الطوباوية التي يمكن تحقيقها ، فذلك لان الواقع بالنسبة له يتحدد بالمعطيات التجريبية ، ولانه غير قادر على فهم المعنى الوجودي antolagique والمتعلق بالافكار المحتجب وراء عالم

التجربة ، الذي يعارضه في الوقت نفسه الذي يؤثر فيه . وقد فضح المفكرون الدينيون الروس جميعهم في القرن التاسع عشر وحتى في مطلع القرن العشرين اخطاء الكنيسة التاريخية الروسية بقسوة لا تقل عن قسوة هيكر . فالقول بأن الكنيسة الروسية اصيبت بالفالج يرجع الى دوستويفسكي المسيحي . وهكذا ، لم تكن بنا حاجة للشيوعية ولا لمؤلفات السيد هيكر لبيان وضع التبعية في علاقة الكنيسة بحكومات النظام القديم . ذلك أن الذين كانوا يعتبرون انفسهم مؤمنين وحتى من انصار الملكية ، كشومياكوف ، سامارين ، اكساكوف ، دوستويفسكي ، فلاديمير سولوفييف وكثيرين غيرهم ، استعملوا قبل هيكر لهجة بالغة القسوة وقد سارت هذه الحركة كلها التي بداها شومياكوف في الطريق الاصلاحي دون ان تتخلى عن عملها في النطاق الاورثوذكسي. فاللااتباعية nonconformisme لم تكن تظهر للوجود داخل المذاهب المنشقة فحسب بل وفي صفوف هؤلاء المفكرين الدينيين كذلك ، ممن نرى هيكر لا يعيرهم اهتمامه . كما انه اغفل الدور الهائل الذي ادته الكنيسة طيلة عصر التتر ، وما في روسيا القديمة من امثلة على المحبة charité وفي روسيا الحديثة من قداسة . وهو لم يدرك ان الاورثوذكسية ، الغربية عن كل اخلاقية قد صاغت نفوسا وغذتها . حتى اذا ما بلغت هذه النفوس درجة الوعي ، انفلتت منها وان تلك الاورثوذكسية هي التي بعثت الرحمة والشفقة الانسانية اللتين كان لا بد للادب الروسي فيما بعد أن يعكسهما . كما انه لا يدرك ان ملامح القداسة التي نتبينها لدى شخص مثل تشيرنشفسكي ، مثلا ، قد ورثها عن هذه المسيحية التي ارضعت طفولته وشبابه . ان انحطاط الكنيسة ووهن ايمان الجماهير الشعبية ، قد سبقا ، كما يحدث دائما ، وقوع الثورة . والنهضة الدينية التي حدثت في مطلع القرن العشرين قد حدثت في نطاق من حلقة ضيقة جدا ، وكانت تعبيرا عن نخبة من البلاد اكثر منها ظاهرة للحياة فيها . لذلك كان لا بد لها من أن تظل ، كما بينا من قبل ، دون تاثير من الناحية الاجتماعية ، وكان لا بد من ان يصبح راسبوتين ، فيما بعد ، رمزا لتفسخ العالم القديم وان يبرهن الى اي مدى كانت الثورة الروحية حتمية . ولكننا نستطيع، اختصارا لهذا العدد الهائل من البراهين المعقدة ، ان تقيم الدليل على ان هيكر ينكر الحركة الفلسفية ـ الدينية برمتها وهي الحركة التي يرغم المرء على خلطها بالاورثوذكسية الرسمية .

فهو قبل كل شيء يستعمل ، خلافا للصواب ، تعبير «البحث عن الله» الذي لا ينطبق على الاتجاهات المسيحية الصريحة . وحين يتكلم عن

«المسيحيين الجدد» ، وهي عبارة يجب ان تفهم منها المسيحيين الحقيقيين المقتنعين بامكانية قيام عصر جديد للمسيحية ، يدخل بينهم ف. روزانوف V. Rosanov ، وهو مفكر عبقري ، لكنه عدو صريح للمسيحية . والاحرى ان نسميه « وثنيا ـ جديدا » وعلى هذا المنوال تزدحم ملاحظات هيكر بالاراء غير الصحيحة . وتلك الظواهر الروحية التي يتحدث عنها . قد لاحظها من بعيد وحكم عليها جملة دون ان يحسب للفروق حسابا . فربما يفقد كل متتلمذ على الفلسفة الشيوعية ، على هذا النحو ، حسن التمييز بين الفوارق الفردية ذلك ان مشكلة الشخصية التي تطرح نفسها على الوعي المسيحي تغيب عن بال هيكر تماما. والدفاع عن مبدأ الشخصية يتشابه مع الانانية ، في نظره . ويعتقد بأن الانجيل يعارض المبدأ الفردي حتى يهيب بكل شخص ان يقدم حياته من اجل جاره مع ان هذا المبدأ الفردي هو اساس الدين المسيحي نفسه الذي ينسب لكل انسان قيمة بوصفه صورة الله وشبهه . على ان الانسان بالنسبة للمسيحية هو واقع اكثر جوهرية واعمق من المجتمع . فهو يستطيع بل وغالبا ما يجب عليه ان يضحي بحياته ، ولكن لا بشخصيته ، ذلك ان شخصيته هي التي يجب ان يحققها ، ويكون هذا التحقيق احيانا بالتضحية بحياته نفسها. والشخصية هي المدعوة الى الحياة الابدية ، اي الى اقتحام الابدية . وهي مقولة روحية ودينية ، وهي بهذا الاعتبار تطرح مشكلة امام الانسان . اذ ان الشخصية تتميز عن الفرد الذي يمثل مقوله بيولوجية واجتماعية تصدر عن النوع وعن المجتمع .

وليس في وسع الشخصية ان تكون جزءا من مجموع وان تنتمي الى المجتمع أو الى العالم فهي تمثل كلا (١) . وينتمي عمقها الى العالم الروحي وليس الى العالم الطبيعي اما ما تتكشف عنه الفلسفة السوفييتية من اخطاء وافاق محدودة فانه يرتبط بعدم فهمها هذا لمشكلة الشخصية ، وفي نفس الوقت الذي تجعل فيه هذه الفلسفة من المجتمع ، اي من المجتمع الاشتراكي ، من الطبقة الاجتماعية التي هي طبقة البروليتاريا ، صنما ، وتميمة (٢) فانها تنفي الانسان الواقعي .

---

١ ـ انظر ن. بييردييف : انا وعالم الاشياء .

٢ ـ fetiche تميمة من اللفظ البرتغالي Feitiço وهو الاسم الذي اطلقه البرتغاليون على آلهة القبائل في افريقيا ويأتي في الفرنسية والانجليزية بمعنى الرقية والتميمة . ـ المترجم ـ

ولا بد لي كذلك من ان اقول بعض الكلمات في تفسير هيكر الخاطيء لتصوراتي الخاصة . فمن الواضح انه انخدع بالالفاظ التي استعملتها . من مثل « النزعة الارستقراطية » او « عصور وسطى جديدة » .. الخ. فاعتبرني من اتباع الارستقراطية الاقطاعية ؛ وهو امر بالغ الحماقة . اذ أن من يمكن ان يكون في عصرنا الحالي مؤيدا من هذا النوع ، يتهم بالجنون . والحقيقة انني اناصر مجتمعا لا تكون فيه طبقات اي انني من هذه الزاوية اقرب الى الشيوعية مني الى اي شيء آخر (١) ولكنني من جانب آخر مقتنع بضرورة وجود العنصر الارستقراطي ـ من حيث المبدا الكيفي ـ اي بضرورة عنصر شخصي ، يعارض عنصر الطبقة ، اي العامل الشرطي . ـ انني مؤيد على هذا النحو لارستقراطية روحية . ان عدم المساواة بين الطبقات يجب ان تزول . اما عدم المساواة بين الاشخاص فسوف تظهر في هذا المجتمع اشد واقوى . فيجب ان يتميز الانسان عن جاره ، بصفاته الفردية لا بمركزه الاجتماعي . والمبدا الارستقراطي الكيفي لا يمكن أن ينهار بزوال الطبقات الاجتماعية بل على العكس يجب ان يقوى حين لا يعود للطبقات وجود لان وجود الطبقات يحجب الفوارق الكيفية بين الاشخاص اذ تخلق مكانها فروقا مفتعلة ورمزية . فانا هنا نصير النزعة الشخصية المسيحية لا الفردية وبالتالي عدو لمبدا الشخصية . ففي المجتمع الراسمالي والبورجوازي تزال الشخصية وتنخفض الى مستوى واحد مع غيرها وتعامل كانها مجرد ذرة (٢) والفردية تعادي الفكرة المسيحية القائمة على وجود صلة بين الاشخاص ، اي الصلة التي تقتضي وجود الشخصية . وعندما اقول بأن العالم يسير نحو «عصور وسطى جديدة» فلا اعني العودة الى العصور الوسطى القديمة ، واقل منها العودة الى الاقطاع . هذا يعني، من باب أولى ؛ نظرة عامة لنمط من المجتمعات تسيطر فيه النطلعات الى الكمال intégrité والوحدانية unicité معارضا لفردية العصور الحديثة ، ويرى تزايد اهمية ذلك العنصر الديني ، الذي يمكنه ، عند الحاجة ، اتخاذ شكل نزعة نضالية مناهضة للدين . الا ان هيكر لم يدرك مطلقا كيف تطرح المشكلات الجديدة على الفكر الديني الروسي . واذ

---

١ ـ المسيحية وصراع الطبقات .

٢ ـ بل اميل الى الاعتقاد بأن الشخص هو الذي يكون ثوريا بالمعنى العميق لهذه الكلمة، وان الجمهور هو محافظ .

لم يكن هذا الفكر الديني الروسي قطع روابطه بتراث الكنيسة الاورذكسية الروحي الداخلي فهو يتم بالمسائل الجوهرية جميعها التي يهتز لها العالم المسيحي. وهكذا طرحت المشكلة الانتروبولو problème anthropologuque كما طرحت بالارتباط معها مشكلة الثقافة المسيحية والمجتمع المسيحي . فالفكر الديني الروسي هو الذي جاء ، بقريحته الخلاقة بفكرة الانسانية الالهية duohumanite ذلك ان الحلول الفردي لله قد تحقق في الانسان على نحو ما تحقق في يسوع ـ المسيح ، الانسان الاله : وفي الانسانية يجب أن يتم الحلول الجماعي، الشامل لله . والانسانية ـ الالهية هي استمرار لحلول الله : وبعدها تطرح مسألة حلول حقيقة المسيح في الثقافة وفي المجتمع المسيحيين الا ان هذا الفكر الاساسي في المسيحية يبدو كانه يكاد أن يكون خاصا بالمسيحية الروسية اما المسيحية الغربية فلم تعرفه الا قليلا . ومع ذلك فلا بد للفلسفة المسيحية من أن تفهم على انها فلسفة الانسانية ـ الالهية Theandrique ، على انها علم المسيحية Christologie حيث يتم فيها تجاوز حدود الفكر اليوناني والسكولاسيكي وكذلك المذهب العقلاني في العصور الحديثة . والحقيقة ان هذه المشكلات العديدة ظلت غريبة تماما عن هيكر . فهو لا يحكم بوصفه براغماتيا ونفعيا utilitariste ، على اهمية ظواهر الروح وقيمتها ، الا بالنظر الى نتائجها المباشرة . غير أن الاشكال الديني لدى الروس يتجه الى استكشاف مستقبل أبعد حيث لا تطرح القضايا الاقتصادية ابدا ـ انه يتجه الى الابدية . لكن هيكر يتولى الدفاع عما يسمى بالكنيسة الحية ويعطيها بالطبع الافضلية على الكنيسة البطريركية الاورثوذكسية . وقد بدا له ، كما بدا لبعض العقول الغربية ، أن الحركة التي دعيت بهذا الاسم كانت ضربا من الاصلاح الديني ، يكاد يشبه البروتستانتية : وهذا خطأ فلم تحدث أية حركة اصلاح في روسيا مع عصر الثورة : فالازمة التي هزت الاكليروس يعود تاريخها الى مطلع القرن العشرين . ومع ذلك فان زعماء هذه الكنيسة الحية ، الذين لا وجود لاهميتهم ، كانوا مجردين من اية فكرة دينية مبدعة . وقد وضع جزء من الاكليروس نفسه تحت تصرف السلطة ، ولا ينبغي أن نذهب الى ابعد من ذلك في البحث . اذ المقصود هنا لم يكن اصلاحات ، بل كان نوعا من الملاءمة مع سلطة الدولة وفقا لاقدم سنن العبودية الكهنوتية للدولة . فلم يكن اعضاء الكنيسة الحية جديرين باجتذاب أي تقدير خاص طالما انهم تحولوا الى وشاة برجال الكنيسة الاورثوذكسية لحساب البوليس السري السياسي . G.P.U.

الذين كانوا يتلقون التوجيهات منه . وما كان من الممكن لاية حركة في التجديد وفي الاصلاح ان تقوم في كنف الانتهازية والاتباعية بالوشاية الخسيسة وبالتجسس ، فمثل هذه الحركة حينما تحدث تتمخض عن شهداء منها : لا تدفع غيرها الى ان يكونوا شهداء . والكنيسة الحية لم تات بأية فكرة اصيلة او جديرة اللهم الا ضرورة خضوع الكنيسة للسلطة السوفييتية . حتى انها لم ترتفع الى مستوى التصور بان ثمة حقيقة مسيحية في الشيوعية . فليست العقيدة هي التي تهمها بل السلطة الشيوعية وحدها . اما انا فانني اعتنق افكارا متقدمة اكثر كثيرا ، من الناحية الاجتماعية ، من افكار الكنيسة الحية ؛ واكثر منها اؤمن بزرع جديد خلاق داخل المسيحية ـ بفيض جديد للروح القدس في الانسان . ولكنني بلا هوادة اعاديها ، لانني اعتبر الاتباعية اي النزعة الى الخضوع ، غير مقبولة في الحياة الدينية . وارى انه اولى بالكنيسة الاورثوذكسية ان تحاول اقامة نوع من المعاهدة الدينية بينها وبين الحكم القائم على نحو ما تصوره ؛ رئيس الاساقفة سيبرج . اذ لا ينبغي ان تقحم الكنيسة نفسها في الصراعات السياسية وان تبعد عنها كل شبهه في الابقاء على روابطها بالنظام القديم . الا انها يجب ان تسمو فوق مملكة قيصر . واعتبر وقوف الكنيسة حكما على النظام الراسمالي واعلانها حقيقة الاشتراكية والمجتمع العمالي دليلا على عدالة عليا ، ولكن احكاما كهذه قد فقدت كل مغزى ديني ـ فلم تعد سوى تصريحات تستجيب لاوامر البوليس السياسي السري .

نصل الآن الى مشكلة الشيوعية الاساسية، الى مشكلة علاقات الانسان بالمجتمع. ولما كان هيكر يتبنى في هذه الامور ضعف وجهة النظر الشيوعية فانه يجهل مشكلة الانسان في بعدها العميق . فماذا كان بالنسبة لماركس؟ لقد كان ماركس سوسيولوجيا ممتازا الا انه كاد ان يكون ضعيفا في علم الانتربولوجيا . فالماركسية تطرح مشكلة المجتمع على حساب مشكلة الانسان : وهذا الانسان لا يوجد الا بدلالة المجتمع . وهو ليس وظيفة تكنيكية من وظائف الاقتصاد . فالمجتمع هو ظاهرة اصلية لا يكون الانسان فيه سوى ظاهرة عارضة. ومثل هذه العقيدة في الانسان تتناقض تناقضا واضحا مع نقد ماركس الذي يتهم خلل aliénation الحياة البشرية التي تحول الانسان مناعا ، ويتهم الحط من مستوى الانسان . فثمة غموض هنا في اصل الفكر : هل تحويل الانسان الى وظيفة الالة في العملية الاقتصادية يشكل ما في الماضي وما في الاستغلال الراسمالي من شر

وخطيئة أو انه انطولوجيا (1) الوجود البشري نفسها ؟ والواقعة التي تبدو حاسمة من هذه الناحية هي ان أول تجربة لتحقيق الشيوعية، على الصعيد الماركسي ، وهي التي نشاهدها في روسيا ، كانت نتيجتها الحط من مستوى الانسان تماما كما كان شأن النظام الراسمالي وانها مثله حولت الفرد الى وظيفة الالة في الاقتصاد : وربما كان هذا هو السبب الذي حال دون حدوث انقلاب التاريخ الشامل الذي امل فيه ماركس وانجلز .

ومع ذلك فان الشيوعية لا تطمع في خلق مجتمع جديد فحسب بل تطمع بالتأكيد في خلق انسان جديد . ولا ينفك الكلام يدور في روسيا عن الانسان الجديد وعن بنية النفس الجديدة والاجانب الذين يزورون روسيا يتناقلون بدورهم هذا الموضوع ، ولكن الانسان الجديد لا يمكن ان يظهر الا حيث ينظر الى الانسان على انه اسمى القيم ، اما اذا لم يعتبر الانسان ، على العكس ، الا لبنة في بناء المجتمع والا وسيلة في العملية الاقتصادية فاننا عندئذ لا نشهد تجديد الانسان بل اختفاءه وتعميق تلك العملية في الحط من مستواه . وبعد أن يفقد الانسان العمق لن يبق الا مخلوق ذو بعدين : وبدلا من الموجود الروحي لن يبقى الا العامل الاجتماعي . ذلك أن الانسان لا ينتمي الى الزمن فحسب ، الى هذا الزمن الوقتي الذي لا يمنحه اي طابع دائم : ولكنه بعمقه ، اي ببعد العمق الذي يتميز به ، يشارك في الابدية . وخطأ الشيوعية في شكلها المادي والالحادي هو انها تخضع الانسان اخضاعا تاما لمقولة الزمان وانها لا تجعل منه سوى لحظة في سلسلة لحظات هذا الزمن المقسم ، كل لحظة ليست الا وسيلة للوصول الى اللحظة التي تليها .

ان الانسان ، في تصور كهذا ، يفقد وجوده الباطني : هذه هي الناحية التي تتكشف الماركسية فيها عن تحديد الازمة في النزعة الانسانية . الا انه ربما كان ماركس يملك ، وعلى الاخص في شبابه حيث كانت آثار المثالية الالمانية ما تزال باقية في فكره ، امكانية خلق انسانية جديدة . فقد بدا بمناهضة عملية تجريد الانسان من انسانيته التي بيناها . ولكنه فيما بعد كان لا بد له من أن ينجرف بدوره في التيار نفسه وهكذا تبدو الشيوعية

---

1 ـ antologie انطولوجيا او مبحث الامور العامة . وموضوعها في الفلسفة المعاصرة الاستياء بالذات مقابل الميتافيزيقا النقدية .

انظر المعجم الفلسفي يوسف كرم ... وشلاله . ـ المترجم ـ

في هذا المضمار وريثة اخطاء الراسمالية . بل اخذ النسق في عملية تجريد الانسان من انسانيته يتسارع في الشيوعية الماركسية : اذ لم تكن التقاليد الانسانية الروسية هي التي انتصرت فيها وانما التقاليد المتعارضة معها والمرتبطة بسنة النزعة الاستبدادية في الحكم التي كانت دائما تستخدم الانسان اداة لها . فالماركسية تعد الشر طريقا يقود الى الخير . والمجتمع الجديد ، الانسان الجديد ينشآن من تزايد الشر والظلام ، والنفس الجديدة يجب ان تصاغ من تلك المشاعر السلبية جميعها ، من الحقد ومن الثأر ومن العنف . وهذا هو العنصر الشيطاني في الماركسية الذي يطلق عليه اسم العنصر الديالكتيكي . ذلك ان الشر يتحول ، ديالكتيكيا ، الى خير والظلام الى نور . فقد اعتبر لينين ان كل ما يخدم الثورة البروليتارية هو اخلاقي : ولم يكن يعرف تعريفا غير هذا التعريف للخير . ومن هنا ينتج أن الغاية تبرر الوسائل ، بل الوسائل جميعها .

هكذا يفقد العنصر الاخلاقي في الحياة الانسانية كل دلالة مستقلة . وهذه هي عملية تجريد الانسان من انسانيته التي لا يناقش فيها. والهدف الذي تبرر في سبيله الوسائل جميعها ليس هو الانسان ، ليس هو الانسان الجديد، او ازدهار الانسانية لكنه تنظيم جديد للمجتمع فحسب. فالانسان يجب أن يستعمل اداة للمجتمع الجديد لا المجتمع الجديد اداة للانسان .

يمكن تعريف الشيوعية من الناحية النفسية بان لها هذه السمة الواضحة : العالم ينقسم بالنسبة لها الى معسكرين : اهورامزدا واهريمان، اي الى مملكة النور ومملكة الظلام دون ان يكون ثمة فروق تصل بينهما . ويكاد هذا ان يطابق الثنائية المانوية (١) التي يطالب بها هذا المذهب الواحدي maniste ومملكة البروليتاريا هي مملكة اهورامزدا المشرقة، على حين ان ظلمات البورجوازية هي مملكة اهريمان فكل شيء اذن يصبح مباحا للانتصار على مملكة الظلام . وهكذا يمكن ان تفسر الوان التطرف جميعها في طبيعة الشيوعية من تعصب وعدم تسامح ، بهذا الاعتقاد في مملكة الشيطان التي لا تطيق احتمالها ، ولكنها تبقى خاضعة لها بصورة

---

١ ـ manicheisme, manichéen مانوي ومانويه بنسبة الى ماني بن فاتك في القرن الثالث الميلادي . وقال عن نفسه انه رابع ثلاثة تقدموه : المسيح وزرادشت وبوذا . وقال عن مذهبه انه دين جديد لتحد فيه سائر الاديان وهو يدور على القول بأن للعالم مبدأين احدهما نور والآخر ظلمة . ـ المترجم ـ

سلبية . فالشيوعية بحاجة الى الشر ، الى الرأسمالية ، الى البورجوازية لكي تبغضها فاذا حرمت منها ، اذا جردت من بغضائها لها فقدت مصدر انفعالها العاطفي ، فلا بد لها من اختراع عدو ، اذا لم يكن لها عدو . والشعور الثوري كله مرتبط بموقف الرفض بالنسبة للماضي . حتى ليتساءل المرء احيانا ما اذا كانت الشيوعية تنتمي فعلا الى المستقبل ، وما اذا كانت متجهة نحوه . ولا شك انها تعني بالمستقبل اكثر من عناية الفاشستية به التي لا تشكل الا ظاهرة انتقالية . ولكن الشيوعية ما زالت بعد خاضعة خضوعا متينا لقوانين الماضي يربطها به لون من الكراهية المحبة ، فهي خاضعة لتأثير الشر في الرأسمالية وفي البورجوازية . ولا يستطيع الشيوعيون التغلب على الكراهية وهنا يكمن ضعفهم الرئيسي . ذلك أن الكراهية تنتمي دائما الى الماضي . والحب وحده هو الذي يقود الانسان الى المستقبل ، ويحرره من الاثقال الماضية ويظهر على انه ينبوع حياة جديدة . الا أن روح الشيوعية ، دينها وفلسفتها هي مناهضة للانسانية وهي معادية للمسيحية . لكن الخطأ هنا موزع ، لان الجهاز الاجتماعي الشيوعي ينطوي على جانب كبير من العدالة ولا بد من ان يكون، على وجه التأكيد ، اقرب الى المسيحية من نظام رأس المال . لذلك فان المدافعين عن الرأسمالية ليسوا هم الذين يملكون الحق فياتهام الشيوعيين بانكار الشخصية الانسانية وبالعمل على « تجريد الحياة الانسانية من انسانيتها » . فالعصر الصناعي والرأسمالي قد اخضع الانسان لسلطان الاقتصاد والمال ولا يملك انصاره صفة تذكير خصومهم بأن الخبز ليس السبب الوحيد لوجود الانسان . ومسألة الخبز بالنسبة الي ، هي مسألة مادية ولكن مسألة الخبز بالنسبة لجيراني ، بالنسبة للعالم قاطبة ، تصبح مسألة روحية ودينية . والحقيقة ان الانسان لا يحيا لاجل الخبز وحده ولكنه يعيش بالخبز لذلك يجب ان يتوفر الخبز للجميع ولا يكون هذا الا اذا نظم المجتمع بصورة تسمح لكل انسان أن يحصل على خبزه عندئذ تطرح المسألة الروحية بحدة اكثر على الانسان . وسوف يرفض الزج بالانسان للقتال من اجل مصالح روحية غايتها الوحيدة أن تنسيه بأن خبزه اليومي ليس مؤمنا.لان موقفا كهذا سوف يتضمن قدرا من الكلبيةcynisme سوف تنتهي ، برد الفعل ، الى الالحاد والى انكار الروح .

كان يجب على المسيحيين ان يتأثروا ، بفضل الحمية الدينية ، بحاجات البشر الجوهرية ، بحاجات الجمهرة العظمى من الناس ، بدلا من أن يعتادوا الازدراء بهم من اعالي مذهبهم الروحي . فالشيوعية ، بالنسبة

لهم ، هي درس عظيم ، تذكير بما كانت عليه تعاليم المسيح والاناجيل وبالعنصر التنبؤي في المسيحية .

ثمة مبدآن متعارضان يمكنهما أن يحكما الحياة الاقتصادية : الاول يدعو الفرد الى اتباع مصلحته الخاصة التي توجد متلاءمة مع مصلحة المجموع وبالتالي مع المجتمع ومع الامة ومع الدولة . وهذا هو التعريف البورجوازي للاقتصاد . اما المبدأ الثاني فيقول : اخدم الاخرين في الاقتصاد اليومي ، اخدم المجتمع ، اخدم الجماعية وسوف تنال عندئذ ما لا غنى لك عنه لحياتك .

لقد أكدت الشيوعية بكل انصاف ، المبدأ الثاني ومن الواضح ان هذا المبدأ يطابق للمسيحية وحدها . اذ ان عقيدة الحياة التي يقترحها المبدأ الاول لا تتلاءم تلاؤما تاما مع الحرفية المسيحية ، كما لم يكن ابدا التصور الروماني للملكية متفقا معها . ولا شك في أن الاقتصاد السياسي البورجوازي يطالب به ، فهو يحكم خطأ بأن قوانينه ابدية . فان «تعليلا» جديدا للعمل ربما ينشأ غدا يكون أكثر ملاءمة للكرامة الانسانية . وليس المقصود هنا تنظيما جديدا للمجتمع فحسب بل المقصود بنية جديدة للوجود ، لمشكلة الانسان الجديد . وفي سبيل خلق هذا الانسان الجديد لا بد من توفر طرق اخرى غير الطريق الالي الميكانيكي ، فلا بد من توفير تربية روحية من جديد ، اي تجديد للروح وهذا المجال بالذات هو ما تفتقر اليه البولشفية.ان ما اتمته هو تحويل الدولة الى بيروقراطية لاجعل الاقتصاد اشتراكيا . وهكذا لا تبدو الشيوعية ، في الصورة التي تتجلى بها في روسيا ، سوى تمجيد مفرط للدولة ـ تجسيد للوحش يفياتان الذي ينشب مخالبه في كل شيء . فالدولة السوفييتية كما سبق ان بينا هي مثل وحيد في العالم للدولة « الشمولية » : فقد حولت فكرة ايفان الرهيب ، التضخم الشبحي المخيف للدولة ، الى الحياة الروسية . ولكن فهم الحياة الاقتصادية كخدمة اجتماعية لا يقتضي تحويل كل عضو من اعضائها الى مجرد موظف . فاذا كان صحيحا أن شطرا من الصناعة ، بل واهم شطر فيها ، قد انتقل الى اشراف الدولة فلماذا لا يحضن في الوقت نفسه على تعاون الناس جميعهم ، من نقابات وعمال منعزلين يمثلون تنظيم المجتمع في ظروف سوف تستبعد استغلال الانسان لاخيه الانسان ؟ ولسوف تكون وظيفة الدولة الاشراف والضبط . ولا يدخل في موضوعنا ان نتطرق هنا الى مزيد من التفاصيل . كان يهم فحسب أن نبين بأن نزعة تمجيد الدولة ليست الشكل الوحيد الذي يمكن ان ينظم في ظله مجتمع ما

ويتجدد . فان النظام الكثروي pluraliste (١) يكون اكثر ملاءمة لحرية الروح الانسانية من النظام الواحدي الذي يقود الى الطغيان والى اذلال الشخصية . فواحدية النظام الماركسي هي عيبه الرئيسي . وهي في الدولة الشمولية ، على كل حال تتناقض مع المسيحية ، ما دامت الدولة هي التي تتحول الى كنيسة .

لقد اردت ان ابين في هذا الكتاب ان الشيوعية الروسية اشد ارتباطا بالتقاليد كما يظن عادة؛ وانها تغيير وتحريف لفكرة الرسالة idée messianique الروسية القديمة . ولكنها في اوروبا الغربية كانت تظهر مختلفة تمام الاختلاف ؛ على الرغم من العناصر المشتركة التي جلبتها مذاهب ماركس . وهذا الطابع التقليدي يرتسم في الشيوعية بسمات ايجابية وسمات سلبية في آن واحد . فمن جهة البحث عن الله وعن حقيقة كاملة وقابلية على التضحية وخلو من الروح البورجوازية ، ومن جهة اخرى نزعة الى الاستبداد وحكم مطلق للدولة ووعي بحقوق الانسان يتضاءل شيئا فشيئا واخيرا جماعية لا شخصية ولنكررها مرة اخرى : لو ان الشيوعية قد تحققت في بلدان اخرى فانها لن تاخذ بالضرورة بهذه الاشكال المتطرفة التي لاحظناها . ليس من الضروري ان تكون دينا . اذ يمكن ان توقظ جملة المشكلات التي تطرحها ، الضمير المسيحي وان تقود الى تطور نوع من المسيحية الاجتماعية ــ لا ان تفهم المسيحية فيها كدين اجتماعي ، بل لان الكشف عن الحقيقة المسيحية سوف يوضع على علاقة وثيقة بالحياة . واخيرا تكون هذه اشارة الانعتاق من هذه العبودية التي ما زال الوعي المسيحي يجد نفسه غارقا فيها . فالعالم يعاني خطر تجريد الحياة من انسانيتها وتجريد الانسان نفسه من انسانيته ويحس هذا الانسان ان وجوده مهدد من جميع الجهات بما يجري في الكون. ولا يستطيع الاعتصام من الاخطار التي تحيق به من كل جانب الا بتاكيد نفسه روحيا . فحين ظهرت المسيحية في العالم كانت آتية للدفاع عن الانسان ضد اخطار عبادة الشيطان . كان الانسان يجد نفسه في قبضة القوى الكونية للشياطين

---

(١) pluralisme pluraliste كثروي وكثري ، لفظ يطلق على مذهب البراجماتزم الذي يتصور الكون متكثرا فيعارض بذلك الأحادية والجبرية ، ويدع مستقبل العالم يحتمل امكانات عدة يتوقف تحقيقها على فعل الكائنات التي تقرر مصيره . انظر المعجم الفلسفي يوسف كرم ... وشلاله . ـ المترجم ـ

وارواح الطبيعة ، فمدت له المسيحية يد العون واخضعت روحه اللـــه . وهكذا صارت ممكنة ، فيما بعد ، سيطرة الانســان عـــلى الطبيعـــة . والمسيحية مدعوة اليوم من جديد للدفاع عن الشخص الانساني وعن كمال شكله المهدد مرة اخرى بعبادة الشيطان : وذلك بالتعاون مع القوى الكونية القديمة والقوى الجديدة للتقنية والمسيحية المتجددة وحدها هي التـــي تستطيع أن تكون في مستوى هذه المهمة .

فهرست

مقدمة : الفكرة الدينية والدولة الروسية ٥

الفصل الاول : تكوّن الانتليجنسيا الروسية وطابعها ـ الحركة القومية (الصقلبية) وحركة الاتجاه الى الغرب ١٧

الفصل الثاني : العدمية والاشتراكية الروسيتان ٣٤

الفصل الثالث : الحركتان الروسيتان : الشعبية والفوضوية ٥٤

الفصل الرابع : الادب الروسي في القرن التاسع عشر وطبيعته التنبؤية ٧٢

الفصل الخامس : الماركسية الكلاسيكية والماركسية الروسية ٩١

الفصل السادس : الشيوعية الروسية والثورة ١١٠

الفصل السابع : الشيوعية والمسيحية ١٥١

هذا الكتاب

تفهم الشيوعية الروسية بصعوبة ، نظراً لما يتسم به معناها من ازدواجية . فهي تتكشف في أكثر من ناحية عن أنها ظاهرة عالمية وشامله وعن أنها ظاهرة روسية وقومية في نواح أخرى. إذ أن علينا أن نعرف بأن للشيوعيه الروسيـــة جذوراً قومية وأن ابعادها إنمـا تعين بتاريخ الروسيا . فمعرفة الماركسية وحدها لا تكفينا هنا لانارة طريقنا . هذا هو الموضوع الهام الذي يعالجه هذا الكتاب .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن
٤٠٠ ق. ل.
٥٢٠ ق. س.